صخرة طانيوس

AMIN MAALOUF

Le Rocher de Tanios

Roman

Bernard Grasset
Paris

أمين معلوف

صخرة طانيوس

(روايـــــة)

ترجمة
نهلة بيضون

ANEP ــ دار الفارابي

الكتاب: صخرة طانيوس Le Rocher de Tanios
المؤلف: أمين معلوف
المترجم: نهلة بيضون
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
* دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107

الطبعة الأولى 2001
ISBN: 9961-903-37-4
Dépôt - légal: 750-2001

EDITION ANEP
28 route Ahmed OUAKED Dely-Ibrahim, Alger Algérie
Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53
e-mail: dcpa@anep.com.dze

DAR AL FARABI
(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban
Tel: (01)301461 - Fax: (01)307775 - P.O.Box: 3181/11
Code Postale: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

إلى ذكرى الرجل
ذي الأجنحة المتكسرة

"إنه شعب من أجله خلقت الأليغانيزات ولبنانات الحلم هذه!...

أية سواعد طيبة، أية ساعة عنبة ستعيد لي هذه المنطقة التي يأتي منها رقادي وأدنى حركاتي؟"

آرتور رامبو
«الإشراقات»

للصخور أسماء في الضيعة التي أبصرت فيها النور. فهناك المركب، ورأس الدب، والكمين، والجدار، وكذلك التوأمان المعروفان ببزاز الغول. وهناك تحديداً صخرة العسكر التي كان الجنود يرابطون عندها حين تطارد الكتيبة العصاة، وما من موقع يفوقها إجلالاً واختزاناً للأساطير. ومع ذلك، فعندما يصدف أن أبصر في الحلم طبيعة طفولتي، تتراءى أمام ناظري صخرة أخرى. تلوح كمقعد جليل، متقعر، كأنه اهترأ في موقع المؤخرة، بمسنده الشاهق والمستقيم المنسدل على الجانبين كالمرفق - وهي الصخرة الوحيدة التي تحمل، على ما أظن، إسم رجل، صخرة طانيوس.

لطالما تأملت ذلك العرش الحجري ولم أجرؤ على ملامسته. ليس خوفاً من الخطر؛ ففي الضيعة، كانت الصخور مرتع لهونا المفضل، وقد اعتدت، حتى في طفولتي، على تحدِّي أترابي الأكبر مني سناً، والمجازفة بتسلق أخطر الصخور؛ كنا لا نملك سوى أيدينا وسيقاننا العارية، ولكن جلدنا كان يجيد الالتصاق بجلد الصخرة، فلا يصمد أمامنا أي جلمود.

لا، لم أحجم خوفاً من الانزلاق، بل كان تطيراً وعهداً

انتزعه مني جدي، قبل أشهر على وفاته. "كل الصخور إلا تلك الصخرة!". وكان الصبية الآخرون يظلون مثلي على مسافة منها، ويشعرون نحوها بالرهبة المتطيرة نفسها، ولعلهم مثلي قد قطعوا وعداً، ويدهم على زغب شاربهم، وحصلوا على التبرير عينه: "كان يلقب بطانيوس الكشك. وقد جلس على هذه الصخرة، ثم توارى عن الأنظار".

غالباً ما ذكر أمامي ذلك الرجل، بطل الكثير من الحكايات المحلية، وكان اسمه يثير فضولي على الدوام. كنت أعلم أن طانيوس أحد الأسماء العامية الكثيرة لأنطوان على غرار أنطون، وأنطونيوس، ومطانيوس، وطانوس، أو طنوس... ولكن، لـمَ ذلك اللقب المضحك "الكشك"؟ لم يشأ جدي أن يبوح لي بالسر، مكتفياً بما يعتقد أنه يجوز له التصريح به لطفلٍ: "كان طانيوس ابن لميا. لا بد أنك سمعت بها. لقد حدث ذلك منذ عهد سحيق، لم نكن قد ولدنا، لا أنا ولا والدي. في ذلك الزمن، كان والي مصر يحارب العثمانيين، وقد عانى أجدادنا الأمرين، لا سيما عقب اغتيال البطريرك. فقد أطلق عليه النار، هنا، عند مدخل الضيعة، ببندقية القنصل الإنكليزي". هكذا كان جدي يتكلم حين لا يرغب الرد على أسئلتي، فيلقي بشذرات الكلام كأنه يهدي إلى سبيل، فسبيل ثان، وثالث، ولا يسلك أياً منها. ولقد اضطررت للانتظار سنوات طويلة قبل اكتشاف حقيقة ما جرى.

إلا أنني كنت متسلحاً بأفضل خيوط هذه الحقيقة لأنني أعرف إسم لميا. وكان هذا الإسم لا يخفى علينا جميعاً في الضيعة بفضل قول شعبي اجتاز، لحسن الحظ، قرنين من الزمن ليصل إلى مسامعنا: "لميا، لميا، كيف بتخبي هالحلا؟"

وعلى هذا النحو، وحتى في أيامنا الراهنة، حين يلمح الشبان

المتجمعون في ساحة الضيعة عابرة سبيل متلفعة بشالها، ينبري أحدهم دائماً ويتمتم: "لميا، لميا..."وفي أغلب الأحيان، يكون ذلك القول مديحاً صادقاً، وفي أحيان أخرى، سخرية لاذعة. ويجهل معظم هؤلاء الشبان لميا، أو المأساة التي احتفظ ذلك القول بذكراها، ويكتفون بترداد ما سمعوه نقلاً عن آبائهم أو أجدادهم. وفي بعض الأحيان، يومئون بيدهم، أثناء الكلام، إلى رأس الضيعة، وقد أضحى مهجوراً اليوم، حيث ما زالت تتراءى للعيان أطلال قصر تحتفظ بهيبتها.

وبسبب هذه الإيماءة التي تكرَّرت مراراً أمام ناظري، لطالما خلت أن لميا أميرة تواري حسنها عن أنظار أهالي الضيعة وراء هذه الأسوار العالية. مسكينة لميا، لو لمحتها منهمكة في المطابخ، أو مهرولة حافية القدمين، عبر الأروقة، والإبريق في يدها، والقمطة على رأسها، لما خلطت بينها وبين سيدة القصر.

ولم تكن مع ذلك خادمة. فقد صرت اليوم أعلم المزيد عنها قليلاً. أولاً بفضل عجائز الضيعة، رجالاً ونساءً، الذين أمطرتهم بوابل أسئلتي بلا كلل. كان ذلك منذ نيف وعشرين عاماً، وقد وافتهم المنية جميعاً، منذ ذلك الحين، باستثناء أحدهم. كان يدعى جبرايل، وهو نسيب لجدِّي، ويبلغ من العمر اليوم ستة وتسعين عاماً. ولئن ذكرت إسمه، فليس لأنه قد حصل على امتياز البقاء حياً فحسب، بل لأن شهادة ذلك المعلم السابق الشغوف بالتاريخ المحلي من أهم الشهادات، بل كانت، والحق يقال، لا تعوَّض. كنت أحدِّق فيه ساعات طوالاً، وكان منخراه واسعين، وشفتاه عريضتين تحت رأسه الأجلح والمتغضن - كانت السنون قد حفرت ملامح وجهه بكل تأكيد. لم أصادفه ثانية في الآونة الأخيرة، إنما أكد لي بعضهم أنه ما زال يحتفظ بنبرة البوح تلك، وبذلك السرد المتحمس عينه، وبذاكرة لا غبار عليها. ومن خلال

الكلمات التي أهم بكتابتها، يجب الإصغاء إلى صوته في أغلب الأحيان.

أدين لجبرايل بكون إيماني ترسَّخ في مرحلة مبكرة للغاية بأن طانيوس كان كائناً من لحم ودم، بغضّ النظر عن كونه أسطورة. ثم حصلت على الدلائل لاحقاً، بعد سنوات لاحقة، إذ أسعفني الحظ فتسنى لي أخيراً الحصول على مخطوطات أصلية.

ثمة مخطوطات ثلاث سوف أستشهد بها في أغلب الأحيان. مخطوطتان لشخصين عرفا طانيوس عن كثب، وثالثة أحدث منهما عهداً، صاحبها رجل دين توفي غداة الحرب العالمية الأولى، وهو الراهب الياس من كفريبدا - إسم ضيعتي، ولا أظن أنني أتيت على ذكره سابقاً. ويحمل كتابه العنوان الآتي: أخبار الجبل، أو قصة ضيعة كفريبدا والكفور والمزارع التابعة لها والمعالم التي تضمها والعادات التي تتميز بها والرجال العظام الذين عاشوا فيها والأحداث التي جرت فيها بمشيئة العلي القدير.

كان كتاباً غريباً، وفريداً، ومحيراً. ففي بعض صفحاته، كانت النبرة ذاتية، يتحمس فيها اليراع ويفلت من عقاله، فينطلق الأسلوب ويسترسل، ويحيد جريئاً عن مساره، ويشعر القارىء أنه أمام كاتب أصيل. ثم، وعلى حين غرة، ينكفىء الراهب، كأنه خشي ارتكاب إثم الغرور، ويتوارى، فتتسطَّح نبرته، ويعود مكفراً عن ذنبه إلى دور جامع الأخبار الورع، يراكم الاستشهادات بالأسلاف وأعيان عصره، يستحسن ما كان منها شعراً، ذلك الشعر العربي من عصر الانحطاط الذي تثقله الصور المنمطة، والمشاعر الفاترة.

لم أع ذلك إلا بعد الفروغ من القراءة الثانية المتمعنة لتلك الصفحات الألف - أو التسعمائة والسبع والتسعين، تحديداً، من التوطئة إلى البيت التقليدي في ختامها: "أنت الذي سوف تقرأ

كتابي، كن متسامحاً. . . ". للوهلة الأولى، حين وقع بين يديَّ ذلك المؤلف الأخضر الغلاف الذي تقتصر زخرفته على معيَّن كبير أسود، والذي قرأته للمرة الأولى لم ألمح ذلك الخط المرصوص الخالي من الفواصل والنقاط والفقرات، مجرد خطوط متراصة محتجزة في هوامشها كاللوحة في إطارها، وبين الحين والآخر، تفلت كلمة، هنا وهناك، للتذكير بالصفحة السابقة أو الإعلان عن الصفحة التالية.

ومع ترددي بالخوض في قراءة تنذر بالملل، رحت أتصفح ذلك الوحش بطرف أصابعي، بطرف عيني، فإذا بتلك السطور تبرز أمام ناظري، فنسختها على الفور، ثم ترجمتها، وبادرت إلى تنقيطها: "حول الرابع من تشرين الثاني 1840، تاريخ الإختفاء الغامض لطانيوس الكشك. . . . بالرغم من أنه كان يملك كل ما يتمناه المرء في الحياة. فقد فكت عقدة ماضيه، وذُللت الصعاب التي تعترض دروب الغد. لا يعقل أن يكون قد غادر الضيعة بملء إرادته. والجميع على يقين بأن لعنة ما ترتبط بالصخرة التي تحمل إسمه".

وعلى الفور، لم تعد الصفحات الأولى مستغلقة عليَّ. ورحت أنظر إلى المخطوط نظرة مغايرة،كأنه دليل، أو رفيق. أو ربما مطية.

وصار بوسع رحلتي أن تبدأ.

العبور الأول

إغواء لميا

أستغفر ربي على الساعات والأيام التي اضطررت لاختلاسها من وقت الصلاة المبارك وقراءة الكتاب المقدس لكتابة هذه القصة غير المكتملة لأهل ضيعتي، وعذري أن أيةً من هذه الدقائق التي نعيشها لما قدِّر لها أن تكون لولا آلاف السنين التي سبقتها منذ لحظة الخلق، ولما قدِّر لأي من خفقات قلبنا أن تكون لولا أجيال الأسلاف المتعاقبة، بلقاءاتهم، ووعودهم، وزيجاتهم، بل حتى إغواءاتهم.

توطئة أخبار الجبل
للراهب إلياس من كفريبدا

I

في ذلك الزمن، كانت السماء وطيئة بحيث لا يجرؤ أي إنسان على الانتصاب بكامل قامته. ولكن الحياة كانت تمضي برغباتها وأعيادها. ولئن كان المرء لا يتوقع أفضل ما فيها، فقد كان يتمنى في كل يوم أن يفلت من أسوأ أحكامها.

كانت الضيعة بكاملها ملكاً للإقطاعي ذاته. كان وريث سلالة عريقة من المشايخ، ولكن الإشارة إلى "عصر الشيخ " في الزمن الحاضر، دون تحديد آخر، لا تخفى على أحدهم، فقد كان ذلك الذي عاشت لميا في ظله.

لم يكن أكثر الزعماء سطوة في البلاد قاطبةً. فبين السهل الشرقي والبحر، تنتشر عشرات المقاطعات التي تفوق مقاطعته مساحةً. كان يملك كفريبدا وبعض المزارع حولها فحسب، ولا يخضع لسلطته أكثر من ثلاثمائة بيت. وكان يخضع هو وغيره من الأسياد لسلطة أمير الجبل الذي يخضع لولاة الأقاليم في طرابلس، ودمشق، وصيدا، وعكا. وفوق هؤلاء جميعاً، في أعلى المراتب، بجوار السماء، يتربع سلطان الآستانة. غير أن أهالي ضيعتي ما كانوا يرنون إلى أعلى من ذلك، و"شيخهم" كان أصلاً شخصاً جليل المقام.

كانوا يسلكون، كثراً، كل صباح، طريق القصر لانتظار استيقاظه من النوم، متدافعين في الرواق الذي يفضي إلى مخدعه. وحين يطل عليهم، تلهج حلوقهم بالأدعية التي يهمسونها همساً أو يرفعون عقيرتهم بها، وترافق جلبتهم كل خطوة يخطوها.

كان معظمهم يحاكي زيه، سروالاً أسود فضفاضاً، وقميصاً بيضاء مقلمة، ولبادة بلون التراب، و جميع الرجال تقريباً يطلقون الشوارب الكثة والمجعدة نفسها، المنتصبة بزهو وسط وجوههم الجرداء. ما الذي كان يميز الشيخ؟ لا شيء سوى تلك السترة الخضراء المطرزة بخيوط ذهبية، وكان يرتديها في كل الفصول كما يرتدي بعضهم فروةً أو يحمل صولجاناً. ولم يكن أي زائر ليجد صعوبة، حتى بدون تلك العلامة الفارقة، في تمييز السيد وسط الجموع، بسبب انحناء الرؤوس، الواحد تلو الآخر، لتقبيل يده، وهو طقس يتواصل حتى قاعة الأعمدة، إلى أن يجلس في مكانه المعتاد على أريكته، ويضع بين شفتيه المبسم المذهب لنربيج نارجيلته.

وعندما يؤوب هؤلاء الرجال إلى بيوتهم لاحقاً خلال النهار، يخبرون زوجاتهم: "لقد رأيت يد الشيخ هذا الصباح"، عوضاً عن: "قبلت يد الشيخ..." . كانوا يقبلونها لا ريب، وعلانيةً، ولكنهم يأبون الاعتراف بذلك. كما لا يقولون: "رأيت الشيخ"، فقد كان هذا القول لا يخلو من التبجح، وكأن الأمر يتعلق بلقاء شخصين على قدم مساواة! لا، "رأيت يد الشيخ"، تلك كانت العبارة المعهودة.

ولا تحظى يد أخرى بهذا القدر من الأهمية. فيد الله ويد السلطان لا تغدقان سوى المصائب الكبرى؛ أما يد الشيخ فتوزع الويلات اليومية، وبعض فتات السعادة أحياناً.

في لهجة أهالي الضيعة، كانت كلمة "كف" تشير أحياناً إلى

اليد والصفعة معاً. وكم من الأسياد جعلوا منها رمزاً لسطوتهم وأداة لحكمهم. وحين يتجاذبون أطراف الحديث، بعيداً عن آذان رعيتهم، يتردد في كلامهم قول شعبي: "يجب أن يكون لكل فلاح صفعة قرب عنقه"، ويريدون بذلك أن الفلاح يجب أن يعيش دائماً في رهبة وخنوع. وغالباً ما كانت كلمة "كف" اختصاراً لكل من "القيود"، و"السوط"، و"السخرة"...

لم يكن الإقطاعي يعاقب على تنكيله برعيته؛ ولو صدف، في نادر الأحيان، أن وبخته السلطات العليا، فلأنها تعتزم التخلص منه لأسباب مختلفة تماماً، وتسعى لإلقاء اللوم عليه لأتفه الأسباب. كان الجميع يعيشون منذ قرون عديدة تحت رحمة التعسف، وفي حال كان هناك حكم عادل في غابر الأزمان، فإن ذكراه قد امَّحت من الأذهان.

وعندما يسعف الحظ الفلاحين بسيد أقل جشعاً وقسوة من سواه، يعتبرون أنفسهم محظوظين، ويشكرون الله على رأفته ونعمته، كأنهم يعتقدونه عاجزاً عن القيام بأفضل مما فعل.

كان ذلك هو الوضع السائد في كفريبدا، وأذكر أنني فوجئت، وثارت حفيظتي، غير مرة، بسبب الود الذي كان يذكر به القرويون ذلك الشيخ وعهده. كانوا يقولون إنه يقدم يده للتقبيل لا ريب بين الحين والآخر، ويصفع أحد أتباعه صفعة مدوية، ولكنه لا يلحق الإهانة مجاناً؛ ولمّا كان الشيخ هو الذي يقيم العدل في مقاطعته، وكل الخلافات - بين الإخوة، والجيران، وبين الزوج وزوجته - تسوَّى في حضرته، فقد اعتاد الاستماع إلى المتظلمين، ثم إلى بعض الشهود، قبل اقتراح تسوية؛ وكان الأطراف المعنيون ملزمين بالانصياع لحكمه، والمصالحة فوراً بالعناق المعهود، ولو تعنت أحدهم، تأتي صفعة السيد لتحسم المسألة نهائياً.

كان ذلك العقاب نادراً بما يكفي ليصبح، لأسابيع طويلة،

حديث القوم الذين يتفننون في وصف صفير الصفعة، ويسترسلون في الكلام على آثار الأصابع التي قد تستمر واضحة للعيان ثلاثة أيام، وعلى جفني الشقي اللتين سوف تطرفان إلى الأبد.

كان أقارب الرجل الذي انهالت عليه الصفعة يأتون لزيارة الشيخ، فيتحلَّقون في مجلسه، صامتين كما في العزاء ثم يعلن أحدهم أنه لا يجب الشعور بالإهانة، فمن ذا الذي لم يصفعه والده من قبل؟

هكذا كان الشيخ يريد أن ينظر إليه رعاياه. وكان يخاطب حتى المسنين منهم قائلاً: "يا ابني!"، أو "يا بنتي!". كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن حلفاً وثيقاً يربطه بأفراد رعيته الذين يدينون له بالطاعة والإجلال، وهو يدين لهم بالحماية في كافة الظروف. كانت هذه الأبوة المطلقة، في أوائل القرن التاسع عشر، تبدو غريبة، وكأنها من رواسب عصر الطفولة والبراءة، يرتضيها معظم القرويين، ويحن إليها بعض أحفادهم حتى اليوم.

لا بد لي من الاعتراف أنني غدوت أكثر تسامحاً في حكمي عليه، إذ اكتشفت بعض جوانب شخصيته، لأن " شيخنا "، بالرغم من حرصه على كل صلاحية من صلاحياته، لم يكن يستهتر بواجباته على غرار الكثيرين من الأسياد الآخرين. وعلى هذا النحو، كان كل الفلاحين مرغمين على تسليمه حصة من المحصول، ولكنه كان يصرِّح بالمقابل أن "لا أحد في هذه الأرض سوف يجوع طالما في القصر خبز وزيتونة". وقد تحقق الفلاحون في أكثر من مناسبة أن هذا الوعد ليس مجرد كلام.

كان أسلوب الشيخ في التعاطي مع السلطات العليا يحظى بالقدر نفسه من الأهمية لدى الأهالي، ولهذا السبب، احتفظ عنه الناس بذكرى عطرة. فالأسياد الآخرون، حين كان يفرض عليهم الأمير أو الوالي ضريبة جديدة، لا يجشِّمون أنفسهم عناء الجدال،

ويفضلون إرهاق كاهل رعاياهم بدلاً من مواجهة الأقوياء. ولكن " شيخنا" لم يكن من هذه الطينة. كان يرغي ويزبد، ويرسل العريضة تلو الأخرى، ويحتج بالمجاعة والصقيع والجراد، ويوزِّع رشوات مجزية، ويحصل أحياناً على مهلة أو تأجيل، لا بل إعفاءً من الضريبة. ويقال إن مأموري الخزينة يصادرون حينذاك المبالغ الناقصة من إقطاعيين أكثر خنوعاً.

كانت مساعيه لا تتكلل بالنجاح في أغلب الأحيان. فقلما كانت السلطات مستعدة للمساومة في مسألة الضرائب، ولكنه كان يحاول على الأقل، والفلاحون يقابلون مساعيه بالامتنان.

وكان سلوكه في زمن الحرب ينتزع الاعجاب. فقد استحصل لرعاياه، متذرعاً بتقليد قديم، الحق في القتال تحت رايتهم الخاصة عوضاً عن تجنيدهم مع سائر الجيش. وكان ذلك الأمر امتيازاً فريداً بالنسبة إلى معقل صغير للغاية لا يستطيع في أفضل الأحوال أن يجند أكثر من أربعمائة نفر. ولكن الفرق كان شاسعاً بالنسبة للقرويين. فالرحيل إلى ساحة الوغى مع الأشقاء والأبناء والأقارب، بقيادة الشيخ الذي يعرف كل واحد منهم بالإسم، ويقينهم بأنه لن يتخلى عنهم في ميدان القتال إذا جرحوا، وسوف يستردهم إذا وقعوا في الأسر، ويؤمن لهم دفناً وجنازة لائقين إذا قضوا نحبهم! وكذلك ثقتهم بأنهم لن يذهبوا إلى الذبح لإرضاء أحد الولاة المتهتكين! كان الفلاحون يفخرون بذلك الامتياز على غرار الشيخ نفسه. وبالطبع، كان يجب أن يستحقوه عن جدارة، وألا يكتفوا "بالتظاهر"، بل أن يقاتلوا ببسالة، لا بل أن تفوق بسالتهم بسالة الجنود المشاة في صفوفهم أو في صفوف العدو، وأن يضرب المثل بشجاعتهم في كل قرى الجبل، وكل أنحاء الإمبراطورية، كان ذلك اعتزازهم، وشرفهم، وكذلك الوسيلة الوحيدة للمحافظة على ذلك الامتياز.

ولكل هذه الأسباب، كان أهالي كفريبدا يعتبرون أن "شيخهم" أهون الشرين. ولكان تراءى لهم نعمة حقيقية لولا عيب فيه لا يطاق كان يقضي بالنسبة إلى بعض الأهالي على أنبل صفاته.

قال لي جبرايل العجوز: "النساء!"، ولمعت في وجهه الشبيه بالصقر الجارح، عينان شبقتان: "النساء! كان الشيخ يشتهيهن جميعاً، ويغوي واحدة كل ليلة!".

كانت الجملة الأخيرة ضرباً من الخرافة. أما كل ما عداها، وهو بيت القصيد، فيبدو أن الشيخ، على غرار الكثير من الإقطاعيين في كل أرجاء المعمورة، كان يعيش، وهو مؤمن إيماناً راسخاً بأنه يملك كل النساء في مقاطعته، على غرار البيوت، والأراضي، وأشجار التوت، والكروم، على غرار الرجال، وبوسعه المطالبة بحقه في أحد الأيام، كما يحلو له.

لا يظنن المرء أنه كان كالصياد الذي يهيم في الضيعة بحثاً عن فريسة، وبرفقته أزلامه الذين يبحثون عن الطريدة. لا، لم تكن الأمور تجري على هذه الشاكلة. فبالرغم من جموح شهوته، لم تفارقه أنفته قط، ولا سولت له النفس التسلل للاستفادة كاللص من غياب الزوج، فقد كان يحتفي في عقر داره، إذا جاز القول.

وكما كان من واجب كل رجل أن يصعد، ولو مرة في الشهر، "لرؤية يد الشيخ"، كان من واجب كل النساء تخصيص يوم للمساعدة في الأعمال اليومية أو الموسمية، كانت تلك طريقتهن للإعراب عن ولائهن. وكان لبعضهن مهارات خاصة، كأسلوب لا يضاهى في دق اللحمة في الجرن، أو في دَحْوِ العجين. وكان إعداد الولائم يتطلب تجنيد كل المهارات دفعة واحدة. كان شكلاً من أشكال السخرة باختصار، ولكنها سخرة تتوزع على عشرات ومئات النسوة، فتخف وطأتها.

قد يفهم من كلامي أن إسهام الرجال يقتصر على تقبيل يد الشيخ كل صباح، ولكن هذا يتنافى مع الواقع. فقد كانوا مكلفين الاهتمام بجمع الحطب، وبالإصلاحات الكثيرة، وبإزاحة الجلول المنهارة في أراضي الشيخ، ناهيك أعظم سخرة مفروضة على الذكور، وهي الحرب. ولكن القصر، في أوقات السلم، كان قفيراً من النسوة، ينهمكن، ويثرثرن، ويمرحن كذلك. وفي بعض الأحيان، في وقت القيلولة، حين تغرق الضيعة بأكملها في رخاوة ظليلة، تتوارى هذه المرأة أو تلك بين الأروقة والغرف، ثم تظهر للعيان بعد ساعتين وسط الهمس.

كان بعض النساء ينخرط في هذه اللعبة عن طيب خاطر، إذ يشعرن بالزهو للحظوة والرغبة التي يثرنها. وكان الشيخ يتمتع بالهيبة والوقار، وهن يدركن أنه يعجب بحسن المرأة وذكائها، ولا ينقض على أول خصلة شعر يلمحها. ويتردد في الضيعة قول كان يكرِّره: "الحمار وحده يرقد قرب حمارة!". كان شبقه لا يرتوي، ولكنه شبق متطلب. وتلك هي الصورة التي احتفظ بها الناس عنه، وكانت على الأرجح الصورة التي خلَّفها لدى المعاصرين من أتباعه. وبالتالي، كانت نساء كثيرات يرغبن أن يرمقهن ولو بنظرة للتأكد من قدرتهن على الإغواء، سواءً استسلمن أم لم يستسلمن له لاحقاً. ولا أنكر أنها كانت لعبة محفوفة بالمخاطر، ولكن، هل كان بوسعهن، لحظة يبرعم حسنهن ثم يتفتح، العدول عن أية رغبة بالإغراء قبل ذبول مفاتنهن؟

بيد أن معظمهن، وبغض النظر عن مزاعم جبرايل العجوز، لم يرغبن بتلك العلاقة المشبوهة والعابرة. فاقتصرن في المغازلة على التهرب، ويبدو أن السيد كان يعرف الاستسلام متى أظهرت "غريمته" نباهةً، واحترازاً بالدرجة الأولى: ففي اللحظة التي تلفي فيها امرأة مشتهاة نفسها على انفراد مع الشيخ، لا يعود بإمكانها

الممانعة وإلا ألحقت به الإهانة، وهذا ما لن تقدم عليه أية امرأة قروية. ويتحتم على حيلتهن أن تتجلى باكراً لتفادي ذلك الوضع المحرج. فيلجأن إلى جملة من الحيل كأن تحضر بعضهن، متى حان دورهن للذهاب إلى القصر، وهن يحملن على ذراعهن طفلاً رضيعاً أو طفل جارتهن. أو تصطحب بعضهن الأخريات شقيقتهن أو والدتهن، وهن على يقين بأنهن لن يتعرضن للتحرش. وكانت حيلة أخرى للإفلات من ملاحقة السيد تقضي بمجالسة زوجته الشابة، الشيخة، وعدم مفارقتها حتى حلول المساء.

لم يتزوج الشيخ قبل بلوغه الأربعين، وقد أكره على الزواج. فقد تلقى بطريرك طائفته عدداً من الشكاوى بحق زير النساء هذا الذي لا يرتدع، وصمَّم على استغلال نفوذه من أجل وضع حد لهذا الوضع الشائن. وخال أنه قد فطن إلى الحل الأمثل بعقد قرانه على إبنة زعيم إقطاعي يفوقه نفوذاً، هو سيد الجرد العالي، على أمل أن يرغم سيد كفريبدا على الثواب إلى رشده، إكراماً لزوجته، ولئلا يثير حفيظة حموه.

في العام الأول للزواج، رزقت الشيخة بطفل ذكر، أطلق عليه إسم رعد. غير أن الشيخ، وبالرغم من فرحته بوريثه، سرعان ما عاد إلى عادته المذمومة، مهملاً زوجته أثناء حملها، بل وممعناً في هجرها عقب الولادة.

وسوف تظهر هذه الزوجة، خلافاً لتوقعات البطريرك، ضعفاً ملحوظاً. لا شك أنها كانت متأثرة بنموذج أسرتها الإقطاعية، وأبيها وأشقائها المتهتكين، ووالدتها الصبورة. كانت سيرة زوجها تبدو لها حصيلة طباعه ومكانته الاجتماعية، وهما أمران لا تقوى على تغييرهما. كانت تأبى أن تسمع عن مغامرات زوجها العاطفية، لئلا تضطر لاتخاذ موقف منها. ولكن الإشاعات كانت تصل إلى مسامعها، فتتعذَّب، وإن كانت تحرص على البكاء بعيداً عن عيون

الناس، أو في حضرة والدتها التي كانت تزورها لفترات طويلة.

كانت تتظاهر في القصر باللامبالاة أو بالسخرية المتعالية، وتغرق أحزانها في الحلوى. لا تفارق مجلسها في البهو الصغير المحاذي لغرفتها، وتعتمر طنطوراً على الطراز القديم، وهو أسطوانة طويلة فضية تعلو الشعر عمودياً، وينسدل فوقها برقع من الحرير، كان زياً تحرص على الاحتفاظ به لشدة تعقيده أثناء النوم. وقد رأى جبرايل أنه "لم يساعدها إطلاقاً على استعادة حظوة الشيخ، ولا بدانتها كذلك. فقد قيل إنها كانت تبقي بمتناول يدها سلة من الحلوى تحرص الخادمات والزائرات باستمرار على مراقبتها لئلا يفرغ محتواها. وكانت سيدة القصر تتخم نفسها كالخنزيرة".

لم تكن المرأة الوحيدة التي تعاني، ولكن شبق الشيخ كان يثير أعظم قدر من الحقد لدى الرجال. ولئن تظاهر بعضهم بأن الأمر لا يحصل إلا لزوجات وأمهات وشقيقات وبنات الآخرين، فقد كانوا يعيشون جميعاً، على الدوام، وهم يخشون هتك أعراضهم. كانت الضيعة تضج دوماً بأسماء نساء، ويجد الحسد والتشفي لهما متنفساً عبر ذلك المجرى. فتنشب الخلافات حيناً، لأسباب تافهة، وتتكشف عن الحقد المكظوم لهؤلاء أو أولئك.

كان الأهالي يترصدون بعضهم بعضاً، ويكفي أن تتأنق امرأة قليلاً لدى ذهابها إلى القصر، ليرتاب بعضهم برغبتها في إغواء الشيخ. فتلام على الفور، بل تصبح أكثر ملامة من الشيخ نفسه الذي يعذر "لأنه فطر على ذلك". والحق يقال إن أنجح الحيل التي كانت تلجأ إليها النساء اللواتي يحرصن على عدم الوقوع في الغواية، كانت تقضي بالمثول أمام السيد، بأكثر المظاهر قبحاً ورثاثة وتشويهاً. . . .

غير أن بعض النساء لا يفلح في إخفاء حسنه، أو ربما لم

يشأ الخالق أن يحجبهن عن الأنظار؛ وكم تثار، يا إلهي، حولهن الأهواء!

كانت إحداهن تعيش في ضيعتي في ذلك العصر. كانت لميا تحديداً. لميا التي يتحدث عنها القول المذكور آنفاً.

II

كانت لميا تحمل حسنها كالصليب. ولو تعلق الأمر بامرأة غيرها، لحجبت نفسها عن الأنظار، أو تسربلت بقماش رثٍّ لئلا تجذب إليها العيون. ولكن لميا لم تكن من تلك النساء، فلكأنها مغمورة بالضياء. وعبثاً تحجبت، وتوارت، وذابت وسط الجموع، فقد كان أمرها مفضوحاً ومكشوفاً للعلن، ويكفي حركة منها، أو يد مرفوعة تلامس بها شعرها، أو أغنية تدندنها سهواً، لتصبح محط الأنظار، ولا تسمع الآذان سوى صوتها الذي يجري كالماء الرقراق.

ولئن كان الشيخ يفصح مع سائر النساء عن غروره وشهوته، فقد كان موقفه من لميا، منذ النظرة الأولى، مغايراً. كان حسنها يشعره بالحياء، وهو شعور قلما انتابه. وكان هذا الإحساس يؤجج سعير رغبته، ولا يفقده صبره. فهذا المحارب بالفطرة يلجأ إلى خطط محبوكة في غزوات أكثر اعتياداً - عبارة ودودة، تلميح ماكر، استعراض قوة مقتضب -، فيخرج ظافراً. أما مع لميا، فقد رضخ لفكرة ضرب الحصار حولها.

ولا ريب بأنه ما كان ليلجأ إلى هذه المناورة الحكيمة لولا ظرف كان يطمئنه ويعيقه في آن: فقد كانت لميا تعيش تحت

سقفه، وتسكن أحد أجنحة القصر، لأنها كانت زوجة وكيله، جريس.

لم يكن لذلك الأخير وظائف محددة، فقد كان كاتباً، وكبير خدم، وأمين خزانة، وأمين سر، ومن واجبه أن يبقي سيده مطلعاً على أحوال المقاطعة، والمحاصيل، وتوزيع المياه، وجباية الضرائب، وتصليح الأعطال، بل كان يدوِّن بدقة في سجله كل الهدايا التي يحضرها الأهالي إلى القصر، فيكتب على سبيل المثال أن "طوبيا ابن واكيم جاء في العيد الكبير - أي الفصح - وجلب نصف أقة من الصابون، ورطلين من البن. . . . "، وكان زوج لميا كذلك يحرر صكوك المؤاكرة.

ولو كانت المقاطعة أغنى وأكبر مساحةً، لكان جريس من كبار الأعيان؛ وكان وضعه أصلاً من أفضل الأوضاع بنظر الجميع؛ فقد كان يعيش بمأمن من الفاقة، ويشغل جناحاً متواضعاً بالمقارنة مع أجنحة سيده، ولكنه أفضل تأثيثاً من أجمل بيوت الضيعة.

طلب جريس يد لميا بعد فوزه بتلك الوظيفة التي يطمع بها الكثيرون. ولم يقبل به حموه العتيد، وهو فلاح مزدهر الأحوال، ابنته البكر زوجة الخوري، إلا بعد تردد ومماطلة. كان العريس يبدو قادراً تماماً على تلبية حاجات أسرته، ولكنه لم يرق لوالد لميا. وكان الناس الذين يقدرونه قلائل، بالرغم من عدم تفوه أحدهم بعبارة لوم، خلا بعض الفتور. كان، كما يقال في الضيعة "من الذين لا يضحكون للرغيف الساخن". وكان الناس يعتبرونه خبيثاً ومتعالياً، بل كانوا يظهرون له العداء. ولئن أزعجه هذا الموقف، فقد أخفى حقيقة شعوره، ولم يتخذ موقفاً حاسماً على الإطلاق. كان بوسعه، في وضعه، أن يجعل الحياة عسيرة للذين لا يكنون له المودة. ولكنه كان يحجم عن القيام بذلك. غير أن

ما من أحد كان يشعر نحوه بالتقدير، ويكتفي الناس بالقول، عن سوء نية مطلق، أنه "لا يحسن الخير ولا الشر".

عندما صرف سلف جريس من الخدمة، كان الشيخ قد اتهمه باختلاس أموال طائلة. إلا أن زوج لميا لم يكن قادراً على ارتكاب مثل هذه الأفعال، ليس بداعي الاستقامة كما يزعم خصومه بل بداعي الجبن. ويصعب الحكم الآن وقد صمت كل الشهود. ومن المؤكد أن سيده كان يبعث في نفسه الهلع، وأنه كان يرتجف في حضرته أكثر من أحقر الفلاحين، ويلبي كل نزواته. وقد يحصل أن يملي عليه الشيخ كتاباً إلى الأمير، ثم يمد له قدمه، بعد حين، ليساعده على خلع حذائه. فلا يبدي جريس ممانعة على الإطلاق.

وعندما تتذكر عجائز الضيعة اليوم زوج لميا، يحلو لهن أن يسردوا حكاية تخصه، مع بعض الزيادة أو النقصان، بين رواية وأخرى، ولكن جوهر الحكاية لا يتغير. فقد كان للشيخ، كما سبق وقلت، شاربان كثان وذقن حليقة، وكان ذلك الموضوع يتكرر دائماً في حديثه. فالشاربان عنده كانا رمزاً للشرف، والسلطة، وحين يقطع وعداً جليلاً، ينتف شعرة من شاربيه ويودعها بكثير من الهيبة أمانة لدى الشخص المعني الذي يضعها في خرقة نظيفة، ثم يرجعها له يوم وفائه بالوعد. وعلى العكس، كان الشيخ يسخر من الذين يرسلون لحاهم، واسماً إياهم بالقذارة، زاعماً أنه قد لمحهم يمسحون أيديهم بها، بحيث أن لا رجل في الضيعة، باستثناء الخوري، كان يتجاسر على تزيين ذقنه بلحية خوفاً من التعرض للتهكم والسخرية. وبالطبع، كان للرجال جميعاً شاربان على نسق شاربي الشيخ، وجريس لا يشذ عن القاعدة، وكان شارباه نسخة طبق الأصل عن شاربي سيده، شاربين كثّين، ومدهونين أحياناً، ومفتولين إلى أعلى كستارة

مزدوجة. وحتى الحين، لم يكن في الأمر ما يخرج عن المألوف؛ فهذه المحاكاة كانت، منذ الأزل، علامة تقدير وإجلال.

غير أن الشيخ، في أحد الأيام، وفيما كان يتحدث مرة أخرى عن الشوارب أمام زواره، أشار ببعض الضيق إلى أن شاربي وكيله أكثر كثاثةً من شاربيه. وفي مساء ذلك اليوم، رأت لميا زوجها أمام المرآة، منهمكاً في تشذيب شاربيه للتخفيف من سماكتهما. وقد شهدت ذلك التشذيب الغريب بصمت، ولكنها كانت تشعر بالمهانة.

هكذا كان جريس، قليل الكلام، قليل الشهية، قلما يبتسم. كان قد حصَّل بعض التعليم، ولكن طموحه كان يقتصر على الاحتفاظ بوظيفته وبعطف سيده الذي كان يخدمه باستقامة ومثابرة.

لربما كانت لميا تستحق، بكل تأكيد، زوجاً أقل غثاثةً. فقد كانت مرحةً، مغناجاً، وعفويةً، وكلما لفتت الأنظار بملاحظة نبيهة، أو ضحكة مقتضبة، أو دندنت أغنية، رمقها جريس عابساً، متجهماً، وقد ارتسم القلق على وجهه، فتلزم الصمت. وحين تنضم إلى النساء اللواتي يقدمن للعمل في القصر، وتشاركهن الضحك والنميمة، كان زوجها يؤنبها، ولا يكف عن التكرار على مسامعها أن عليها المحافظة على مكانتها بدلاً من العمل كخادمة. وعندما تشاء أن ترضيه تذهب لتجاذب أطراف الحديث مع الشيخة، وإتخام نفسها برفقتها.

قد يكون جريس على صواب. فلو أنها امتثلت لنصائحه، لوفَّرت دون شك على نفسها وعلى أهلها الكثير من المآسي. ولما أثارت في حياتها كل هذه الأقاويل، ولعاشت كما يليق بمكانتها، وشاخت كما يليق بمكانتها، ودفنت اليوم كما يليق بمكانتها، ولما ظل قول شعبي يذكر بحسنها المتهور.

بين العروس والعريس، فرق سنين
هي بالخمستعش، وهو بالتلاتين

في أي عرس قروي نظم أحد الزجالين تلك الأبيات؟ لا يحدد كتاب أخبار الجبل، الذي يذكرها، المناسبة التي قيلت فيها؛ ولن أفاجأ يوماً إذا اكتشفت أن هذه الأبيات كانت تصف لميا وجريس.

في الواقع، كانت المرأة الشابة غالباً ما تستسلم لطباعها العفوية. فلا تفرح إلا للأفراح التي تحيط بها، ولتلك التي تولدها حولها. كان طبعها يقوم على إثارة الإعجاب، وكانت تعجب من حولها. ولربما توقع المرء أن تغار نساء الضيعة من جمالها أو من تلك " المكانة " المشهودة التي يفترض منها أن تحافظ عليها. ولكن على العكس تماماً. فقد كن جميعاً يلمسن لديها تلك الشفافية، وذلك الافتقار التام للتكلف، والإدعاء، أو الخبث، ويخاطبنها كالأخت. وكانت الشيخة نفسها تكن لها المودة، بالرغم من انجذاب زوجها الجموح لزوجة جريس، ولا ريب أنه كان يخاطب كل النساء قائلاً: "يا بنتي!"، ولكنه يتوجه إلى لميا بفرح، ورقة، تتحول فيها هذه العبارة إلى مداعبة. وفي المطابخ، كانت النساء يتندّرن، ويحاولن تقليد السيد وهو يتلفظ قائلاً: "يا بنتي!"، بنبرة تقطر شهداً وعذوبةً، وفي حضور لميا التي كانت تضحك بكل جوارحها. ولا شك أنها كانت تشعر بالإطراء، ولم يخطر ببالها ولو للحظة واحدة أن الأمر قد يتجاوز هذه الحدود.

وكان للشيخ على الأرجح نوايا مبيَّتة، إنما لا يعني ذلك أن كل ابتسامة، وكل كلمة ودودة يتفوه بها كانت محسوبة.

والحق يقال إن الحادث الذي ربط حياتهما، لو كان يستجيب لمشيئة ما، فلا يمكن أن تكون هذه سوى مشيئة القدر.

أصرَّ جبرايل: "كان حادثاً، مجرد حادث". ولكن عينيه كانتا تلمعان، ثم أضاف: "كان حادثاً تافهاً، كذرة الرمل، أو كالشرارة".

ومضى يسرد بإطناب وتنميق: "حدث ذلك في أحد أيام شهر تموز التي لا يحبها الأهالي في الضيعة. كان الجو جافاً وخانقاً. وعلى الدروب، في كل خطوة، غبار قطيع. عبثاً شرِّعت النوافذ والأبواب، فلا مصراع ينصفق، ولا مزلاج يصدر صريراً. كان ذلك الصيف المخنوق الذي تعرفه جيداً!".

والحق يقال إن أهالي كفريبدا لا يطيقون القيظ، ويقل كلامهم وطعامهم. وطوال النهار، يتناولون الإبريق لإرواء عطشهم، فيرفعونه عالياً فوق رؤوسهم، ثم يتركون الماء يغمر وجوههم، لشدة نزقهم، وشعرهم، وثيابهم. ولا يغادرون بيوتهم، أياً كانت الأسباب، قبل ساعة الطراوة.

"غير أن الشيخ كان يستقبل بعض الزوار الغرباء، وقد أعدت لهم لميا القهوة، في ذلك اليوم، وأحضرتها إلى صالة الأعمدة، فلا بد أن الخدم كانوا يغطون في النوم، وقد انتحى كل منهم زاوية. ثم عادت لميا لاستعادة الفناجين الفارغة، فلاحظت أن الشيخ قد بارح مكانه، والغريب في الأمر أن مبسم نارجيلته المذهَّب كان مرمياً على الأرض. كان يلف عادةً، حين ينهض، نبريش نارجيلته حولها، بحركة آلية، وينزع المبسم ليبقى نظيفاً.

سمعت لميا، لدى خروجها إلى الرواق، صوت تنفس ثقيل قادم من حجرة صغيرة تصلح عادة خلوة للمفاوضات. كان الشيخ موجوداً فيها، في العتمة، واقفاً إنما متهالكاً، وقد ضغط جبينه على الجدار.

- هل يشعر شيخنا بتوعك؟

- - لا شيء يدعو للقلق يا بنتي.

ولكن صوته كان لاهثاً.

قالت لميا، وهي تجذب ذراعه برقة: "الأفضل أن تجلس".

انتصب، وقد انتظم تنفسه، وعدَّل قيافته، ومرَّر إبهاميه على صدغيه.

- لا بأس. إنه الحر بالتأكيد. إياك أن تخبري أحداً بما حصل.

فأجابت: "أقسم لك بحياة المسيح!"

وتناولت الصليب الذي كان يطوق عنقها، فلثمته بشفتيها، ثم ضغطته على قلبها. فربت السيد على ذراعها بلطف، راضياً، قبل أن يخرج لموافاة زواره.

لم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم، لا شيء سوى ذلك التوعك الصيفي العابر. ولكن شيئاً ما قد تغير في نظرة لميا إلى ذلك الرجل. كانت تكنُّ له، حتى ذلك الحين، إجلالاً ممزوجاً بشيء من العناية، وتخشى، كسائر النساء، البقاء في حضرته بمفردها. أما وقد لمحت أن عروق صدغيه منتفخة، وأن جبهته متغضنة أحياناً، وكأن جحافل من الهموم قد اجتاحته، فقد باتت تترقب لحظة رؤيته مجدداً على انفراد، لمجرد الاطمئنان على عدم إصابته بتوعك.

ولكن مشاعر مختلفة كلياً، كانت حتى الحين قد بقيت نائية، راحت تتسلل إلى قرارة نفسها، تحت غطاء القلق المشروع. وبالنسبة إلى الشيخ، "المحاصر"، فقد تسلل حصان طروادة حقيقي إلى ساحة المعركة، بدون أن يكون قد سعى لإدخاله، فاستدرار الحنان المشوب بالشفقة يشكل أحد حوافز الغواية لبعضهم، ولكن ليس له، فلما كان يرغب قط بذلك السهم في جعبته!

انقضت بضعة أيام قبل أن تسنح للميا فرصة أخرى لمقابلة

الشيخ بدون شهود، وسؤاله عما إذا كان ذلك التوعك قد ألمَّ به مجدداً. فأصدر بلسانه صوتاً رطباً يعني، بلهجة الضيعة " كلا "، ولكنها كانت على يقين أنه يكذب.

وهل أخبر زوجته بما أصابه في المرة السابقة؟

- لم أخبر أحداً! لم يولد ذاك الذي سوف يسمعني أئن! ".

فجدَّدت لميا، لتهدئة روعه، وعدها بالتزام الصمت، واضعةً الصليب على شفتيها، ثم على قلبها. وفيما كانت تؤدي ذلك الطقس المقتضب، احتضن الشيخ يسراها في يده، وضغط عليها لبرهة، وكأنه يشاركها في قسمها. ثم ابتعد بدون أن ينظر إليها.

فوجئت بنفسها تبتسم ابتسامة حنون. لقد قال: "لم يولد ذاك الذي سوف يسمعني أئن! ". كان يظن أنه يتكلم كالرجال، ولكن هذه الملاحظة التي أبداها على مسمع امرأة كانت أشبه بتبجح طفل غرير. وتذكرت لميا أن أخاها الصغير قد تفوه بمثل هذا الكلام، حرفياً، يوم وضعوا على ظهره كاسات الهوا. لا، بالتأكيد، لم تعد تستطيع أن تنظر إلى سيد الضيعة كما كان يريد أن ينظر إليه الجميع، ولا كما كان ينظر إليه الآخرون. ولما صار الحديث يدور حوله أمامها، أي طوال النهار، أصبح للكلمات وقع مختلف في ذهنها، فبعضها كان يزعجها، وبعضها الآخر يفرحها أو يثير قلقها، ولم تعد غير آبهة بأية ملاحظة، فقد كفت عن اعتبار الأقاويل على ما هي عليه، أي وسيلة لتبديد الملل. وصارت تأبى أن تُدلي بدلوها!

وفي بعض الأحيان، حين تتمادى النساء في التلميحات الماجنة، كانت ترغب بإسكاتهن. ولكنها تحجم، بل ترغم نفسها على مشاركتهن الضحك. فلو أرغمتهن على التزام الصمت مرة واحدة، لتحوَّلت في نظرهن إلى غريبة، ولراحت ألسنتهن تلوكها على الفور، فمن الأفضل ألا تخسر مودتهن! ولئن تصرفت لميا

على هذا النحو، فليس بدافع النباهة، بل لأنها كانت مفطورة على هذا الطبع، ولا تشعر بالارتياح قط إلا إذا توارت بصمت في مجلس النساء المبلَّلات الأيدي، مستسلمةً لهدهدة أصواتهن المبحوحة ومناكفاتهن.

وفي أحد الأيام - وربما كان منتصف أيلول أو بعيد ذلك -، سمعت لميا، لدى وصولها إلى الفناء الصغير العابق بالدخان حيث يعدُّ الخبز، هديراً من القهقهات. فجلست على حجر قرب الصاج، وهو لوح دائري منفوخ من الحديد تصرُّ تحته نار من أغصان الوزال. فتبرعت إحدى قريباتها لإطلاعها على ما يجري:

- كنا نقول إنه قد ثاب إلى رشده على ما يبدو منذ بضعة أسابيع، فلم نعد نسمع عن مغامراته. . .

عندما كانت الأحاديث في الضيعة تدور "حوله"، دون أن يتكلف الراوي عناء الإفصاح، كان الجميع يعلم هوية الشخص المعني.

أكدت إحدى النسوة المسنات، وهي تضع العجينة على الحديد الحامي مستعينة بوسادة: "لقد شكمته الشيخة".

ردت امرأة أخرى: "الشيخة، بالتأكيد لا. فبالأمس كنت أجالسها، وقد أعلنت أنها تنوي الرحيل بعد أسبوع مع إبنها إلى الجرد العالي لقضاء فصل الشتاء عند والدتها. ولو أنها عرفت كيف تستعيد حظوتها عند زوجها، فلماذا ترحل؟"

اقترحت امرأة أخرى: "قد يكون مريضاً".

والتفتن صوب لميا التي اضطرت لاستجماع أنفاسها والتصريح بنبرة محايدة:

- لو كان مريضاً، لما خفي ذلك على أحد.

كانت امرأة طاعنة في السن وصامتة تجلس على حجر بالقرب منها، ولم يخل لإحدى النساء أنها تتابع الحديث. ومع ذلك، فقد أعلنت:

-. . .، أو لعله عاشق ولهان.

لم تسمع النسوة ملاحظتها.

- ماذا تقولين يا حاجة؟

كن يطلقن عليها هذا اللقب لأنها ذهبت في صباها للحج في بيت لحم، وزيارة مذود المسيح.

- لا بد أنه عاشق، وينتظر رحيل زوجته.

فاعترضت المرأة المسنة: "لم يسبق له قط أن تريث للقيام بما يحلو له".

- أنا أعرف شيخكم منذ أن كان لا يزال يجلس في حضن والدته. لو كان مفتوناً بامرأة، فلن يحرك ساكناً قبل أن تغادر الشيخة القصر. . .

وراحت النسوة يحاولن التكهن باسم معشوقته. فهمسن إسماً، واسماً ثانياً، وثالثاً. . . ثم مرَّ رجل بقربهن، فغيرن الحديث.

غير أن هذه الثرثرة ظلت تدوي في رأس لميا طيلة النهار. وأقبل الليل، ولم تفارق أفكارها.

هل يكون الشيخ ما زال مصاباً بتوعك شديد؟ ألا يجدر بها أن تفاتح أحدهم، وتستدعي الطبيب من ديرون؟ لا، فسوف يستاء منها. ومن الأفضل التريث، ومراقبة الوضع. وفي غضون أسبوع، لو لمحت امرأة تحوم في الأروقة التي تفضي إلى مخدعه، فسوف يهدأ بالها!

ولكن، أهذا ما تتمناه حقاً، أي أن ترى ذلك الرجل يستعيد غرامياته؟

دخل الليل في هزيعه الأخير، وهي تتقلب في فراشها. دون أن تجد الوضع المريح. وما عادت تعرف ما يجب أن تتمناه. وتقلبت مرة أخرى. فلماذا تتمنى أي شيء بخصوص ذلك الرجل؟

كان زوجها غافياً قربها، على ظهره، بفمه الفاغر كالسمكة.

III

عشية سفر الشيخة المزمع، وفيما كان الجميع في القصر منهمكين في الاستعدادات الأخيرة، فوجىء جريس بزوجته تسأله، بإلحاح طفولي، إن كان يسمح لها بمرافقة الشيخة.

- أتريدين قضاء الشتاء في الجرد؟

- ليس الشتاء بأكمله، بل بضعة أسابيع. لقد سبق للشيخة أن دعتني لمرافقتها مراراً....

- ليس لديك ما تفعلين هناك...

- قد أكون مرافقة لها...

- لست خادمة، ولا مرافقة، كم مرة يجب أن أكرر ذلك؟ أنت زوجتي، وسوف تبقين بقربي. لا تفارق المرأة زوجها لأسابيع وأشهر، ولا أفهم كيف تجرؤين على مجرد التفكير بالأمر.

اضطرت للإذعان. لم يخطر ببالها قط من ذي قبل مرافقة الشيخة، ولكنها استيقظت في ذلك الصباح، وقد راودتها هذه الفكرة بعد ليلة جديدة من السهاد. خطر لها الرحيل، والابتعاد قليلاً عن القصر، وعن نميمة النساء، ونظرات الرجال، وهواجسها. كانت تتوقع تماماً موقف جريس، ولكنها ترجو أن

تحصل معجزة. ولما أكرهت على العدول عن فكرتها، بدت فجأة متهالكة، وانزوت في جناحها تبكي بقية النهار...

كانت لميا في ربيعها السادس عشر. وحين تبكي، تنحفر غمازتان وسط وجنتيها وكأنهما تلتقطان دموعها.

كان جبرايل لا يغفل أي تفصيل متى تعلق الأمر بها.

- أو تعتقد أنها كانت جميلة كما يقال عنها؟

بدا سؤالي له وكأنه الكفر بعينه.

- بل وأجمل من ذلك! كانت أجمل امرأة! فاتنة من رأسها إلى أخمص قدميها. يداها طويلتان ورقيقتان، وشعرها فاحم يتهدل ناعماً إلى نصف ظهرها، وعيناها واسعتان وحنونتان، وصوتها شجي. كانت تتعطر بالياسمين، كمعظم صبايا الضيعة. ولكن الياسمين الذي تتعطر به لا يشبه أي ياسمين آخر...

فسألت بسذاجة: "ولماذا؟"

- لأن ذلك الياسمين كان يعبق بعطر بشرة لميا.

كان جبرايل لا يبتسم، وقد هام نظره بعيداً.

- كانت بشرتها وردية وناعمة يتمنى كل الرجال ملامستها، ولو بظهر أصابعهم. وكان ثوبها مشقوقاً حتى درجات الصليب، بل وإلى أسفل كذلك... في ذلك الوقت، كانت النساء يكشفن عن صدورهن بدون أن يتنافى ذلك مع الحشمة، وكانت لميا تكشف وجهاً كاملاً من كل نهد. لوددت أن أضع رأسي على هاتين الهضبتين كل ليلة...

تنحنحت:

- وكيف تعلم كل هذه التفاصيل، ولم ترها قط في حياتك؟

- إذا كنت لا تريد أن تصدقني، فلماذا تسألني؟

أزعجه اقتحامي لرؤياه. ولكنه لم يستأ مني. فنهض، وأعدَّ لنا كأسين من شراب التوت.

وقال لي: إشرب على مهل، فالقصة ما زالت في بدايتها.

حين انطلقت قافلة الشيخة، قبيل الفجر، لاح القصر، وكأنه على وشك الإقفار لأن عدداً كبيراً من الحراس والخادمات رافقوا سيدته، وكذلك لأن موسم الحصاد كان في ذروته، ومعظم الرجال والنساء في كفريبدا يعملون في الحقول. استقبل الشيخ في ذلك الصباح ثلاثة زوار فحسب، ولم يستبق أياً منهم إلى مائدته. وطلب إحضار صينية عليها وجبة خفيفة مؤلفة من الخبز، والحبق بزيت الزيتون، واللبنة. ولما كان جريس منهمكاً في الأروقة، فقد دعاه لتناول الغداء معه، ثم سأله عن لميا.

كانت قد خرجت من مخدعها لوداع الشيخة فحسب، ثم عادت لتحبس نفسها كالبارحة. وحين دخل جريس وأبلغها أن السيد يدعوها إلى الغداء، أجابت أنها ليست جائعة. فرفع زوجها يداً متوعدة:

- ضعي منديلاً واتبعيني!

أعرب الشيخ، كالعادة، عن سروره لرؤيتها، وحاولت بدورها ألا تظهر متجهمة. وسرعان ما تحول الحديث إلى حوار بينهما، واكتفى جريس بالنظر إلى الواحد والآخر، بوجه سموح وإيماءة متواصلة من رأسه تعبيراً عن موافقته على كلام الشيخ، ولكن ما أن تفتح لميا فمها حتى يروح يعض شفته السفلى كأنه يشير عليها بالاختصار. لم يكن يضحك عفوياً قط لدعاباتها، وينتظر ريثما يبدأ الشيخ بالضحك، ولا يرمق غيره طالما يضحك.

وكانت لميا تناكده، فتنظر إلى الشيخ، أو إلى الطبق الذي تغمس فيه الخبز. ومع الاسترسال في الحديث، لم يعد الشيخ يرمق جريس بنظرة واحدة، ولم يلتفت نحوه على حين غرة، إلا عند انتهاء الغداء، وكأنه لاحظ وجوده للتو.

- كدت أنسى أمراً بالغ الأهمية. يجب أن تذهب قطعاً عند يعقوب الخياط. فقد وعدت أن أدفع له ألف غرش قبل حلول

المساء، وسوف أفي بوعدي. كما أريد أن تطلب منه الحضور غداً في الصباح الباكر، لأنني بحاجة إلى ثياب شتوية.

كان يعقوب يقطن في ديرون، القرية المجاورة، على بعد ساعتين كاملتين.

فتناولت لميا على الفور الصينية وحملتها إلى المطبخ:

- سوف أعد القهوة.

- لن يسنح للـ "خواجا" جريس تناولها، فيجب أن يرحل في الحال للعودة قبل هبوط المساء.

هكذا كان يدعوه حين يرغب بالتودد إليه، "خواجا"، وهي كلمة تركية فارسية قديمة تشير في الجبل إلى الذين لا يزرعون الأرض لأنهم حصلوا على نصيب من العلم والجاه. فنهض الوكيل على الفور.

وتابع الشيخ، بعد لحظة تردد: وأنا بدوري لن أشرب القهوة على الفور بل بعد القيلولة، ولو أمكن أن تحضر لي لميا الجميلة سلة من الفاكهة كما تجيد وحدها إعدادها، فسوف أكون شاكراً لها جميلها إلى آخر يوم من حياتي.

لم تتوقع المرأة الشابة ذلك الطلب. وارتسم على وجهها الإحراج والاضطراب، وعقد لسانها. لم يطل صمتها أكثر من عشر ثانية، ولكنها كانت مدة لا تطاق بالنسبة إلى جريس الذي سارع للإجابة عنها، وهو يحدجها بنظرة عتاب:

- بالتأكيد يا شيخنا! حالاً! لميا، هيا، أسرعي!

وفيما كان السيد يتجه بهدوء إلى غرفته، هرول جريس نحو الغرفة الصغيرة التي كان يخصصها مكتباً له. وكان يحتفظ فيها بسجله، وأقلامه، ودواته، وكان يوجد فيها كذلك الصندوق الذي يجب أن يتناول منه المبلغ للخياط. فتبعته لميا:

- إنتظر، يجب أن أحدثك!

- فيما بعد، تعرفين لأنني يجب أن أنطلق على الفور!

- سوف أعد سلة الفاكهة للشيخ، ولكنني أريدك أن تحملها أنت إليه. لا أرغب أن أدخل غرفته، لا أريد أن يطلب مني شيئاً آخر.

- وماذا عساه يطلب منك؟

- لست أدري، فهذا الرجل متطلب للغاية، وقد يريد أن أقشر له الفاكهة، وأقطّعها....

كانت تتلعثم. فأفلت جريس باب الخزنة التي فتحها، والتفت نحوها.

- لو حافظت على مقامك، كما توسلت إليك مراراً، لما طلب منك الشيخ شيئاً.

كان بوسعها أن ترد عليه: "وأنت، هل تحافظ على مقامك؟ ألم يكن بوسعه أن يرسل أي خادم لإبلاغ يعقوب بضرورة الحضور غداً؟". ولكنها لم ترغب قط بالشروع في شجار. فأضافت بنبرة متوسلة ونادمة:

- لقد أخطأت، أعترف بذلك، وأنت على حق. ولكن عفا الله عما مضى...

- أجل، عفا الله عما مضى، ومن الآن فصاعداً، إحفظي مقامك، ولكن سيدنا طلب منك شيئاً اليوم، وسوف تلبين طلبه.

فجذبت لميا زوجها من كمي قميصه، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

- إفهمني، أخشى الدخول إلى هذه الغرفة!

تلاقت نظراتهما لبرهة طويلة للغاية. وشعرت لميا أن زوجها يتردد، وفطنت إلى تمزقه، وللحظة، خالت أنه سيقول لها: "لقد أدركت مخاوفك، وأعلم ما يجب أن أفعل!" لكم كانت تريد أن تفوض أمرها إليه، في تلك اللحظة. كانت ترغب أن تنسى كل التصرفات اللئيمة التي تلومه عليها، وتتذكر فقط أنه زوجها، وأنها

قد وهبت له كلّ حياتها، وأقسمت على طاعته في السراء والضراء.

لم ينبس جريس ببنت شفة، وصمتت لميا بدورها خشية إغضابه. كان يبدو متردداً ومحتاراً. بضع ثوان، ولكنها ثوان مديدة. ثم دفعها وابتعد.

- لقد تأخرت بسببك بما فيه الكفاية، ولن أتمكن قط من العودة قبل حلول المساء.

لم يعد يرمقها بنظرة، ولكن عينيها كانتا ترمقانه يرحل. كان مقوس الظهر، وظهره مجرد حدبة سوداء هائلة. لم يسبق للميا أن رأته منكمشاً على هذه الشاكلة.

كانت تشعر بأنها تعرضت للخيانة، والإهمال، والخداع.

استغرقت وقتاً طويلاً لإعداد صينية الفاكهة، ولو حالفها الحظ، فقد تجد الشيخ قد خلد للنوم لدى وصولها إلى مخدعه.

شعرت، لدى اجتياز الرواق الأخير، بتنميل في جسدها، كأنه خدر ينتشر في ردفيها. هل كان الخوف؟ أم الشهوة؟ أم أن الخوف قد أيقظ الشهوة؟

ارتعشت يداها. وتباطأت خطاها. لو كانت هناك سماء تسهر على مخلوقاتها، لعملت بحيث لن تتمكن قط من بلوغ تلك الغرفة.

كان الباب موارباً، فدفعته بهدوء بطرف سلتها، ونظرت إلى الداخل. كان الرجل مستلقياً على الحصيرة، مولياً لها ظهره. وفي يده اليمنى مسبحته المؤلفة من حبات العنبر. كان يتسلى بتلك المسبحة، حين لا يدخن نارجيلته، ويحلو له القول إن ترقرق حباتها التي تتصادم تمنحه السكينة، كجريان الماء بين الصخور، وصرير الحطب المشتعل.

لم تنظر لميا إلى العنبر، ولا إلى الختم الذي كان السيد يحمله في بنصره. وتحققت فقط بنظرة سريعة أن أصابعه الرجولية

الضخمة لا تتحرك. فتجاسرت، وخطت خطوتين، وركعت لتضع السلة أرضاً. ولما همت بالنهوض، انتفضت. فقد انزلقت رمانة، وتدحرجت، بصوت مخنوق، ولكنه دوى، في أذني لميا، كهدير طبل. تركت الرمانة، وقد حبست أنفاسها، تستقر على قيد أنملة من يد الرجل الراقد. وتريثت قليلاً قبل أن تنحني فوق السلة لاستعادة الرمانة المتمردة.

تململ الشيخ، والتفت ببطء، كشخص يغالبه النعاس. ولكنه قبض على الرمانة، وهو يلتفت، بدون النظر إليها، كأنه شعر بوجودها.

- تأخرت، كنت قد غفوت تقريباً.

وشخص إلى النافذة كأنه يخمن الوقت. غير أن الستائر كانت مسدلة، والطقس ينذر بالعاصفة. كانت الساعة الظليلة في عصر خريفي.

- ماذا أحضرت لي من الأطايب؟

نهضت لميا بصعوبة جمة. وتخللت صوتها رعشة خوف.

- عنباً، وتيناً شامياً، وزعروراً، وهذه التفاحات، وتلك الرمانة.

- ومن بين كل هذه الفاكهة التي أحضرتها لي، ما هي ألذها برأيك؟ تلك التي يتسنى لي أن أقضمها، مغمض العينين، فأحس في فمي بمذاق العسل؟

في الخارج، لا بد أن سحابة كثيفة قد حجبت الشمس لأن الغرفة أظلمت. كان الوقت عصراً، والليل ما زال في هزيعه الأول.

نهض الشيخ، وانتقى في أجمل عنقود أكبر حبة، ودنا بها من وجه لميا، فشقَّت شفتيها.

وفي اللحظة التي انزلقت حبة العنب في فمها، تمتم الرجل:

- أريد أن أراك تبتسمين!

فابتسمت، وتقاسم معها كل فاكهة أيلول.

العبور الثاني

صيف الجراد

في عام 1821، أواخر شهر حزيران، وضعت لميا، زوجة جريس، وكيل القصر، مولوداً ذكراً أطلق عليه أولاً إسم عباس، ثم طانيوس. وقد جرَّ على الضيعة، قبل أن يفتح عينيه البريئتين، وابلاً من الشر لا تستحقه. وكان هو الذي لقِّب فيما بعد بالكشك. وشهد المصير الذي نعرف. وكانت حياته سلسلة من المعابر.

أخبار الجبل
للراهب إلياس من كفريبدا

(قبل استئناف حبل السرد، أود التوقف قليلاً عند هذه السطور التي كتبت على الهامش، ولا سيما تلك العبارة الغامضة، عبور، التي ترجمتها "معبر". فالراهب إلياس لم ير ضرورةً لتوضيحها في كتابه؛ ولكنها تتكرر على لسانه، وقد استطعت الإحاطة بدلالتها بواسطة المقارنة.

يقول صاحب أخبار الجبل على سبيل المثال: "إن القدر يمرّ، عبر حياتنا، ويعاود المرور مثل مسلة الإسكافي في الجلد

الذي يصنِّعه. . . ". وفي موضع آخر: "القدر الذي تحدد معابره المخيفة حياتنا وترسم معالمها. . . ".

و" العبور "في هذه الحالة إشارة جلية من القدر - أو تسلُّل قد يكون قاسياً، أو ساخراً، أو من صنع العناية الإلهية - ومعلمٌ في آنٍ، أي مرحلة من حياة فريدة. وبهذا المعنى، كان إغواء لميا، في مصير طانيوس، "العبور" الأول؛ ذلك الذي تنبثق منه كل المعابر الأخرى).

I

عندما عاد جريس من مهمته، كان الليل قد أقبل، الليل الحقيقي. وكانت زوجته في مخدعهما، مستلقية على الفراش، ولم يتبادل الزوجان الكلام.

في الأسابيع التالية، شعرت لميا بأولى نوبات الغثيان. كانت قد تزوجت منذ قرابة السنتين، وأهلها قلقون لأن بطنها لم يتكوَّر بعد، ويعتزمون اللجوء إلى القديسين والأعشاب لفك النحس. ولقد سُرَّ الجميع بنبأ حملها، وأحاطت النساء الأم العتيدة بالعناية على قدر محبتهن لها. ولم تلمح أية نظرة مرتابة، أو تسمع أي تلميح جارح، إنما تراءى لها، ولدى عودة الشيخة إلى القصر، في شهر آذار، بعد إقامة طويلة عند ذويها، أن علاقتهما قد شابها الفتور فجأة. والحق يقال إن زوجة السيد قد تغيرت في معاملتها للجميع، فقد أضحت عصبية ومتعالية مع نساء الضيعة اللواتي صرن يتحاشينها، كما كان وجهها يلوح شاحباً، وناحلاً بعض الشيء، ولكنها لم تفقد شيئاً من بدانتها.

لم يجد الأهالي حرجاً في التعليق بجرأة على هذا السلوك. كانوا مستعدين لتقبل الكثير من نزوات "شيخهم"، إنما تلك الغريبة، " جرة الحليب الفاسد"، "تلك العوسجة التي ولدت

تحت أقمار الجرد"، إذا كانت كفريبدا لا تلائمها، فلترجع إلى أهلها!

غير أن لميا لم تقتنع أن سيدة القصر كانت ناقمة على الضيعة بأكملها، بل لا بد أنهم حذروها منها هي، وكانت تتساءل عما قيل لها.

ولد الطفل في أحد أيام الصيف الصافية والرحيمة. كانت سحابة رقيقة تلطِّف الشمس، وقد أمر الشيخ بمدِّ البسط على شرفة تطل على الوادي، لتناول الغداء في الهواء الطلق. وقد انضم إلى مائدته الخوري، "بونا بطرس"، واثنان من وجهاء الضيعة، بالإضافة إلى جريس؛ وجلست الشيخة بعيداً، على منضدة، بالطنطور الذي تعتمره على رأسها، وابنها في حجرها. كان الجميع رائقي المزاج بفضل كؤوس العرق. لم يشمل أحد من الحضور، ولكن الحبور لطَّف الحركات والكلام. وكانت لميا في غرفتها غير البعيدة تئن، وهي تدفع بالطفل خارج جسدها بتشجيع من الداية، وشقيقتها تمسك بيدها، شقيقتها الكبرى، "الخورية"، زوجة الخوري.

هرعت فتاة صغيرة صوب المدعوين، وهي تهم بزف البشرى التي كانوا يترقبونها؛ ولا بد أن نظراتهم أخجلتها، لأنها احمرت حياءً، وأخفت وجهها، واكتفت بالهمس في أذن جريس، قبل أن تلوذ بالفرار. ولكن استعجال الرسولة فضح أمرها، فأدرك الجميع ما جرى، وأعلن زوج لميا، خارجاً للمرة الأولى عن تحفظه، بصوت مسموع: "صبي!".

كان المولود ذكراً!

ملئت الكؤوس لشرب نخب الحدث السعيد، ثم سأل الشيخ وكيله:

- ماذا تنوي أن تسميه؟

كان جريس على وشك أن يلفظ الإسم الذي يجول في خاطره، ولكنه شعر، في نبرة السيد، بأنه قد خطرت لهذا الأخير فكرة أيضاً، ففضل أن يقول:

- لم أفكر بالأمر بعد. فطالما لم يولد...

وأرفق هذه الكذبة الورعة بتعبير معروف يعني أنه لم يجرؤ، بدافع التطير، اختيار الإسم سلفاً، لأن ذلك يفترض أن المولود سيكون ذكراً، وأنه سيولد حياً، كما لو أن ما لم يهبه الله بعد يعتبر مكتسباً، وهذا تبجح لا ترتضيه السماء.

أعلن الشيخ: "أما أنا، فلطالما راق لي إسم عباس".

بحكم العادة، كلما بادر الشيخ بالكلام، كان جريس يومىء برأسه موافقاً، ولما لفظ الإسم، حسم أمره:

- وهو كذلك! سوف يكون اسمه عباس! وسوف نقول للصبي لاحقاً إن شيخنا قد اختار له إسمه!

لاحظ جريس، إذ جال بنظره المبتهج على الحاضرين لاستدرار عبارات الاستحسان المعهودة، أن الخوري كان عابساً، وأن الشيخة راحت فجأة تضم ابنها إلى صدرها بغضب غير مفهوم. كانت ممتقعة كغصن الكركم، ولو طعن أحدهم وجهها ويديها بسكين، لما سالت منها قطرة دم واحدة.

تلكأت نظرة جريس برهةً عليها. وفجأة، أدرك ما يجري. كيف قبل بهذا الإسم؟ وما الذي يدفع بالشيخ لاقتراحه على وجه الخصوص؟ لقد شوَّشت الفرحة ذهن الرجلين.

لم يدم المشهد أكثر من ثوان معدودة، ولكن كل شيء انقلب رأساً على عقب بالنسبة إلى الطفل، وأهله، والضيعة بأسرها. وكتب صاحب "أخبار الجبل": "في ذلك اليوم، تحدد مصيرهم جميعاً وختم كالرق الذي ينتظر أن يفتح فحسب".

كل هذا النحيب بسبب هفوة ارتكبها الشيخ وسرعان ما تصححت أصلاً؟

يجب القول إن كفريبدا، ومنذ أجيال عديدة، تتمسَّك بعاداتها في ما يتعلق بالأسماء. فأهاليها، في "الحارة التحتا"، كما يعرفون، كانوا يطلقون على أبنائهم أسماء القديسين، أمثال بطرس، وبولس، وجريوس، وروكز، وحنا، وافرام، أو واكيم، وكذلك في بعض الأحيان، يختارون لهم أسماء توراتية كأيوب، وموسى، وطوبيا.

وفي أسرة الشيخ - "حارة الفوقا" -، كانت العادات تختلف. فالذكور يجب أن يحملوا أسماء توحي بالقوة، أو تذكر بأمجاد الماضي، على غرار صخر، ورعد، وحصن. وكذلك بعض الأسماء المتحدرة من التاريخ الإسلامي؛ فقد كانت أسرة الشيخ مسيحية منذ قرون، ولكن ذلك لم يحل دون إجلاله لعباس، عم الرسول، بالإضافة إلى زهاء اثني عشر خليفة، من أسلافه، وكان الجدار في قاعة الأعمدة، خلف المكان الذي اعتاد الشيخ الجلوس فيه، مزداناً بلوحة عريضة وعالية كتبت عليها شجرة العائلة التي كان لتثير حسد الكثير من الملوك، بمن فيهم السلطان العثماني الذي لا يرجع نسبه قط إلى السلالة النبوية الشريفة بل يضيع، بالرغم من كونه خليفة، في سهوب شرق آسيا.

أطلق الشيخ على ابنه إسم رعد، تيمناً باسم أبيه. أما هو - وليس من السهل تبرير الأمر، ولكنه كان على هذا النحو -، فقد كان يدعى فرنسيس. نعم، الشيخ فرنسيس. وهذا الإسم لا ينتمي، بالطبع، لا إلى سلالة المحاربين، ولا إلى السلالة النبوية الشريفة، بل ويلوح كثيراً كأسماء القديسين المنتشرة بين أهالي الضيعة. ولكن كل ذلك كان ظاهر الأمور. فلا إشارة خاصة إلى قديسي التقويم، لا إلى القديس فرانسوا دولاسال، ولا إلى

القديس فرانسوا الأسيزي، باستثناء أن الملك فرانسوا الأول يدين باسمه تيمناً بهذا الأخير. كان كل جيل من الأجيال التي تعاقبت منذ القرن السادس عشر يتضمن " مشايخ مدعوين فرنسيس"، منذ ذلك اليوم الذي قام فيه ملك فرنسا، بعد أن منحه السلطان سليمان القانوني حق النظر في مصير الأقليات المسيحية في المشرق، إلى جانب الأماكن المقدسة، بإرسال كتاب إلى زعماء الأسر العريقة في الجبل للتأكيد على حمايته لها. وكان أحد أجداد الشيخ من بين الذين وصلهم هذا الكتاب، وقيل إنه تبلغه يوم ولادة إبنه البكر الذي أطلق عليه في الحال إسم فرنسيس.

لئن لاحت التفسيرات التي قدمتها للتو ضرورية اليوم، فالفلاحون في ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة لها. فلا أحد منهم كان سيعتبر إطلاق الشيخ على طفل لميا أعرق أسماء سلالته أمراً عادياً. وراح جريس يتخيل القهقهات الهازئة التي سوف تضج بها كفريبدا! فأين سيخفي عاره؟ ولما غادر المائدة لرؤية الطفل، لم تكن هيئته هيئة أب سعيد وفخور، فقد تهدل شارباه، وبالكاد استطاع تلمس طريقه إلى الغرفة التي كانت لميا تغالب فيها النعاس.

كانت الغرفة تعج بقرابة اثنتي عشرة امرأة منهمكات من كل الأعمار. لم يلمحن في ذهوله سوى الفرحة العارمة، فدفعنه نحو المهد الذي كان الطفل يرقد فيه، وقد غطي رأسه بقبعة قطنية.

كن يتمتمن: "يبدو صحيحاً معافى، الله يعيشو!"

كانت الخورية وحدها التي استشفت سحنة الزوج.

- تبدو لي مهموماً، هل لأن أسرتك زادت عدداً؟

ظل جامداً لا ينبس ببنت شفة.

- ماذا قررت أن تسميه؟

كان جريس يود إخفاء حيرته، ولكنه كان ملزماً بالتحدث

إليها، إلى "الخورية". وهذا سبب الدالة التي كانت تتفرد بها دون سواها على كل أهالي الضيعة، بمن فيهم الشيخ. كان اسمها سعدى - ولكن ما من أحد يدعوها بهذا الإسم حتى زوجها -، وكانت في صباها أجمل فتيات كفريبدا، على غرار شقيقتها لميا التي أبصرت النور بعدها بعشر سنوات. ولئن جعلتها أحمالها الثمانية أو التسعة، منذ ذلك الحين، تكتنز وتذبل، فسحرها لم يبارحها ولكنه تجمع في صفحة عينيها الثاقبتين والمتسلطتين.

-كنا نتناول الغداء، فاقترح الشيخ أن نسميه عباس.

حاول جريس جاهداً السيطرة على تأثره، ولكن الجزء الأخير من الجملة أفلت منه كالأنين. فتمالكت "الخورية" نفسها لئلا تنتفض، بل نجحت في الإعراب عن بهجتها.

- أعرف حق المعرفة شيخك هذا، إنه رجل ينساق وراء أهواء قلبه الكبير. وهو يقدِّر تعاونك، وإخلاصك، ونزاهتك، ويعتبرك بمثابة الأخ، ويظن أنه يكرمك بإطلاق أحد أسماء أسرته على ابنك. ولكن الناس في الضيعة لن ينظروا إلى الأمر من هذا المنظار.

خرج جريس عن صمته ليسأل عن موقف الناس، ولكن أبى أي صوت أن يخرج من حلقه، فتابعت زوجة الخوري:

- سوف يتهامس الناس: جريس هذا يتنكر لنا لأنه يعيش في العلالي، ويأبى أن يمنح ابنه إسماً كأسمائنا. سوف يحقدون عليك وعلى زوجتك. وسوف تصبحون في فمهم لقمة سائغة لأنهم يحسدونك أصلاً على وظيفتك...

- لعلك على صواب يا خورية، ولكنني أعلنت للشيخ أنني أتشرف بهذه البادرة...

- سوف تذهب إليه، وتبلغه أن لميا أقسمت سراً. ماذا تودين أن تسمي هذا الطفل يا لميا؟

- طانيوس.

- على بركة الله، سوف تقول إن أمه أقسمت أن تسميه تيمناً بمار طانيوس لو شاء القديس ومنحه الصحة عند الولادة.

- لقد أصبت، وهذا ما يجب أن أقوله للشيخ. سوف أفاتحه بالأمر غداً، على انفراد.

- غداً، يكون قد فات الأوان. إذهب إليه في الحال، وإلا راح الشيخ يذيع حوله عباس من هنا، وعباس من هناك، ولن يرضى العودة عن كلامه.

مضى جريس، وقد اغتم لاضطراره، وللمرة الأولى في حياته، أن يضايق سيده. وجهد ليحضر في ذهنه تبريراً مطولاً لما جرى، مثقلاً بالامتنان الأبدي، والندم، والخنوع... ولكنه لم يضطر للجوء إليه، فقد كانت الأمور أبسط مما توقع.

أعلن الشيخ، قبل أن يكمل وكيله الكلام: "القسم أمر مقدس. لقد حسم الأمر، وسيكون إسمه طانيوس!".

كان قد تسنى لسيد القصر بدوره مراجعة فكره، لا سيما حين نهضت الشيخة، وانتزعت ابنها بحركة عنيفة، فراح الطفل يزعق، ثم انسحبت بدون توجيه كلمة واحدة إلى الضيوف.

انزوت في غرفتها، أو تحديداً، في شرفة غرفتها التي أمضت بقية النهار تذرعها ذهاباً وإياباً، وهي تغمغم لعنات حانقة. لم يسبق أن أهينت على هذا الشكل، هي التي عاشت مدللة في أعرق بيوت الجبل، ماذا جاءت تفعل لدى ديك الضيعة هذا؟ كانت تحقد على العالم بأسره، وعلى البطريرك، معرِّفها. أفليس هو الذي خطط لهذا الزواج؟

وأقسمت أنها ستكون قد رحلت عن هذا القصر المشؤوم، في فجر اليوم التالي، مع ابنها، ولو سعى أحدهم لثنيها عن عزمها، فسوف ترسل إلى والدها وأشقائها الذي سيهبون لنجدتها بقوة

السلاح، مع كل أنصارهم، ويجتاحون مقاطعة الشيخ! كانت راضخة تماماً حتى ذلك الحين، وتقبلت كل شيء بصمت. ولكن الأمر هذه المرة ليس على الإطلاق مجرد نزوة مع إحدى نساء الضيعة، بل كان مختلفاً كلياً: فقد أنجب هذا الرجل طفلاً من امرأة تعيش تحت سقفهما، ولم يكتف بفعلته بل كان يريد كذلك أن يعلن الأمر جهاراً، وأن يمنح ذلك الطفل إسم سلفه الجليل، لتبديد شكوك الجميع حول أبوته!

عبثاً حاولت أن تبرِّر لنفسها الأمر بشتى الأساليب، وعبثاً بحثت عن الذرائع لتظهر مرة أخرى بمظهر المتسامحة والمطيعة، ولكن لا، فقد طفح الكيل. ولكانت أحقر الفلاحات سعت للانتقام لو تعرضت لمثل هذه الإهانة، فكيف ترضى إبنة الإقطاعي، صاحب النفوذ والسلطان، أن تداس كرامتها؟

قبضت بيديها على "طنطورها" العالي، واقتلعته ورمته أرضاً. فانسدل شعرها في خصلات داكنة، وعلت وجهها الطفولي المكتنز ابتسامة ظافرة وسط الدموع...

في مطابخ القصر، وعلى شرف المولود الذكر الذي أبصر النور، كانت نساء الضيعة، وقد انهمكن في إعداد القرفة والكراوية، يحضرن ببهجة "مغلي" الأفراح.

II

غداة ولادة طانيوس، ذهب الشيخ باكراً لصيد الحجل، مصطحباً جريس وبعض أعيان كفريبدا. ولدى عودته من الصيد، جاءت إحدى الخادمات تبلغه على الملأ، أمام كل سكان القصر المجتمعين لاستقباله، أن الشيخة قد رحلت بسرعة إلى الجرد العالي، مع إبنها، وقد سمعها بعضهم تتمتم أنها لن ترجع في القريب العاجل.

كان لا يخفى على أحد أن السيد لا يمتعض إطلاقاً لغيابات زوجته الطويلة؛ ولو أعربت له عن رغبتها بالرحيل، لما حاول استبقاءها. أما أن يصار إلى إعلامه علناً، وأن يعتبر زوجاً مهجوراً، فذاك يفوق قدرته على التحمل، ولسوف يرجعها إلى القصر، وإن اضطر لجرِّها من شعرها!

وهكذا أمر بتسريج أفضل مطاياه، وكانت فرساً عربية يدعوها "بساط الريح"، اصطحب اثنين من حرسه، وكانا من أمهر الخيالة، ورحل بدون أن يغسل وجهه، ورقد في العراء لإراحة المطايا أكثر من إراحة نفسه لشدة ما كان غضبه يبقيه متيقظاً، ووصل إلى دار حميه، ولم يكن موكب زوجته قد حط الرحال بعد.

راحت الشيخة تنتحب في غرفتها التي تبعها إليها أبوها وأمها. فانضم إليهم الشيخ على الفور، وأعلن:

- لقد جئت لأقول كلمة واحدة. زوجتي إبنة رجل نافذ، أجلُّ قدره مثل أبي. ولكنها أصبحت زوجتي، ولا أقبل أن تغادر داري بدون إذني، ولوكانت إبنة السلطان!

أجاب حموه: "وأنا بدوري لدي كلمة واحدة أقولها. لقد زوجت ابنتي بسليل أسرة عريقة، ليعاملها باحترام، لا لأراها تعود إلى بيتي منهارة!".

- هل طلبت شيئاً واحداً ولم تحصل عليه؟ ألا تملك خادمات بقدر ما تشاء، وعشرات القرويات رهن إشارتها؟ فلتتكلم بصراحة بما أنها في بيت والدها!

- ربما لم تحرمها من شيء، ولكنك جرحت كرامتها. لم أزوج ابنتي لأحميها من العوز، بل زوجتها بابن أسرة جليلة المقام لكي تحترم في بيت زوجها كما كانت محترمة في هذا البيت.

- هل يمكن أن نتحدث حديث رجال؟

أشار والد الشيخة إلى زوجته باصطحاب ابنتهما إلى الغرفة المجاورة. وانتظر ريثما أغلقتا الباب ليضيف قائلاً:

- لقد قيل لنا إنك لا تترك امرأة من شرك في ضيعتك، ولكننا رجونا أن يجعلك الزواج أكثر تعقلاً. وللأسف، فثمة رجال وحده الموت يعيد إليهم صوابهم. ولو كان هذا هو الدواء، فلدينا في هذه البلاد آلاف الأطباء الذين يعرفون وصفه.

- أتهددني وأنا في عقر دارك؟ هيا، أقتلني! لقد جئت وحيداً، أعزلَ، وأنصارك ينتشرون في كل مكان، وما عليك سوى أن توعز إليهم.

- لا أهددك، بل أحاول فقط أن أعرف اللغة التي يمكن أن نخاطبك بها.

- أتكلم لغتك، ولم أفعل شيئاً لم تفعله بدورك. لقد جلت في ضيعتك، وفي كل نواحي هذه المقاطعة الرحبة التي تملكها، ووجدت أن نصف الأطفال يشبهونك، ونصفهم الآخر يشبه أشقاءك وأبناءك! وفي ضيعتي أتمتع بالسمعة التي تتمتع بها في ضيعتك. وكان والدانا وأجدادنا يتمتعون بها كذلك في الماضي. لن تشير إليَّ بالبنان كما لو أنني ارتكبت المحظور، لمجرد أن ابنتك جاءت تنتحب. هل غادرت زوجتك هذا البيت لأنك كنت تفلح نساء الضيعة؟

لا بد أن الحجة كانت مفحمة لأن سيد الجرد العالي استمرَّ ساهماً لفترة طويلة، وكأنه يتردَّد حول الموقف الذي يجب اتخاذه.

حين استأنف الكلام، كان يتحدث ببطء، وبصوت أكثر انخفاضاً:

- لسنا معصومين عن الخطأ، أنا لست مار مارون وأنت لست سمعان العمودي. ولكنني لم أهجر زوجتي يوماً لأغرم بزوجة الناطور، ولم تحبل مني امرأة تحت سقفي. ولو أنجبت امرأة مني طفلاً، لما خطر ببالي أن أطلق عليه إسم أعظم أسلافي.

- ليس هذا الطفل من صلبي!

- يبدو أن الجميع لا يشاطرونك هذا الرأي.

- لا أعبأ بما يظنون. أنا أعلم، ولا يعقل أن أكون قد عاشرت تلك المرأة بغير علم مني!

صمت حمو الشيخ،كما لو أنه أراد تقويم الوضع ثانية، ثم فتح الباب ونادى ابنته:

- يؤكد لي زوجك أن لا شيء قد حدث بينه وبين تلك المرأة. وبما أنه يقول ذلك، فمن الواجب أن نصدقه.

تدخلت والدة الشيخة، وكانت جسيمة مثلها، ومتشحة بالسواد على غرار بعض الراهبات:

- أريد أن ترحل تلك المرأة مع طفلها!

ولكن شيخ كفريبدا أجاب:

- لو كان هذا الطفل من صلبي، فسأكون وحشاً لو طردته من بيتي. وإن لم يكن ابني، فعلام ألام؟ علام تلام تلك المرأة، وعلام يلام زوجها وطفلهما؟ وما هي جريمتهم ليستحقوا هذا العقاب؟

أعلنت الشيخة بنبرة واثقة للغاية، وكأنَّ المسألة لا تحتمل المساومة: "لن أعود إلى القصر طالما لم تغادره تلك المرأة".

كان الشيخ يهم بالكلام، وإذ بمضيفه يسبقه:

- عندما يتناقش أبوك وزوجك، تخرسين!

رمقته ابنته وزوجته بعيون مروعة. ولكنه لم يعرهما انتباهاً، والتفت نحو صهره، واضعاً يده على كتفه:

- في غضون أسبوع، تكون زوجتك قد عادت إلى بيتك، ولو تشبثت بموقفها، فسوف أرجعها لك بنفسي! ولكن كفانا كلاماً. هيا، سوف يظن ضيوفي أننا نتشاجر!

"وأنتما، أيتها الحرمتان، بدلاً من البقاء هنا لمراقبتنا كالقيقان، إذهبا إلى المطابخ، وتأكدا من إعداد العشاء! ماذا سيظن صهرنا لو أبقيناه جائعاً بعد هذه الرحلة الطويلة؟ أحضرا إبنة سركيس لتغني لنا موال عتابا! أحضروا لنا نارجيلة مع التنباك الأصفهاني الجديد!

" سوف ترى، يا شيخ، أن دخانه عسل".

لدى عودة سيد القصر، كانت الضيعة كلها تموج بالشائعات حول رحيل زوجته، وسفره السريع، وبالطبع، حول لميا، وابنها، والإسم الذي كاد أن يحمله. ولكن الشيخ لم يكترث لكل ما

حصل، فقد كان مشغولاً بمسألة أخرى. حموه. ذلك الرجل الذي يخشاه الجبل، بأية معجزة اقتنع بكلامه، وكان يهدده بالقتل قبل لحظات؟ لم يقتنع أنه أفحمه بحججه، فالرجال من طينته لا يسعون للإقناع أو الإقتناع، فكل شيء عندهم تبادل ضربات، ولو لم يرد في الحال كل الضربات التي تلقاها، لكان في المسألة ما يدعو للقلق.

كان الشيخ يرد على الأهالي الذين توافدوا لتهنئته بسلامة عودته، بعبارات مقتضبة وجوفاء، ولا يذكر زوّجته أو حماه إلا لماماً.

لم يمض على عودته بضع ساعات حتى دخلت الخورية إلى قاعة الأعمدة دخولاً كان محط الأنظار. كانت تحمل غرضاً مغطى بقماشة من الحرير البنفسجي، وأعلنت على الملأ، وهي لم تزل على مسافة من الشيخ:

- لي طلب عند الشيخ، على انفراد.

نهض جميع الحاضرين للانصراف. كانت الخورية وحدها دون غيرها قادرة على إفراغ مضافة القصر بدون أن يخطر للسيد الاعتراض، بل لقد أشاع سلوكها في نفسه المرح، فبادر الدخيلة قائلاً:

- وما هو طلبك هذه المرة؟

فأثار سؤاله بين الرجال المنصرفين عاصفة من الضحك تواصلت خارج الصالة.

لم يكن يخفى على أحد ما حصل في المرة السابقة.

حدث ذلك منذ أكثر من اثني عشر عاماً، وكانت تلك المرأة البدينة وقتذاك مجرد فتاة يافعة، وقد فوجىء الشيخ بزيارتها بدون أهلها، ومطالبتها بمقابلته على انفراد.

قالت له: "أود أن أطلب منك معروفاً، ولا أملك ما أعطيك بالمقابل".

لم يكن طلبها سهل المنال: فقد كان من المقرر أن تتزوج بابن عمها بطرس، ابن الخوري العجوز في ذلك الوقت، ولكن الشاب الذي دخل الدير للدراسة استعداداً لخلافة والده، قد استرعى انتباه راهب إيطالي أقنعه بالإعلان عن نذوره بدون الزواج، كما هو الحال في أوروبا، وشرح له أن لا تضحية تسر السماء مثل العزوبية، بل لقد وعده أنه سوف يتدبر إرساله إلى المدرسة الإكليريكية العليا في روما في حال امتنع عن الزواج، وقد يرسم أسقفاً لدى عودته.

علق الشيخ برصانة: "- سوف يعدل عن فتاة جميلة مثلك ليصبح أسقفاً، لا بد أن بطرس هذا مخبول".

أجابت الفتاة، وقد احمر وجهها قليلاً:

- وهذا ما أراه أيضاً.

- وماذا تريدين أن أفعل؟

- لا بد أن شيخنا لن يعدم وسيلة لإقناعه. لقد علمت أن بطرس سوف يزور القصر مع والده غداً...

وبالفعل، مثل الخوري العجوز، متكئاً على ذراع ابنه، أمام الشيخ، وطفق يشرح له أن ابنه تفوق في دراسته، فلفت انتباه أساتذته، بل لقد وعده زائر إيطالي باصطحابه مباشرة إلى "رومية"، مدينة البابا.

وختم قائلاً: "- غداً، سوف يكون لضيعتنا خوري أكثر جدارة من خادمكم".

كان الرجل العجوز يتوقع من السيد وجهاً بشوشاً وبعض عبارات التشجيع، ولكنه قوبل بنظرة متجهمة، أعقبها صمت محرج مقصود، ثم تلك الكلمات:

- يوم ترحل عنا يا بونا، بعد عمر طويل، لن نحتاج إلى خوري رعية.

- وكيف ذلك؟

- إنه أمر محسوم منذ عهد بعيد. فقد قررت، أنا، وأهلي، والمؤاكرين، أن نعتنق الإسلام.

تبادل الشيخ نظرة خاطفة مع أربعة أو خمسة من رجال الضيعة كانوا حاضرين في تلك اللحظة، فوافقوا جميعاً بإيماءة حزينة من رؤوسهم.

- لا نريد أن نقدم على هذه الخطوة ما دمت حياً ترزق، لئلا يفطر قلبك ولكن كنيستنا، فور رحيلك عن هذه الدنيا، سوف تتحول إلى جامع، ولن نعود بحاجة إلى خوري على الإطلاق.

كان الطالب الإكليريكي مرتاعاً، كأن العالم من حوله يتداعى. غير أن الخوري لم يتزعزع، فقد كان يعرف " شيخه " حق المعرفة.

- ما الذي يجري يا شيخ فرنسيس؟

- لا شيء يجري على ما يرام، يا بونا! فكلما شاء أحدنا الذهاب إلى طرابلس، أو بيروت، أو الشام، أو حلب، تعرض للمهانة والملامة لأنه من ذلك اللون أو ذاك، ويمشي إلى اليمين بدلاً من اليسار. ألم نعاني بما فيه الكفاية؟

انبرى الطالب الإكليريكي مندفعاً: "- المعاناة من أجل إيمانه تعالى يفرح الرب، ويجب الاستعداد لكل التضحيات، حتى الشهادة! ".

- ولماذا تريد لنا أن نموت فداءً لدين البابا، وروما تتجاهلنا؟

- وكيف ذلك؟

- لا يحترمون تقاليدنا إطلاقاً. وسوف ترى أنهم، في أحد الأيام، سيرسلون لنا خوارنة عازبين يرمقون نساءنا بشبق، ولن تجرؤ امرأة على الذهاب للاعتراف، وسوف تتراكم الخطايا فوق رؤوسنا.

بدأ الطالب الإكليريكي يستوعب مغزى الحديث. ورأى أنه من المفيد استعراض حججه.

- في فرنسا، كل الرهبان نذروا العفة، وهم مسيحيون صالحون!

- لفرنسا عاداتها، ولنا عاداتنا! لطالما كان كهنتنا متزوجين، ولطالما منحناهم أجمل فتاة في الضيعة لإشباع عينهم، فلا يشتهون نساء غيرهم.

- ثمة رجال يقاومون الإغواء.

- يقاومون بصورة أفضل لو كانت زوجتهم إلى جانبهم!

أمعن الزوار في الإيماء برؤوسهم علامة على الموافقة، لا سيما أنهم اطمأنوا لنوايا شيخهم الحقيقية، وهو الذي تنصر أجداده التزاماً بدين رعاياهم.

تابع سيد القصر كلامه: "أصغ إلي يا ابني، سوف أخاطبك بدون لف أو دوران، ولن أتراجع عن أية كلمة أقولها. إذا كنت تسعى لتكون رجلاً قديساً، فوالدك، بالرغم من زواجه، يتحلى بقدسية تفوق قداسة روما برمتها؛ وإذا كنت تريد أن تخدم الضيعة والمؤمنين فيها، فعليك أن تتخذه قدوة. أما إذا كانت نيتك أن تصبح أسقفاً، وإذا كان طموحك أعظم من هذه الضيعة، فاذهب إلى روما، أو إسطمبول، أو أي مكان آخر، ولكن اعلم أن لا عودة إلى هذا الجبل ما دمت لم أفارق الحياة وأوارى الثرى.

حاول الخوري، إذ اعتبر أن النقاش قد تمادى، إيجاد مخرج:

- وماذا يريد شيخنا؟ لقد أتينا أصلاً لطلب النصح والمشورة.

- وما نفع النصائح، ولا أحد يريد النصح؟

- أفصح يا شيخنا، وسوف نمتثل لمشيئتك.

التفتت الأنظار كلها نحو بطرس الذي اضطر، أمام كل هذا الضغط، أن يومىء برأسه موافقاً. فأشار الشيخ إلى أحد أتباعه، وهمس في أذنه أمراً. تغيب الرجل لدقائق معدودة، ثم عاد بصحبة سعدى وأهلها.

غادر الخوري العتيد القصر في ذلك اليوم، وقد أعلنت خطبته وفق الأصول، بمباركة والده. وعدل عن الدراسة في روما، وعن الحلم بالأسقفية. ولقد ظل مستاءً من الشيخ بسبب ما جرى بعض الوقت. ولكنه شعر نحوه بعميق الامتنان بعد زواجه بالخورية.

كان الشيخ يلمح إلى تلك الحادثة حين زارته الخورية في هذا اليوم. وبعد أن أصبحا على انفراد، أردف قائلاً:

- المرة الماضية، كنت تطلبين يد بونا بطرس، وقد أعطيتك إياها. فما طلبك هذه المرة؟

- هذه المرة، جئت أطلب يدك يا شيخنا!

وقبل أن تتبدَّد دهشته، تناولت يده بالفعل، ثم نزعت القماشة التي كانت تغطي ما تحمله. كان إنجيلاً. فوضعت يد الشيخ عليه بسلطة. كان ليتمرد أمام أي شخص آخر، ولكنه أذعن لها، فلطالما أثارت جرأة تلك المرأة لديه إعجاباً مشوباً بالمرح.

- تخيل أنك في كرسي الاعتراف يا شيخنا!

- ومنذ متى يعترف الرجال لامرأة؟

- منذ اليوم.

- لأن النساء تعلَّمن حفظ الأسرار؟

- لن يخرج ما ستقوله من هذه الغرفة. ولو اضطررت خارجاً للكذب من أجل حماية شقيقتي، فسوف أكذب. ولكن أريد أن تعترف لي بالحقيقة.

يبدو أن الشيخ ظل صامتاً برهة طويلة، قبل أن يعلن، متظاهراً بالملل:

- هذا الطفل ليس طفلي، إن كان ذلك ما تودين معرفته.

لعله كان يهم بقول المزيد، ولكنها لم تمنحه الفرصة، ولم تضف شيئاً. فغطت الإنجيل ثانية بالقماشة الحريرية، وانصرفت.

هل يكون الشيخ قد كذب، ويده على الكتاب المقدس؟ لا أظن. وبالمقابل، فلا شيء يجزم أن الخورية قد نقلت كلامه بأمانة. فقد أقسمت أن تخبر أهالي الضيعة ما ترى أن من واجبها إخبارهم.

هل صدقوها؟ ربما لا. ولكن لا أحد منهم كان ليرغب التشكيك بصحة كلامها.

بسبب " الجراد"...

III

عندما عادت الشيخة إلى كفريبدا في الأسبوع الأول من شهر آب، كان والدها يصطحبها، وكذلك أشقاؤها الخمسة، وستون نفراً من الخيالة وثلاثمائة من المشاة، بالإضافة إلى السائسين، والمرافقات، والخادمات، والخدم - أي قرابة ستمائة نفر.

أراد حرس القصر الانتشار في المقاطعة ودعوة الأهالي إلى حمل السلاح، ولكن الشيخ طلب منهم التزام الهدوء، والتحلي بالصبر، فعلى الرغم من المظاهر، لم تكن المسألة تعدو كونها زيارة. وقد خرج بنفسه إلى مدخل القصر لاستقبال حميه استقبالاً مهيباً.

- لقد جئت مع ابنتي، كما وعدت. وقد حرص هؤلاء الأقارب على مواكبتي. أخبرتهم أن المرء يجد دائماً في أراضي الشيخ ركناً ظليلاً ليضع رأسه، وزيتونتين ليشبع جوعه.

- لقد حللت أهلاً، ووطئت سهلاً!

- فالتفت سيد الجرد العالي إلى أنصاره:

- لقد سمعتم، أنتم هنا في دياركم. لم يخب ظني في كرم صهري وجوده!

فقوبل كلامه بهتافات يوحي ابتهاجها العارم بالريبة.

في اليوم الأول، أقيمت وليمة لتكريم وفادة الضيوف كما تقتضي العادة. وفي اليوم الثاني، كان يجب كذلك إطعام كل هؤلاء القوم، وفي اليوم الثالث، والرابع، والخامس... لم تكن مؤونة الشتاء قد أعدَّت، وبسبب إقامة وليمة يومياً، بل وليمتين أحياناً، سرعان ما نفذت مؤن القصر. فلا قطرة زيت، أو نبيذ، أو عرق، ولا طحين، أو بن، أو سكر، ولا قورما. كان المحصول شحيحاً أصلاً، في هذه السنة، وأمام مشهد الحيوانات التي كانت تذبح يومياً - عجول وماعز للحم المدقوق، وعشرات الأغنام، ومداجن بحالها - شعر أهالي ضيعتي بقرب حلول المجاعة.

لماذا لم يتحركوا؟ لا ريب أن لا الرغبة كانت تنقصهم، ولا "حصانة الضيوف" المزعومة تردعهم، لا، على الإطلاق، فقد كان بوسعهم أن يقضوا عليهم عن بكرة أبيهم بكل راحة ضمير منذ اللحظة التي أخلَّ فيها هؤلاء "الضيوف" عن سابق ترصد وتصميم بآداب الضيافة. غير أن الحدث كان خاصاً للغاية، ولا يقاس بالأعراف والتقاليد. فلا ننسى أن المسألة كانت تتعلق بخلاف زوجي. كان هذا الخلاف مضحكاً، ومغالياً، ولكنه يبقى خلافاً بين زوجين في كل الأحوال. فقد قدم سيد الجرد العالي لتوبيخ صهره الذي ألحق به الإهانة على طريقته، وكانت الشيخة من أحسن التعبير عن ذلك لدى تصريحها أمام إحدى نساء الضيعة التي جاءت تشكو مما يحصل: "قولي لسيدك إنه كان حرياً به الزواج بإحدى فلاحاته، طالما أنه يعجز عن توفير العيش اللائق بسيدة نبيلة!". كانت تلك الحالة الذهنية السائدة لدى هؤلاء "الضيوف". لم يأتوا لقتل الأهالي، أو لإحراق الضيعة، أو تدمير القصر... وإنماكانوا يسعون فقط لاستنزاف موارد مضيفهم.

ولم يكن أبطالهم أشجع محاربيهم، بل أكثرهم نهماً. ففي

كل وليمة، كانوا يجتمعون وسط الحشود التي تشجعهم بالهتاف والضحك، فيتبارون على من يستطيع التهام أكبر عدد من البيض المسلوق، ومن سيبتلع وحده جرة من النبيذ الذهبي، أو صينية كاملة من الكبة،كبيرة كذراعين مشرعتين. كان انتقاماً بواسطة الشراهة، نوعاً ما.

وماذا لو استغلت إحدى هذه الولائم التي يكثر فيها الشراب لذبحهم؟ كان أهالي كفريبدا يقدسون المآثر الحربية، وقد جاء أكثر من قبضاي يهمس في أذن الشيخ أنه يكفي كلمة منه، أو إشارة... " لن نذبحهم، لا أبداً، بل نكتفي بإشباعهم ضرباً، ثم نعريهم من ثيابهم، ونقيدهم عراة على الأشجار، أو نشنقهم رأساً على عقب ريثما يلفظون ما في جوفهم".

ولكن الشيخ كان يكرر على الدوام: "سوف أقطع إرباً أول من يشهر سلاحه. أشعر بما تشعرون، وأتألم كما تتألمون، وأرغب أكثر منكم جميعاً بالإقدام على ما تقترحون. وأعلم أنكم تجيدون القتال، ولكنني لا أريد مجزرة، ولا أريد أن أكون البادىء في ثأر مع حماي الذي يملك من الرجال أكثر مما أملك عشرين ضعفاً. لا أريد أن تعج الضيعة بالأرامل، جيلاً بعد جيل، لأننا افتقرنا، في أحد الأيام، للصبر مع أولاد الحرام أولئك. لنضع ثقتنا بالله، لأنه سيعرف كيف يقتص منهم!".

غادر بعض الشبان القصر متذمرين. فقد كان الخوري هو الذي يتضرع للرب عادة، والشيخ هو الذي يقود الجنود إلى القتال... ولكن معظمهم اقتنعوا برأي سيدهم، ولم يشأ أحدهم، في كل الأحوال، أن يبادر إلى إهراق الدماء.

ولجأ الأهالي إلى انتقام من نوع آخر، كان انتقام المغلوبين على أمرهم: فقد راحت الضيعة تضج بنوادر خبيثة عن ذاك الذي أصبح لا يدعى " سيد الجرد"، بعد تحريف إسمه، بل " سيد

الجراد". وكانت التلميحات الذكية، آنذاك، تنظم زجلاً على غرار الأبيات التالية:

بيسألوني ليش عم بكي عحالي
كأني بحياتي ما كنت عاني
عملوّل غزي الجراد حقلي
بس جراد عملوّل يا ويلي
ما كان ياكل لحم ضاني

وفي كل سهرة، كان القوّالون يمعنون في هجاء أهالي الجرد العالي، هازئين بلهجتهم، ساخرين من بلادهم وزعيمهم، مشكِّكين بفحولتهم، مختزلين مآثرهم الحربية السابقة واللاحقة إلى مآثر قطيع من الوحوش الشرهة، انطبعت في مخيلة الناس طويلاً. ولكن الشيخة كانت أكثرهم عرضة للسخرية، وكانت توصف في أكثر الأوضاع مجوناً، بدون الاكتراث لوجود الأطفال، فيسترسل الجميع في الضحك حتى النسيان.

وبالمقابل، لم يكن أحد يجسر على التفوه بدعابة، أو تلميح خبيث على حساب لميا، وزوجها، أو أبوة ابنها المشكوك فيها. لا شك أنه لو لم تقع كل هذه الأحداث - لو لم تسع الشيخة للانتقام، ولو كانت اكتفت بالرحيل بدون التلفظ بجملة قاتلة -، لكان الهمس واللمز جعلا حياة جريس وأسرته لا تطاق، وأرغمهما على اختيار طريق المنفى. ولكن سيد الجرد العالي، إذ أعلن الحرب على الضيعة بكاملها، وأمعن في إفقارها، وتجويعها، وإذلالها، توصل إلى النتيجة المعاكسة. فالتشكيك في عفة لميا، وأبوة إبنها يعني التسليم بصحة مزاعم "الجراد"، وتبرير انتهاكاتهم. وكل من يتبنى ذلك الموقف، يكون عدواً للضيعة وأهاليها، ولا مكان بينهم.

وراح جريس الذي شعر، إثر حادثة الإسم، أنه قد أضحى

مسخرة الضيعة، يرى الناس يتزاحمون حوله، ويعانقوه عناقاً حاراً، كأنهم يريدون تهنئته. إنما تهنئته بماذا؟ ظاهرياً، بولادة طفل ذكر، ولكن الحقيقة كانت مختلفة، ولئن كان لا أحد يستطيع تبريرها، فقد كان الجميع يدركها سراً. فالجريمة التي يعاقب عليها الأهالي، حوَّلها هؤلاء، بدافع الاستفزاز، إلى فعل تحدٍ أصبح كل طرف فيه بريئاً، ولا بد بالتالي من الدفاع عنه، سواءً أكان عشيقاً متهوراً، أم زوجة زانية، أم زوجاً مخدوعاً.

وبالحديث عن ذلك الزوج، تجدر الإشارة إلى أن جريس حرص، منذ غزو " الجراد " وبانتظار رحيلهم، على مغادرة القصر مع زوجته وابنه الرضيع، وكان يبلغ آنذاك من العمر أربعين يوماً، والإقامة لبعض الوقت عند عديله الخوري، في غرفة متاخمة للكنيسة. وتقاطر الزوار الودودون إليها أفواجاً- وفاق عددهم عدد الذين استقبلهم الزوجان خلال سنتين في جناحهما " الفوقي "، لا سيما الأمهات اللواتي كن يرغبن جميعاً بإرضاع الطفل، ولو مرة واحدة، إعراباً عن مشاعرهن الأخوية في لحمهن ودمهن.

وقد تساءل الكثيرون إن كانت هذه الرعاية المفرطة ستدوم بعد رحيل " الجراد " الذين يغذونها.

" . . . ذلك أن سربهم سوف يحلق بعيداً، كما تقول أخبار الجبل، نحو المرتفعات القاحلة في الجرد العالي" .

عشية ذلك اليوم المبارك، سرت الشائعات، ولكن الأهالي لم يصدقوها؛ فمنذ ستة أسابيع مضنية، والشائعات تسري كل يوم، وتكذَّب في آخر النهار. وغالباً ما يكون مصدرها القصر، والشيخ شخصياً الذي لم يتعرض للملامة على نشر هذه الأكاذيب. " ألا يقال إن الأزمنة الكالحة تتخللها بارقات كاذبة، كما يلفي المرء نفسه في الجبل، خلال فصل الربيع، وسط مجرى ماء، ويجب التقدم نحو الضفة قفزاً من حجر زلق إلى آخر؟"

ومع ذلك، فقد تراءى للشيخ هذه المرة أن " ضيوفه " عقدوا العزم بالفعل على الرحيل. كان شبه سجين في قصره، ولكنه سعى جاهداً للحفاظ على الشكليات، فكان يدعو حماه كل صباح لتناول القهوة برفقته في الليوان الذي يشبه شرفة داخلية تطل على الوادي، وكان المكان الوحيد الذي يتسنى للمرء فيه أن يتأمل مشهداً غير عشرات الخيام التي نصبها الضيوف عشوائياً، فحوَّلت مشارف القصر إلى معسكر حقيقي للبدو الرحل.

كان الصهر وحماه يتراشقان منذ بعض الوقت معسول السهام وإذ بالشيخة تقبل وتعلن لأبيها أنها اشتاقت لابنها الذي عهد به إلى جدته أثناء هذه "الزيارة"، وأنها تود رؤيته. فتظاهر "سيد الجراد" بالاستهجان الصريح:

"أتطلبين مني الإذن بالسفر بحضور زوجك؟"

فشعر الزوج بأن الخاتمة قد أزفت، وأن الزيارة - العقاب على وشك الانتهاء. فاغتبط وقلق في آن. لقد كان يخشى في الواقع أن يبادر هذا القطيع، لحظة الانسحاب، وبمثابة هدية وداعية، إلى السلب والنهب وإضرام الحرائق. وكان الكثير من أهالي الضيعة يخشون ذلك بدورهم، فما عادوا يتجاسرون على التمني بأن يكون ذلك اليوم الموعود قريباً، مفضلين أن يتواصل النهب السلمي لأسابيع أخرى.

غير أن الأحداث سوف تكذِّب هذه المخاوف. فخلافاً لكل التوقعات، انسحب الجراد بهدوء، تقريباً، وكان ذلك في أواخر شهر أيلول، ولكنهم " زاروا " الكروم والبساتين التي نهبت بالكامل، وما كان بوسع أحد الحؤول دون حدوث ذلك الأمر. وبالمقابل، لم يتذمر الأهالي من قتل أو تدمير. وما كان "الجراد" بدورهم يرغبون التورط في ثأر يقحمهم في دوامة من الانتقام، بل يرغبون إلحاق إهانة باهظة بالصهر، وقد تحققت لهم

هذه الغاية، بل لقد تعانق الشيخ وحماه عند مدخل القصر وسط الهتافات الساخرة.

كانت الكلمة الأخيرة التي سمعت على لسان الشيخة: "سوف أعود في آخر الشتاء"، ولم تحدد إن كانت تنوي العودة بهذه المواكبة الغفيرة.

في ذلك الشتاء، عانت البلاد من المجاعة، وقاست ضيعتنا أكثر من غيرها. وكلما شحَّت المؤن، انهالت اللعنات على "الجراد"، ولو خطر ببال هؤلاء القوم العودة، فلا أحد، ولا حتى الشيخ، كان قادراً على تفادي وقوع مذبحة.

ترقب الأهالي عودتهم طوال سنوات، ووضعوا حراساً على الدروب، وفي أعالي الجبال، ورسموا الخطط لإبادتهم، ولئن كان بعضهم يخشى عودتهم، فالكثيرون كانوا يرجونها برباطة جأش، ويتحسرون لأنهم اعتصموا بالصبر في المرة الأولى.

لم يرجعوا. ولعلهم ما كانوا يعتزمون العودة على الإطلاق، أو كان السبب المرض الذي أصيبت به الشيخة، وهو السل، كما قيل، وقد رأى أهالي ضيعتي في هذا المرض بالطبع قصاصاً عادلاً. وروى بعض الزوار العائدين من الجرد العالي، والذين لمحوها في دار والدها، أنها ضمرت، ونحلت، وهرمت، وتبدلت ملامحها، ولا ريب أنها كانت تذوي...

وشيئاً فشيئاً، كلما ابتعد الخطر، راح أولئك الذين كانت تساورهم الشكوك دوماً حول سر ولادة طانيوس، وكانوا يعتبرون أن هذه المغامرة العاطفية كلفت غالياً بعض الشيء، يتجاسرون على الكلام.

في بادىء الأمر، لم تصل أية أصداء إلى ابن لميا، فلا أحد كان يرغب بالكلام أمامه. ولئن ترعرع على غرار جميع أهالي الضيعة من جيله في رهبة من " الجراد"، فلم يكن بوسعه

التخمين أن مجيئه إلى هذه الدنيا قد جلب لأهله تلك المصيبة. ولقد نعم بطفولة سعيدة وهانئة، بل نهمة ومرحة ومزاجية، لأنه كان تميمة الضيعة نوعاً ما، وقد استفاد من هذا الوضع بكل براءة.

ومع تعاقب السنين، كان يحدث أحياناً أن يبادر أحد الزوار، عن جهل أو خبث، حين يلمح هذا الطفل الجميل والقشيب الثياب يلهو على هواه في أروقة القصر، فيسأله إن كان ابن الشيخ. وكان طانيوس يجيب ضاحكاً: "لا، أنا ابن جريس"، بدون تردد، أو سوء نية.

ويبدو أن أدنى شك لم يساوره حول ولادته، قبل ذلك اليوم المشؤوم الذي صرخ أحدهم في وجهه ثلاث مرات: طانيوس الكشك! طانيوس الكشك! طانيوس الكشك!

العبور الثالث

القدر على شفتي المجنون

كلام الحكيم يجري في الضياء. ولكن البشر، في كل الأزمنة، آثروا شرب الماء الذي ينبع من أكثر المغاور ظلاماً.

نادر،

حكمة البغال

I

بوسعي تحديد الموقع الذي كان يقف فيه ابن لميا بالضبط لدى وقوع الحادثة. لقد تبدلت الأماكن قليلاً. ولكن الساحة احتفظت بهيئتها الأصلية واسمها، " البلاطة" . فلا يتواعد الناس "في الساحة"، بل "على البلاطة". اليوم كما بالأمس. وقرب البلاطة، توجد مدرسة الرعية، الناشطة منذ ثلاثة قرون، ولكن لا يخطر لأحد التباهي بها، لأن السنديانة في باحتها تناهز الستمائة عام، وعمر الكنيسة يبلغ ضعفي ذلك، على الأقل أقدم حجارتها.

وخلف المدرسة، يقع بيت الخوري. واسمه بونا بطرس، على غرار الخوري الذي كان يعيش في عصر طانيوس، ولوددت القول إنه أحد أحفاده، ولكن هذا التشابه في الأسماء محض صدفة، ولا صلة قربى بين الرجلين، إلا من حيث أن كل أهالي الضيعة يعتبرون أقارب ما أن نرتقي سلم الأجداد بأربع درجات.

ما زال الأطفال في كفريبدا يلهون أمام الكنيسة، وفي ظل الشجرة. كانوا فيما مضى يرتدون قمبازاً، وكذلك لبادة، ولا يخرج "كشيف" - أي حاسر الرأس - سوى الفقير، أو المجنون، أو الغريب الأطوار، ولكلمة كشيف وقع كالتقريع.

وفي الطرف الآخر من الساحة، يوجد نبع يجري في قلب الجبل عبر مغارة؛ وهو الجبل نفسه الذي كان القصر يتوج فيما مضى قمته. وحتى اليوم، لا يسع المرء إلا أن يقف ليتأمل أطلاله، ولا بد أن المشهد كان في الماضي لا يخلو من الجلال والهيبة. لقد شاهدت في الآونة الأخيرة رسماً من القرن الماضي لأحد الرحالة الإنكليز، ، قام بتلوينه فنان من ضيعتي، وكانت واجهة القصر تلوح كقطعة واحدة، كأنها هضبة شيدتها يد بشرية، بذلك الحجر المعروف بحجر كفريبدا، وهو حجر صلب وأبيض تشوبه انعكاسات بنفسجية.

كان الأهالي يطلقون على قصر السيد أسماء عديدة، فهم يذهبون "إلى السرايا"، أو "إلى التلة"، أو إلى "الدار الفوقا"، بل "الإبرة" - لسبب لم أكتشفه سوى لاحقاً -، وفي أغلب الأحيان، كانوا يتوجهون "إلى القصر"، أو بكل بساطة "إلى فوق". كانت درجات غير منتظمة تقود إليه من البلاطة؛ ويسلك الأهالي هذا الطريق "لرؤية يد الشيخ".

وعند مدخل المغارة، توجد قبة مزينة بنقوش إغريقية. وكانت هذه القبة إطاراً جليلاً لنبع ثمين ومهيب لأن الضيعة قامت حوله. كانت مياهه الباردة في كل الفصول تجري في الأذرع الأخيرة على سطح صخرة محفورة على شكل قمع، ثم تنسكب من فوهة مسننة داخل بركة صغيرة، قبل ري بعض الحقول المجاورة. وفي هذا المكان، كان يحلو لشبان الضيعة على الدوام التباهي بقدرتهم على التحمل، ويراهنون على من سيتمكن من إبقاء يده أكثر من خصمه تحت الماء الجاري.

حاولت مراراً، ويتسنى لأي من أبناء كفريبدا أن يتحمل خمس عشرة ثانية، أما بعد ثلاثين ثانية، فيسري ألم حاد من اليد إلى الذراع، ثم الكتف، ويجتاح المرء ما يشبه الخدر العام، وبعد

دقيقة، يلوح الذراع مستأصلاً، مقتلعاً، وقد يجازف المرء بالإغماء، ويجب أن يكون قبضاياً أو راغباً في الانتحار، للمثابرة.

وفي عصر طانيوس، كان يحلو للفتيان أن يتبارزوا. فيضع اثنان منهم يداً في الماء في آن، ومن يسحبها قبل الآخر يخسر الرهان، ويجب أن يدور حول الساحة قفزاً على رجل واحدة. وكان كل العاطلين في الضيعة الذين يلتقون في المقهى الوحيد حول لعبة طاولة، أو يتسكعون قرب البلاطة، ينتظرون هذه اللعبة القديمة لتشجيع الخاسرين، مصفقين بأيديهم، والسخرية منهم على حد سواء.

في ذلك اليوم، تحدى طانيوس أحد أبناء الخوري. وتوجه الاثنان، بعد المدرسة، إلى موقع المبارزة، يتبعهم سرب من رفاقهم، وكذلك شليطا، مجنون الضيعة، وهو طفل عجوز هزيل الجسم، طويل الساقين، حافي القدمين، حاسر الرأس، يمشي متعثراً. كان يحوم دائماً حول الفتية، لا يؤذي ولكنه يزعج أحياناً، يشاركهم الضحك بدون معرفة السبب، ويمرح للهوهم أكثر مما يمرحون، ويصغي إلى أحاديثهم بدون أن يكترث أحدهم لوجوده.

ولدى الوصول إلى النبع، حدد كل من الفتيان موقعه، وتمدد كل منهما على الأرض في طرف من البركة، ورفع يده، مستعداً للبدء بالمبارزة فور إعطاء إشارة الانطلاق. وفي هذه اللحظة بالذات، خطر لشليطا الذي كان يقف خلف طانيوس مباشرة أن يدفع بهذا الأخير إلى الماء. ففقد الفتى توازنه، وتعثر، وشعر بأنه يغوص في البركة، ولكن بعض الأيدي امتدت لانتشاله قبل فوات الأوان. نهض مبللاً، وتناول قصعة كانت في الجوار، وملأها بالماء، ومضى ليفرغها على رأس المسكين، وهو يجذبه من

أسماله. راح شليطا الذي كان حتى الحين يضحك لدعابته يعول كالأبكم، ولما أطاح به طانيوس أرضاً، لحظة أفرج عنه، سمعه الجميع يصرخ بصوت أصبح مفهوماً على حين غرة: طانيوس الكشك! طانيوس الكشك! طانيوس الكشك!، وهو يخبط قبضته اليسرى على راحة يده اليمنى تشفياً.

وكان انتقاماً بالفعل، تجلى بوضوح في عيون كل الذين كانوا يتحلقون حول طانيوس، أكثر مما تجلى في عينيه. راح بعض الفتية يضحكون، ولكنهم سرعان ما صمتوا أمام القنوط الذي خيم على الجميع. وقد استغرق ابن لميا بعض الوقت لإدراك ما قيل له. وترابطت أجزاء الأحجية في ذهنه ببطء، جزءاً تلو الآخر.

لم تكن كلمة "الكشك" تصلح لقباً، فقد كانت تصف حساءً سميكاً وحامضاً مؤلفاً من اللبن والقمح. وهو أحد أقدم المعالم الغذائية التي يمكن زيارتها اليوم، وما زال يعد في كفريبدا بالطريقة نفسها منذ مائة بل ألف وسبعة آلاف عام. ويسهب الراهب إلياس الحديث عنه في أخبار الجبل، في الفصل المخصص للعادات المحلية، موضحاً الطريقة التي يجب أن "يتشرب فيها اللبن" القمح المجروش سلفاً في الخوابي الكبيرة لأيام عديدة. "فنحصل بعدها على العجينة المسماة بالكشك الأخضر، والتي يعشقها الأطفال، وتنشر هذه العجينة على جلد غنم مدبوغ لتجف على السطوح، ثم تتناولها النساء في أيديهن، ويقمن بتفتيتها قبل نخلها للحصول على المسحوق المائل للبياض الذي يحفظ في أكياس قطنية طوال الشتاء..."، ويكفي عندئذ إذابة بضع مغارف طافحة في الماء الغالي للحصول على الحساء.

وقد يبدو مذاق الكشك غريباً للمبتدئين. ولكن لا وجبة أخرى، بالنسبة إلى ابن الجبل، تخفف من ضراوة الشتاء. ولقد ظل الكشك طويلاً الوجبة التقليدية في العشاء القروي.

ولا ريب أن الشيخ كان يملك الإمكانات لتناول طعام آخر غير وجبة الفقراء هذه، ولكنه، بدافع الاستساغة، وربما الحنكة السياسية، كان يعبد الكشك عبادة حقيقية، ويكرر على الدوام أنه سيد الوجبات، مقارناً أمام زائريه طرائق إعداده المختلفة. وكان الكشك، مع الشوارب، حديثه المفضل.

كان أول ما تذكره طانيوس، إذ سمع شليطا ينعته بهذا اللقب، وليمة أقيمت في القصر قبل أسبوعين، وأعلن خلالها الشيخ، لمن شاء أن يسمع، بأن ما من امرأة في الضيعة تجيد إعداد الكشك مثل لميا التي لم تكن تشارك في الوليمة، ولكن ابنها كان حاضراً، وكذلك جريس، فالتفت الفتى نحوه لدى سماعه هذه الملاحظة ليتحقق من إحساسه بالفخر مثله. ولكن جريس، على العكس، كان يبدو هلعاً، وقد خفض بصره، وامتقع وجهه. وقد عزا طانيوس هذا الموقف إلى الأدب. أفلا تقتضي اللياقة إظهار الإحراج أمام إطراء السيد؟

أما الآن فقد راح الفتى يفسر الحرج الشديد الذي انتاب جريس بصورة مغايرة كلياً. كان على علم بشأن بعض أطفال الضيعة، وكذلك غيرهم من الأكبر سناً، أن الشيخ، كما يشاع، كان معتاداً على "استدعاء " أمهاتهم لإعداد هذا الطبق أو ذاك، وأن لهذه الزيارات صلة بمجيئهم إلى هذه الدنيا، فكان الناس يلصقون باسمهم الطبق المعني، فيلقبونهم حنا الأوزي، أو بولس غمِّة... وكانت هذه الألقاب مهينة للغاية، ولا أحد يود التلميح إليها في حضور أصحاب الشأن، وكان طانيوس يحمر خجلاً كلما لفظت هذه الأسماء أمامه.

لم يخطر بباله قط، ولا في أسوأ كوابيسه، أنه قد يكون، وهو طفل الضيعة المدلل، في عداد هؤلاء المساكين الذين يحملون هذه النعوت، أو أن أمه من النساء اللواتي...

كيف يصف المرء ما شعر به الفتى في تلك اللحظة؟ كان ناقماً على العالم بأسره، على الشيخ وجريس، " والديه"، وعلى لميا، وكل الذين كانوا يعلمون في الضيعة ما يقال بشأنه، ولعلهم يرمقونه بشفقة أو سخرية. ومن بين رفاقه الذين حضروا المشهد، لم يرض حتى عن أولئك الذين أبدوا ارتياعاً لأن موقفهم كان الدليل القاطع على وجود سر يتقاسمونه مع الآخرين، سر لم يكشف النقاب عنه سوى مجنون الضيعة، وفي لحظة غضب.

ويعلق الراهب الياس: "في كل عصر من العصور، كان يوجد في كفريبدا شخص مجنون، ومتى اختفى، أتى مجنون آخر ليحتل مكانه كالجمر الراقد تحت الرماد كي لا تخمد جذوة النار أبداً. ولا ريب أن العناية الإلهية تحتاج إلى هذه الدمى التي تحركها بأصابعها لتمزيق الأحجبة التي كانت قد نسجتها حكمة البشر".

كان طانيوس ما زال واقفاً في مكانه، متداعياً، بل عاجزاً عن إشاحة نظره، فتوعد ابن الخوري شليطا بأنه سوف يشنقه على حبل الكنيسة الذي أشار إليه بالبنان لو لمحه في الضيعة ثانيةً، فما عاد المسكين، وقد دب في قلبه الهلع، يجرؤ قط على ملاحقة الفتيان بل ولا التسكع بجوار البلاطة.

وسوف يستقر خارج الضيعة، على أرض رحبة زلقة، تسمى "المهوار " لكثرة ما تحوي صخوراً متصدعة. وعاش شليطا وسط هذه الصخور، ينفض عنها الغبار، ويمسحها، ويوبخها، ويزعم أنها تتحرك ليلاً، وتئن وتسعل، بل وتضع صغاراً.

وسوف تخلف هذه المعتقدات الغريبة أثراً في ذاكرة القرويين. فحين كنا نلهو أطفالاً، لو صدف أن انحنى أحدنا للنظر إلى أسفل الصخرة، هتف الآخرون بصوت واحد: "هل وضعت الصخرة يا شليطا؟"

وسوف ينأى طانيوس عن الضيعة على طريقته الخاصة. فلا يلبث يفتح عينيه صباحاً حتى يمضي في نزهات طويلة، متأملة، ووحيدة، يستحضر خلالها بعض الأحداث في طفولته، ويقوم بتأويلها على ضوء ما لم يعد خافياً عليه بعد اليوم.

ما عاد أحد يسأله، لدى مروره، عما أصابه، فقد انتشرت الحادثة قرب النبع في الضيعة بعد ساعتين فقط على وقوعها، وأصحاب العلاقة وحدهم - والدته، وجريس، والشيخ - لم يسمعوا بها. وقد لاحظت لميا أن طباع ابنها قد تبدلت، ولكنه قد تجاوز الثالثة عشرة، بل ناهز الرابعة عشرة، أي السن التي يتحول فيها الفتيان إلى رجال، وتراءت لها تلك السكينة المفرطة التي يبديها في كل المناسبات مجرد علامة على نضوجه المبكر. ما عادا يتشاجران على الإطلاق، ولا تعلو أصواتهما، بل لقد زاد طانيوس أدباً، إنما كان ذلك النوع من الأدب الذي يتحلى به من يشعر بنفسه غريباً.

في مدرسة الرعية، كان الوضع مماثلاً. وكان الفتى يتابع بانتباه دروس الخط أو التعليم الديني، ويجيب إجابات صحيحة على أسئلة بونا بطرس، ولكنه يبتعد سريعاً، ما أن يدق جرس الانصراف، متفادياً البلاطة، سالكاً دروباً مهجورة، للتنزه بعيداً عن الأنظار حتى يقبل المساء.

وفي أحد الأيام، إذ سار في خط مستقيم حتى مشارف ضيعة ديرون، لمح، على مسافة، موكباً يقترب، وكان الموكب لرجل يمتطي حصاناً ويرافقه خادم يمسك له اللجام، وقد تحلق حوله عشرات الخيالة، كانوا حرسه في الظاهر، وقد تسلحوا بالبنادق وأرسلوا لحاهم التي كانت تلمح من بعيد.

II

لقد صادف طانيوس هذا الرجل مرتين أو ثلاث مرات في السابق، وفي نواحي ديرون على الدوام، ولكنه لم يلق عليه التحية قط لأن التقليد في الضيعة يقضي بعدم مخاطبة المنبوذ.

كان ذلك الرجل روكز، وكيل القصر السابق الذي شغل جريس وظيفته منذ حوالي خمسة عشر عاماً. قد اتهمه الشيخ باختلاس قيمة المحصول؛ وكان هذا المبلغ، نوعاً ما، مال الإقطاعي لأنه يمثل الحصة من المحاصيل التي كان يدين له بها المؤاكرون، وكذلك مال الفلاحين لأنه مخصص لتسديد ضريبة الميري. وبسبب هذا الاختلاس، اضطرالقرويون في تلك السنة إلى دفع حصة إضافية، الأمر الذي يبرر عداءهم للوكيل السابق من خلال طاعتهم للشيخ ونقمتهم الشخصية.

ولقد حكم على الرجل العيش في المنفى لسنوات عديدة، ولم يطرد من الضيعة وجوارها فحسب بل من الجبل كله، إذ أقسم الشيخ على اعتقاله. فاضطر روكز للفرار إلى مصر، وفي اليوم الذي صادفه طانيوس، كان قد عاد إلى البلاد منذ ثلاث سنوات بالكاد. وكانت عودته محط الأنظار، لأنه اشترى، عند تخوم مقاطعة الشيخ بالضبط، أرضاً واسعة، وزرع فيها أشجار

التوت لتربية دود القز، وشيد داراً ومزرعة لإنتاج الحرير. بأي مال؟ لم يكن لدى القرويين أدنى شك بأن ذلك الأفّاق قد اغتنى بفضل مالهم على ضفاف النيل!

غير أن كل ذلك كان مجرد وجهة نظر، وكان لروكز رأي آخر سمعه طانيوس همساً في مدرسة الضيعة: فقصة الاختلاس مجرد حجة اختلقها الشيخ لتحقير معاونه السابق والحؤول دون عودته إلى كفريبدا؛ والسبب الحقيقي للخلاف بين الرجلين أن السيد حاول إغواء زوجة روكز الذي قرر مغادرة القصر صوناً لشرفه.

من كان يقول الحقيقة؟ لطالما سلَّم طانيوس برواية الشيخ، ولم يكن على استعداد البتة أن يتصرف بلباقة مع المنبوذ، وإلا شعر بارتكاب الخيانة! ولكن نظرته إلى الأمور تبدلت كلياً. فهل من المحال أن يكون الشيخ قد سعى لإغواء زوجة روكز؟ وألم يختلق الشيخ هذه الخصومة تداركاً لتعاطف الضيعة مع روكز، وإرغاماً لهذا الأخير على الرحيل؟

كلما اقترب الموكب، تعاظم اندفاع طانيوس نحو الرجل الذي تجاسر على مغادرة القصر، صافقاً الباب حفاظاً على عرضه، ذلك الرجل الذي كان يشغل وظيفة جريس، ولكنه لم يقنع بالعيش صاغراً حتى مماته، بل على العكس، اختار طريق المنفى، ثم عاد لتحدي الشيخ على مشارف معقله.

يوم عاد الوكيل السابق إلى البلاد، أصدر سيد كفريبدا أمراً إلى رعاياه بإلقاء القبض عليه في الحال وإحضاره. ولكن روكز كان قد تحصن بكتاب من أمير الجبل، وكتاب آخر يحمل توقيع والي مصر، وكتاب ثالث بخط البطريرك شخصياً، وهي وثائق كان يحرص على استعراضها أمام الجميع، وما كان الشيخ قادراً على مواجهة كل هذه السلطات العليا في آن، فكظم غيظه على مضض وعلى شيء من كرامته.

وعلاوة على ذلك، قام الوكيل السابق، إذ لم يشأ الاكتفاء بهذه الحماية الخطية فحسب، وخوفاً من التعرض للاغتيال، بتجنيد زهاء ثلاثين نفراً كان يجزي لهم العطاء، وقد سلَّحهم بالبنادق، وكانت هذه الزمرة تؤمن حراسة أرضه، وتواكبه فور خروجه من داره.

راح طانيوس يراقب الموكب منبهراً، ويستمتع بعلامات النعيم والسلطة، ولما وصل بمحاذاته، هتف بنبرة مرحة:

- صباح الخير، يا خْواجا روكز!

فتى من كفريبدا يخاطبه بهذا الاحترام وبابتسامة عريضة! أمر الوكيل السابق رجاله بالتوقف.

- من أنت أيها الشاب؟

- إسمي طانيوس، إبن جريس.

- جريس، وكيل القصر؟

أومأ الفتى برأسه، وكذلك فعل روكز، مراراً، مذهولاً. ارتعش تأثراً وجهه الذي اجتاحته لحية غزاها الشيب وآثار الجدري. فأهالي الضيعة لم يلقوا عليه التحية منذ سنوات عديدة...

- إلى أين تذهب؟

- لا مكان بالتحديد. لقدخرجت من المدرسة، وكنت راغباً في التفكير، فمضيت أسير، مباشرة، أمامي.

لم يتمالك الحراس أنفسهم من التهكم حين لفظ الفتى كلمة "تفكير"، ولكن سيدهم نهرهم، وبادر قائلاً:

- إذا كنت غير مرتبط بموعد سابق، هلا شرفتني بزيارة؟

أجاب طانيوس بلباقة: "الشرف لي".

أمر الوكيل السابق موكبه المصعوق بالعودة، وأرسل أحد الخيالة إلى الوجيه الذي كان ذاهباً لزيارته:

– قل له إنني انشغلت بأمر طارىء، وأن الزيارة تأجلت إلى الغد.

لم يفهم رجال روكز كيف عدل عن رأيه حالما أخبره الغلام بأنه غير مشغول... فلم يكن بوسعهم إدراك مدى معاناة سيدهم بسبب نفيه عن الضيعة، وما يعني له أن يقبل أحد أبناء كفريبدا، وإن كان غلاماً، تحيته، ويطأ عتبة داره. فأجلسه في صدر الدار، وقدم له القهوة والحلوى، وروى له أحداث الماضي، وخلافه مع الشيخ، مذكراً بتحرش هذا الأخير بزوجته التي وافتها المنية بعيد ذلك، في عز شبابها، إثر ولادة ابنتهما الوحيدة، أسما التي استدعاها والدها وقدمها إليه، فضمها طانيوس إلى صدره كما يعانق الكبار الصغار.

كان "المنفي" يتكلم ويتكلم، ويده على كتف زائره المحترم، واليد الأخرى تلوح تأكيداً على كلامه:

– لا يمكن أن يكون جلُّ طموحك تقبيل يد ابن الشيخ كل صباح كما يقبل أبوك يد الشيخ. يجب أن تتعلم وتصبح ثرياً إذا أردت أن تعيش لنفسك. العلم أولاً، والمال ثانياً. وليس العكس. فحين تكسب المال، لن تملك لا الصبر ولا الصبا لتحصيل العلم. العلم أولاً، إنما الدراسة الحقيقية، وليس مدرسة ذلك الخوري الطيب! ثم تأتي للعمل معي. إنني أبني مزارع جديدة لتربية دود القز، وهي أكبر مزارع في الجبل، وليس لي ابن أو نسيب يرثني. لقد تجاوزت الخمسين، ولن يسنح لي الوقت، وإن تزوجت ثانيةً، وأنجبت الوريث الذي أرجو، لإعداده من أجل خلافتي. لقد وضعتك السماء على طريقي يا طانيوس...

ظل هذا الحديث يضج في ذهن طانيوس في طريق العودة إلى الضيعة. أشرقت أساريره. فقد كان لهذا النهار مذاق الانتقام. لا ريب أنه خان أهله بتحالفه مع المنبوذ، ولكن هذا الإحساس

بالخيانة كان يريحه. فمنذ أربعة عشر عاماً، كانت الضيعة بأسرها تتشارك في سرٍّ كان يجب أن يجهله وحده، سرٍّ مقيت، مع أنه لا يخص أحداً سواه،كان ينهش صدره! أما وقد تبدلت الأمور فجأة، فقد كان هو الذي يملك سراً استبعدت عنه الضيعة بكاملها.

لم يحاول تفادي البلاطة هذه المرة، بل أجبر نفسه على عبورها، بخطى مسموعة، ملقياً التحية بإيماءة خاطفة على الذين يصادفهم. وبعد أن تجاوز النبع، وراح يرتقي الدرجات التي تقود إلى القصر، التفت، وأجال بصره على الساحة، ولاحظ أن الناس احتشدوا فيها أكثر من المعتاد، وأن الأحاديث قد زادت حماساً.

خال للحظة أن " خيانته " قد ذاعت على كل شفة ولسان؛ ولكن الناس كانوا يعلقون على نبأ مختلف: فقد توفيت الشيخة إثر سقامها، وجاء رسول للإعلام بوفاتها في ذلك المساء، وكان الشيخ يتأهب للرحيل إلى الجرد العالي مع بعض الأعيان لحضور الدفن.

لم يتظاهر أحد في الضيعة بالحزن. لا ريب أن هذه المرأة قد تعرضت للخيانة، والمهانة، وكان زواجها مجرد محنة مذلة، ولكن لا أحد كان على استعداد، منذ " زيارتها " الأخيرة، لمسامحتها. فقد رأى الناس في البلاطة أن معاناتها بسبب زوجها خلال السنوات القليلة من حياتهما المشتركة كانت العقاب الذي تستحقه " شيخة الجراد"، وفي اللحظة التي كان يفترض فيها أن توارى الثرى، راحت بعض النساء في الضيعة يرددن هذا الدعاء البغيض: "الله يغمقلها!".

كان هذا الدعاء يقال همساً لأن الشيخ ما كان ليستحسن هذا التشفي. كان يبدو أكثر تعاطفاً ومهابةً في كل الأحوال. ولما أبلغه الرسول النبأ، استدعى وجهاء الضيعة، وأخبرهم:

- لقد أعطتكم زوجتي عمرها. أعلم أننا ذقنا الأمرين بسبب

ما ارتكبه أهل المرحومة، ولكن هذه الأمور يطويها النسيان أمام الموت. أريد أن ترافقوني لحضور المأتم، ولو تلفظ أحدهم هناك بكلمة غير لائقة، فلن نسمعها، بل سندير الأذن الصمّاء، ونؤدي واجبنا، ونعود أدراجنا.

استقبلتهم الجموع في الجرد العالي بفتور، ولكن لم يتعرض أحد منهم لاعتداء.

أعلن الشيخ لدى عودته الحداد لثلاثة أيام في القصر، للرجال في صالة الأعمدة، وللنساء في البهو الذي كانت الشيخة تجلس فيه محاطة بتلك القرويات اللواتي كن يحتمين بجوارها من تحرشات السيد، وكان البهو حجرة رحبة عارية الجدران، خالية من الأثاث إلا بعض المقاعد الوطيئة المغطاة بملاءات قطنية زرقاء.

ولكن من سيتلقى التعازي؟ يشرح لنا صاحب أخبار الجبل أنه "لم يكن للمرحومة في الضيعة آنذاك أم أو أخت أو كنة، وبالتالي كان على زوجة وكيل القصر الاضطلاع بدور المضيفة". ولا يعلق الراهب الطيب على هذا الأمر، بل يترك لنا تخيل الجو السائد حين توافدت نساء الضيعة، بحكم الواجبات الاجتماعية فحسب، متشحات بالسواد أو بالبياض، بدون حزن حقيقي، ودخلن إلى البهو، والتفتن إلى المكان الذي كانت تجلس فيه سيدة القصر، فاكتشفن أن لميا تجلس مكانها،، وتوجهن نحوها، وانحنين لتقبيلها قائلات: "الله يصبرك!"، أو " قلوبنا معك!"، أو أكذوبة أخرى للمناسبة. كم امرأة أحسنت أداء هذا الطقس المحفوف بالمخاطر برصانة ومهابة؟ لا يحدِّد الراهب عددهن. ولم يختلف الوضع في مجلس عزاء الرجال الذي لم ينخدع فيه أحد بمشاعر جاره، ولكن لا مجال للخروج عن المظاهر. إجلالاً للشيخ، بل ولابنه رعد الذي أحضره من الجرد العالي، وكان في

الخامسة عشرة، وهو الشخص الوحيد الذي كان في حداد عن حق. كان الأهالي - بل والده - يرمقونه كالغريب. وكان غريباً بالفعل، لأنه لم يرجع إلى الضيعة منذ عامه الأول، فأسرة والدته لم تشجعه على العودة إطلاقاً، ولم يصر الشيخ على هذه العودة خوفاً من "مرافقة" حماه للفتى. . .

كان اكتشاف ذلك الشاب محنة لأهالي كفريبدا. وكانت هذه المحنة تتجدَّد كلما نطق، وسمعوا لهجة الجرد، لهجة "الجراد" البغيضة. وهو أمر طبيعي لأنه عاش هناك طيلة تلك السنوات. وكان الناس يقولون: "الله وحده يعلم ماذا تخفي هذه اللهجة، وكل ما علمته والدته عن الضيعة". لم يفكر الأهالي بالأمر طالما كان رعد بعيداً عنهم، ولكنهم اكتشفوا الآن أن سيدهم، وقد ناهز الستين، قد يموت غداً، ويترك أراضيه ورجاله بين أيادٍ عدوة.

ولئن كانت المخاوف تساور الشيخ، فقد حرص على إخفائها، وكان يعامل ابنه مثل الرجل الذي أصبح، والوريث الذي سيكون. فأجلسه إلى يساره لتلقي التعازي، وكان يذكر له أحياناً أسماء المعزين، ويراقبه خلسةً للتحقق من التزامه بحركات والده، ومحاكاته لها

لم يكن استقبال كل زائر حسب مقامه كافياً، ، بل كان الأمر يتطلب كذلك مراعاة الاختلافات الدقيقة في المقامات. فمع المؤاكر بو ناصيف الذي حاول سابقاً الغش في حصص المحصول، كان الشيخ يتركه ينحني، ويحتضن يده بين يديه، ويطبع عليها قبلة طويلة، ثم ينهض. أما المؤاكر طوبيا، الخادم المخلص للأسرة الإقطاعية، فكان يجب أن يتظاهر الشيخ، ، بعد أن يقبل الرجل يده، بمساعدته على النهوض. وكان المؤاكر شلهوب، الرفيق القديم في الحرب والصيد، ينحني بدوره، إنما ببطء خفي، متوقعاً أن يسحب الشيخ يده ويساعده على النهوض،

ويعانقه عناقاً خاطفاً، فيذهب ويجلس وهو يفتل شاربيه. أما في ما يتعلق بالمؤاكر أيوب الذي اغتنى وشيَّد داراً في ديرون، فكان الأمر يقتضي كذلك مساعدته على النهوض، ومعانقته سريعاً، إنما بعد أن يكون قد لثم بشفتيه أصابع السيد.

هذا بالنسبة إلى المؤاكرين، وكانت العادات تتعدد مع أهالي الضيعة، والخوري، والأعيان، ورفاق السلاح، والأنداد، وخدم القصر... فمنهم من يجب مخاطبتهم باسمهم، ومنهم من تستدعي تعزيتهم عبارة تخصهم، ليست نفسها للجميع، بالطبع، ولا تلفظ بالنبرة عينها.

ومن ثم، هناك الحالات الأكثر خصوصية، كحالة نادر "البغال"، والبائع الجوال المطرود من القصر منذ أربع سنوات، الذي انتهز المناسبة للحصول على الصفح والمغفرة. فانضم إلى جموع المعزين، وقد أظهر تفجعاً أكثر من المطلوب؛ فتمتم الشيخ طويلاً في أذن ولده، ثم اقترب "البغال"، وانحنى، وأمسك بيد الشيخ، وأدناها من شفتيه، وأبقاها مطولاً.

لو كان سيد القصر يأبى مثل هذه المصالحة، وهذا أمر استثنائي في فترة حداد، لأشاح وجهه، متظاهراً بالحديث مع جريس الذي كان يقف وراءه، ولاستمر في تجاهل الرجل إلى أن ينصرف، أو "يُساعد" على الانصراف،، لكن الشيخ ما كان ليتصرف على هذا النحو إلا في حالة الخطأ الجسيم، كأن يأتي شخص مثل روكز الذي يعتبره لصاً وأفاقاً بهدوء للحصول على العفو بأرخص الأثمان. لم تكن غلطة نادر " من نفس العيار"، كما يقال في الضيعة؛ وبالتالي، وبعد أن ترك الشيخ نادر معلقاً بيده لثوان معدودة، ربت على كتفه وتنهد متعباً:

- الله يسامحك يا نادر، ولكن ما أطول لسانك!

- إنها خلقة ربنا يا شيخنا!

لقد ارتكب "البغال"، في نظر السيد، وقاحة خطرة. كان من زوار القصر الدائمين، وينتزع الإعجاب بحديثه وسعة علمه. فقد كان بالفعل من أفقه الرجال في الجبل، وإن كانت هيئته ومهنته لا توحيان بذلك إطلاقاً. كان يصيخ السمع عن طيب خاطر، في ترقبه الدائم لخبر أو كل جديد، إلى أكثر زبائنه علماً ومعرفة. ولكنه يشعر بمزيد من المتعة في الإصغاء إلى نفسه، فلا يكترث حينئذٍ لنوعية المستمعين.

يقال إنه كان يجلس أحياناً على ظهر دابته، وقد وضع كتاباً على رقبتها، ويسافر بهذه الوضعية. وحين يسمع بكتاب يثير اهتمامه، بالعربية أو التركية، وهما اللغتان الوحيدتان اللتان يقرأهما بطلاقة، كان على استعداد لدفع مبلغ باهظ من أجل اقتنائه. ويحلو له القول إنه لم يتزوج لهذا السبب، لأن ما من امرأة ترضى برجل ينفق على شراء الكتب كل غرش يكسبه، بينما كانوا في الضيعة يتحدثون عن حبه للغلمان، ولكنه لم يضبط قط متلبساً بالجرم المشهود. وفي كل الأحوال، لم يخاصمه الشيخ بسبب تلك الميول الخفية بل بسبب الثورة الفرنسية.

كان نادر، منذ نعومة أظفاره، معجباً أشد الإعجاب بهذه الثورة، وبالمقابل، كان الشيخ وكل أنداده يرون فيها مجرد فظاعة، وضلال عابر لحسن الحظ؛ ويقولون إن " أصدقاءنا الفرنسيين " قد فقدوا صوابهم، ولكن الله سرعان ما أرجعهم "لنا" إلى الصراط المستقيم. وقد ألمح "البغال" مرة أو مرتين إلى إلغاء الامتيازات، فرد الشيخ بنبرة مبهمة، تتراوح بين الضحك والجد، واعتبر زائره أنه قد أعرب عن موقفه. ولكن نادر، ، إذ مضى في أحد الأيام لبيع بضاعته لدى ترجمان قنصلية فرنسا، سمع خبراً عظيماً لم يقو على الاحتفاظ به لنفسه. كان ذلك في عام 1831، وفي السنة السابقة، تغير الحكم في فرنسا، واعتلى لويس-فيليب العرش.

- لن يفطن شيخنا قط إلى ما رواه لي أحد الفرنسيين الأسبوع الماضي.

- أفرغ ما في جعبتك يا نادر!

- كان والد ملك فرنسا الجديد من أنصار الثورة، بل لقد صوَّت لصالح إعدام لويس السادس عشر!

كان "البغال" واثقاً من تسجيل نقطة في سجالهما الذي لا ينتهي. وكان وجهه السمين الحليق يلمع فرحاً. ولكن الشيخ لم يأخذ المسألة بمرح، بل نهض وصرخ:

- لا تلفظ في داري مثل هذا الكلام. أغرب عن وجهي، ولا تعد إلى هذا البيت ثانيةً!

لماذا هذا الموقف؟ ظل جبرايل الذي نقل لي هذه الواقعة في حيرة. لا بد أن الشيخ قد اعتبر كلام نادر غير لائق ووقحاً، لا بل مغرضاً في حضور رعاياه. هل كان الخبر نفسه الذي هاله؟ هل اعتبره مهيناً لملك فرنسا الجديد؟ هل كانت النبرة التي بدت له مهينة؟

لم يجرؤ أحدهم على سؤاله، و"البغال" أقل من غيره، ولعله عض أصابعه ندماً لأن هذه الضيعة كانت ضيعته، وفيها بيته وكتبه، والشيخ من أكثر زبائنه سخاءً. فانتهز العزاء ليأتي طالباً العفو والمغفرة.

لم أذكر حتى الآن أهم تفصيل حول هذا الرجل، فهو مؤلف الكتاب الوحيد الذي يتضمن تبريراً منطقياً لاختفاء طانيوس الكشك.

كان نادر معتاداً على تدوين ملاحظات وحكم من تأليفه على كراس، مسهبة أم مقتضبة، صريحة أم مبطنة، ينظمها عادةً في أبيات شعرية أو في نثر لا يخلو من بعض التكلف.

يستهل نادر الكثير من نصوصه بالعبارة التالية: "قلت

لطانيوس"، أو " قال لي طانيوس"، ولا ندري إذا كان هذا الأسلوب حيلة من حيل التقديم أم محضر لأحاديث جرت فعلاً.

لا شك أن هذه الكتابات لم تكن معدَّة للنشر، وقد عثر عليها أستاذ جامعي، بعد وفاة نادر، ونشرها تحت عنوان نقلته كما يلي: "حكمة البغّال"، وسوف ألجأ إلى هذه الشهادة الثمينة في أغلب الأحيان.

III

فور حصول البغّال على الصفح، جلس بجوار طانيوس، هامساً في أذنه:

- اللعنة على هذه الحياة القذرة! يجب أن نقبل الأيادي للحفاظ على لقمة العيش!

وافق طانيوس على كلامه خفيةً. وكان قد توصل إلى الخلاصة نفسها، وهو يشخص إلى الثلاثي المؤلف من الشيخ، وابنه، وجريس الذي يقف وراءهما، وتساءل إن كان سيجد نفسه، بعد سنوات، في موقع الوكيل، يطأطئ الرأس، مبجلاً، رهن إشارة رعد. فأقسم في قرارة نفسه: "الموت أهون!"، وارتعشت شفتاه لشدة ما احتدم غيظاً.

انحنى عليه نادر:

- الثورة الفرنسية، إنها لظاهرة عظيمة، تخيل أن تطيح رؤوس كل هؤلاء المشايخ!

لم يعلق طانيوس. كان البغّال يتململ في مقعده، كأنه يتأرجح على ظهر دابته التي تتقدم ببطء. وكان يلوي عنقه كالعظاية، متأملاً في آنٍ السجاد على الأرض، والأقواس في السقف، وأهل الدار، والزوار، موزعاً حوله الغمزات واللمزات. ثم انحنى ثانية على جاره الشاب:

- ألا يبدو أبن الشيخ أرعن بعض الشيء؟

ابتسم طانيوس، ولكنه أرفق ابتسامته بتحذير:

- سوف تطرد للمرة الثانية!

في هذه اللحظة، التقت عينا الفتى بعيني جريس الذي أومأ له أن يقترب ويكلمه:

- لا تبق جالساً قرب نادر! إذهب لترى إن كانت أمك بحاجة إلى مساعدة!

وفيما كان طانيوس يتردد بين الامتثال أو المعاندة والعودة إلى مكانه، سمعت جلبة في الخارج. وجاء من يهمس في أذن الشيخ الذي توجه نحو الباب، مشيراً إلى رعد ليسير في أثره. فلحق بهما جريس.

كان شخصاً من علية القوم قد وصل، والعادة تقتضي الذهاب لملاقاته. كان سعيد بك، الزعيم الدرزي من ضيعة السهلين، مرتدياً عباءة طويلة ذات تقليمات عريضة، تنسدل من كتفيه إلى كاحليه، وتضيف المهابة على وجهه المزين بشاربين أشقرين.

وكما تقتضي العادة، بدأ الزائر بالقول:

- لقد ذاع الخبر، وعسى ألا يكون صحيحاً!

فأجاب الشيخ كما هو معهود:

- لقد شاء الرب أن يجرِّبنا.

- إعلم أن لديك إخوة يشدُّون أزرك في المحن والشدائد.

- منذ عرفتك يا سعيد بك، وكلمة جار أحب إلى قلبي من كلمة أخ.

لم تكن عبارات مجاملة فحسب، ذلك أن الشيخ لم يواجه المتاعب إلا مع الأقربين، فيما لم تشهد علاقته مع جاره أية منغصات منذ عشرين عاماً. تأبط كل منهما ذراع الآخر، ودخلا معاً.

أجلس الشيخ ضيفه إلى يمينه، وقدمه إلى رعد قائلاً:

- إعلم أن لديك أباً ثانياً سوف يرعاك يوم مماتي!

- أطال الله عمرك، يا شيخ فرنسيس!

كانت عبارات مجاملة أخرى. وأخيراً، تطرق الرجلان إلى بيت القصيد، إلى ذلك الشخص الغريب الذي كان يقف منزوياً، والحضور جميعهم يتفحصونه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. وقد وصل خبره حتى إلى جناح النساء فتسارعن لمشاهدته. لم يكن ملتحياً أو بشاربين، ويعتمر قبعة مسطحة تغطي رقبته وأذنيه، وكان المشيب قد وخط بعض خصلات شعره التي تجاوزت اللون الرمادي لتغدو بيضاء تقريباً.

أشار إليه سعيد بك ليقترب:

- هذا الرجل المحترم الذي يرافقني هو قس إنكليزي. ولقد حرص على تأدية الواجب في هذا المصاب الأليم.

- أهلاً وسهلاً به!

- جاء يقطن في السهلين مع زوجته، وهي سيدة فاضلة، ولم يجلب لنا حضورهما بين ظهرانينا سوى البهجة.

أعلن القس الإنكليزي بالعربية المنمقة التي يتكلمها المستشرقون:

- إن دمك النبيل هو لسان حالك يا سعيد بك!

فشرح سعيد بك، وقد لمح نظرة الإعجاب في عيني الشيخ:

- لقد عاش المحترم سبع سنوات في حلب، وبعد أن عرف هذا البلد الجميل، اختار القدوم للعيش في ضيعتنا المتواضعة، عوضاً عن السفر إلى اسطمبول أو لندن، وسوف يجزيه الله خيراً على هذه التضحية!

كان القس يهم بالرد حين أشار الشيخ له بالجلوس. لم يجلسه بقربه، ولا عجب في ذلك نظراً للطابع الاستثنائي الذي

تكتسبه هذه الزيارة، ولكن أبعد بقليل، على الطرف. وفي الواقع، كان الشيخ على علم بما سمع لتوه، لأن كل ما يجري في السهلين كان يعرف في كفريبدا قبل حلول المساء، وقدوم رجل إنكليزي، سواءً كان قساً أم لا، للعيش في الضيعة، ليس حدثاً عادياً. وكان الشيخ يرغب بالاستفسار دون أن يسمع القس الحديث. فألصق رأسه برأس سعيد بك، وتسنى لكل الجالسين أن يتحققوا من عمق صداقة الرجلين:

- قيل لي إنه يعتزم إنشاء مدرسة.

- أجل، لقد منحته مقراً، فليس لدينا مدرسة في السهلين، وكنت أرغب بإنشاء واحدة منذ بعض الوقت. سوف يرتادها أبنائي، فقد وعد بتعليمهم الإنكليزية والتركية إلى جانب الشعر العربي والبلاغة. لا أريد أن أتحدث بالنيابة عنه، ولكني أعتقد أنه يتمنى أن يرتاد ابنك أيضاً مدرسته.

- ألا يسعى إلى حمل أبنائنا على تغيير دينهم؟

- لا، لقد تناقشنا في الأمر، وقد قطع لي وعداً.

- أنت تثق به إذن.

- أثق بذكائه، فلو حاول أن يفعل ذلك، سوف يطرد من الضيعة في الحال، فلماذا يرتكب هذه الحماقة؟

- لن يجرؤ على تغيير دين أبنائك وابني، هذا صحيح. ولكنه قد يرغب بالتبشير في أوساط الفلاحين.

- لقد قطع لي وعداً بهذا الشأن أيضاً.

- ومع من سوف يبشر إذن؟

- لا أدري، بعض أبناء التجار، وبعض الأرثوذكس... وهناك يعقوب اليهودي وعائلته.

- لو نجح في هداية خياطي، يكون قد حقق إنجازاً

عظيماً... لست أكيداً أن الأمر سيروق لبونا بطرس، فاليهودي أفضل عنده من المهرطق!

كان الخوري قد بقي في مجلس العزاء طيلة الصباح، ثم انصرف، قبل ساعة، مستأذناً الشيخ والحضور. ولكنه عاد بعد حين، فلا بد أن أحدهم حذره من دخول الذئب إلى الحظيرة، فهرع على الفور، وعاود الجلوس في مكانه، محملقاً إلى القس وقبعته الغريبة بدون حياء.

تابع سعيد بك: "في الواقع، لا أظن أن المحترم يسعى إلى حمل الناس على تغيير دينهم".

علق الشيخ، وقد فوجىء للمرة الأولى: "- آه، هكذا إذن".

- كل ما يريد ألا نحذر منه، ولن يقدم على ما يسبب لنا الإحراج.

انحنى الشيخ أكثر على صديقه:

- لعله جاسوس.

- خطر لي ذلك أيضاً، ولكننا لا نملك أسرار السلطان في السهلين. ولن يكتب لقنصله أن بقرة حليم قد وضعت توائم!

راح الصديقان يضحكان، وهما يطلقان زفيراً متقطعاً، مع الضغط عليالشفتين والفكين للاحتفاظ بها في وضعية الحداد إلى درجة الشعور بالألم.

وتلاقت نظراتهما بنظرات القس الذي وجه لهما ابتسامة لبقة، فردا عليها بإيماءات متسامحة.

لما نهض سعيد بك بعد ساعة للانصراف، بادره الشيخ قائلاً:

- يروق لي مشروع القس. سوف أفكر بالأمر. اليوم الثلاثاء... ولو جاء لزيارتي صباح الجمعة، فسوف أبلغه قراري.

- لا تستعجل، يا شيخ فرنسيس، سوف أطلب منه أن يعود لاحقاً، لو شئت.

- لا، لا داعي للتأجيل، فسوف أكون قد حسمت أمري مساء الخميس، وأبلغه بما قررت بالتأكيد في اليوم التالي.

لما عاد الشيخ إلى مكانه، بعد مرافقة هذين الزائرين الجليلين إلى مدخل القصر، احتلَّ الخوري مكان الشرف بجواره.

- قس إنكليزي في ضيعتنا! "عيش كتير بتشوف كتير"، كما يقول المثل، يجب أن أعود بالماء المبارك لتطهير القصر قبل أن تلم بنا مصائب أخرى.

- على رسلك، يا بونا! لا تهدر ماءك. سوف يعود القس لزيارتي يوم الجمعة، ويمكنك أن تحضر غصن الزوفى بدلاً من أن تتجشم العناء مرتين!

- لقد جاء اليوم، وسوف يعود بعد ثلاثة أيام!

- أجل، لا بد أن مناخ القرية يلائمه.

راح الخوري يتنفس بملء منخريه.

- هل يكون هواؤنا ممزوجاً بالبارود؟

- أنت مخطىء يا بونا، يبدو لي رجلاً ورعاً.

- وماذا جاء يفعل، هذا الرجل الورع؟

- يقدم العزاء، مثل جميع الناس.

- ويوم الجمعة، لماذا سيعود؟ ألتقديم العزاء ثانية؟ هل يتوقع موتاً ثانياً؟ موتي، ربما؟

- لا قدر الله! سوف ينشىء هذا الرجل مدرسة في السهلين...

- أعلم ذلك.

-... وقد جاء فقط ليقترح عليَّ إرسال إبني إلى مدرسته!

- فقط لا غير؟ وماذا قال شيخنا؟

- أنني سأفكر بالأمر حتى مساء الخميس، و أبلغه قراري يوم الجمعة.

- ولماذا الانتظار حتى مساء الخميس؟

كان الشيخ يبتسم ابتسامة ساخرة خفيفة حتى ذلك الحين، فقد كان يتسلى بمناكدة الخوري. ولكن سحنته تجهمت فجأة.

- سوف أشرح لك كل شيء يا بونا، فلا تلومني غداً على مباغتتك. لو لم يأت سيدك يوم الخميس، عند المغرب، لتقديم العزاء، فسوف أرسل إبني إلى مدرسة الإنكليز.

لم يكن البطريرك قد زار الضيعة منذ أربعة عشر عاماً، أي منذ ولادة طانيوس. لقد تعاطف مع الشيخة حتى النهاية، ربما لأنه اتهم بمسؤوليته عن زواجها الفاشل، ولأنه كان مستاءً من الشيخ لزجِّه في هذا المأزق. ولقد أظهر انحيازاً في هذا الخلاف، ولامبالاةً بآلام القرويين خلال حملة أهالي الجرد العالي، فلقِّب كمحميته " بطريرك الجراد"، بدون مراعاةٍ للحيته البيضاء، فأقسم ألا تطأ قدماه كفريبدا ثانيةً.

تقبل الأهالي غيابه، بل كان من المستحسن القول إن الجميع بغنى عنه، سواءً في عيد الصليب، أو في احتفالات سر الميرون التي يفترض فيها أن تترك صفعة البطريرك على وجوه الصبيان أثراً لا ينسى، فكانت صفعة بونا بطرس تفي بالغرض. ولكن هذه اللعنة كانت تنوء بوطأتها على كاهل المؤمنين. وكلما مات أحدهم، أو مرض، أو خسر محصولاً - وهي مصائب عادية تدفع بالناس إلى التساؤل " ماذا فعلنا للرب؟ " - يرجع الخلاف مع البطريرك كالسكين الذي ينكأ جرحاً قديماً. ألم يحن الوقت لإنهاء الخصومة؟ أليس هذا الحداد المناسبة الملائمة للمصالحة؟

أثناء تأبين الشيخة، في الجرد العالي، توجه البطريرك الذي كان يرأس القداس، في المدفن، بكلمة عزاء إلى كل فرد من أفراد أسرتها، باستثناء الشيخ الذي تناسى أحقاده وأحقاد ضيعته وانضم إليهم، فقد كان زوج المرحومة بالرغم من كل ما حصل.

شعر الشيخ بالإهانة لا سيما أن أسرة زوجته وأعيان كفريبدا كانوا شاهدين على هذا الإزدراء، وقصد على الفور قوَّاس البطريرك، وأعلن، بنبرة لا تخلو من الوعيد، أنه ينوي إقامة العزاء لثلاثة أيام في القصر، ويتوقع زيارة سيدنا، وإلا . . .

وطوال يوم العزاء الأول، وفيما المعزون يمرون أمامه، كان سؤال واحد يقض مضجع الشيخ: "هل سيأتي؟"، وقد كرر الوعيد للخوري:

- إذا لم يأت سيدك، فقد أعذر من أنذر. . .

اختفى بونا بطرس عن الضيعة يومين. وقام بمسعى أخير لم يؤت ثماره، وعاد معلناً أن سيدنا يقوم بجولة في قرى الجرد العالي، وأنه لم يتمكن من لقائه. ولعله التقى به ولم يفلح في إقناعه. وفي جميع الأحوال، حين غادر الشيخ مساء الخميس مجلس العزاء محاطاً بآخر المعزين، لم يكن أي تاج بطريركي قد لاح في الأفق.

أمضى الخوري ليلة مؤرقة، فقد كان جسده منهكاً بعد يومين من السفر على ظهر دابته بدون جدوى، لم ينجحا في تبديد هواجسه.

وأسر للخورية: "يعرف المرء أين تمضي هذه الدابة، ولن يخطر لها أن تمضي قدماً نحو الهاوية. أما هذا الشيخ وذاك البطريرك، فيحملان كل المسيحيين على ظهرهما، ويتعاركان كالتيوس".

أجابت زوجته: "إذهب للصلاة في الكنيسة. ولو أكرمنا الرب، فسوف يُسكن بغلاً في القصر غداً، وبغلاً آخر في البطريركية".

العبور الرابع

مدرسة القس الإنكليزي

يسرني التأكيد، رداً على رسالتكم، أن المدعو طانيوس جريس من كفريبدا كان في عداد أوائل التلامذة المنتسبين إلى مدرسة السهلين.

لقد استقر مؤسس مدرستنا، القس جيريمي ستولتون في الجبل مع زوجته في أوائل عام 1830، ويوجد في مكتبتنا صندوق صغير يضم محفوظاته، ولا سيما، يومياته التي تتخللها تعليقات مختلفة، وكذلك بعض الرسائل. ولو شئت الرجوع إليها، فلا مانع عندنا، وإنما يجب أن تعرف بأننا لن نقبل إخراجها من حرم المدرسة...

من رسالة المحترم إسحق
المدير الحالي لمدرسة السهلين الإنكليزية

I

لا بد أن بونا بطرس لم يرفع الصلوات بما يكفي من الورع، فحين دخل بلحيته المشعثة صباح اليوم التالي، إلى قاعة الأعمدة، كان الشيخ ما زال موجوداً، لم يتحول لباسه إلى سرج، ولم تثقب أذناه أعلى قلنسوته، ولم تتطاول شفتاه وفكاه تحت شاربيه الأشيبين. . .

كان يبدو أنه قد استيقظ باكراً، ولعل النوم جفاه بسبب الهموم التي تقض مضجعه. وكان جريس وبعض الأهالي يجلسون قربه. فألقى الخوري التحية بحركة نزقة، وجلس قرب المدخل.

ناداه الشيخ، وهو يكاد يصرخ بنبرة بشوشة: "- بونا بطرس، تعال واجلس بجانبي، فأبسط الإيمان أن نستقبله معاً".

تفاءل الخوري للحظات، فلعل الرب قد استجاب لإحدى صلواته الكثيرة!

- سوف يأتي إذن!

- بالطبع، سوف يأتي. وها هو قد وصل.

خاب ظن الخوري، فلم يدخل البطريرك بل القس. ألقى التحية على مضيفه ببعض العبارات العربية المنمقة، أمام أنظار القرويين المذهولة. ثم جلس بناء على إشارة الشيخ.

- لقد أحسنت السماء صنعاً يا بونا، فقد جلس المحترم في المكان الذي غادرته للتو.

ولكن الخوري لم يكن بمزاج يسمح له بتقبل الدعابة، فرجا الشيخ أن يحدثه على انفراد في الليوان.

- أفهم أن شيخنا قد اتخذ قراره.

- لقد اتخذه البطريرك عني، وقد بذلت ما بوسعي، وضميري مرتاح. أنظر إليَّ، هل ترى في عيني أنني أمضيت ليلة مؤرقة؟

- لعلك بذلت ما بوسعك، بخصوص سيدنا. ولكن، هل تقوم نحو ابنك بكل ما يمليه عليك الواجب؟ هل سيكون ضميرك مرتاحاً حقاً حين ترسله إلى هؤلاء القوم الذين سوف يحملونه على قراءة إنجيل زائف، والذين لا يحترمون لا العذراء ولا القديسين؟

- لو كانت مشيئة الرب ألا أتخذ هذا القرار، لأعطى للبطريرك الأمر بإظهار لحيته خلال العزاء!

كان بونا بطرس يغتاظ حين يتكلم الشيخ على اللحى، ويأتي على ذكر الله، لأن أقواله تفرط في رفع الكلفة، فانبرى للقول بمهابة:

- يحدث أحياناً أن يهدي الرب خلقه إلى طريق الضلال.

فتساءل الشيخ بنبرة متكلفة: "- وهل هذا ما فعله مع سيدك؟"

- لم أكن أقصد البطريرك فحسب!

رجع الشيخ والخوري إلى قاعة الأعمدة بعد انتهاء خلوتهما. وكان القس ينتظرهما ببعض القلق. ولكن مضيفه هدأ من روعه على الفور:

- لقد حسمت أمري. سوف ينتسب إبني إلى مدرستك أيها المحترم.

- وسوف أكون عند حسن ظنك.

- يجب أن تعامله كسائر التلاميذ، بدون مراعاة خاصة، ولا تتردد في تأديبه إذا كان يستحق التأديب. ولكن لدي شرطين، وأطلب منك أن تتعهد أمام الشهود. الشرط الأول ألا تذكر أمامه مسألة الدين، فسوف يبقى على دين أبيه، ويذهب كل يوم أحد عند بونا بطرس الحاضر بيننا لتلقي التعاليم الدينية.

قال القس: "أتعهد لك بذلك كما فعلت مع سعيد بك".

- والشرط الثاني أن إسمي الشيخ فرنسيس، وليس الشيخ إنكليز، وأحرص على أن تضم مدرستك معلماً للغة الفرنسية.

- أعدك بذلك أيضاً يا شيخ فرنسيس. البلاغة، والشعر، والخط، والعلوم، والتركية، والفرنسية، والإنكليزية. وكل يبقى على دينه.

- على بركة الله. وأتساءل إن كان بونا بطرس لا يفكر الآن بإرسال أبنائه إلى مدرستكم أيها المحترم...

غمغم الخوري، وهو يصرُّ على أسنانه: "يوم ينضج التين في كوانين".

ثم نهض، وغرز قلنسوته على رأسه، وانسحب.

تابع الشيخ قائلاً: "بانتظار هذا النوع من التين، أعرف صبياً سوف يسر بمرافقة ابني إلى هذه المدرسة. أليس كذلك يا جريس؟"

وافق الوكيل، كالعادة، وشكر سيده على عطفه الدائم نحوه ونحو عائلته. ولكنه كان شديد التحفظ في قرارة نفسه. فسوف يقوم على مضض بإخراج طانيوس من مدرسة عديله الخوري، وإرساله إلى هذا الإنكليزي، والمجازفة بإغضاب الكنيسة. ولكنه لا يستطيع معارضة مشيئة السيد، ورفض الحظوة التي يمنحه إياها.

ولكن جريس نسي تحفظاته لدى رؤية موقف الصبي. فلما نقل إليه اقتراح الشيخ، أشرقت أساريره، واعتبرت لميا أن الفرصة مؤاتية لإعادة بعض الدفء إلى أسرتها:

- ألن تقبِّل والدك على هذا الخبر؟

قبَّله طانيوس، وكذلك قبَّل والدته، كما لم يفعل منذ الحادثة قرب النبع.

ولكنه لم يتراجع عن تمرده، بل على العكس، فالإحساس الذي انتابه بسبب كلام مجنون الضيعة، ثم زيارته لروكز المنبوذ، قد أطلقا العنان لحياته. كما لو أن السماء كانت تترقَّب من جانبه فعلاً إرادياً لتشرِّع أمامه السبل... لم يكن ذاهباً إلى مدرسة القس بل إلى مشارف الكون الفسيح الذي سوف يتكلم قريباً لغاته ويكشف أسراره.

كان ما زال حاضراً أمام لميا وجريس، ولكنه أضحى بعيداً، يتأمل المشهد الذي يعيشه كأنه يستحضره من الذاكرة، ويبحر بعيداً عن هذا المكان، بعيداً عن جذوره ومنغصاته، بعيداً عن أكثر شكوكه حدةً.

في هذه اللحظة، وعلى بعد رواقين، في مبنى القصر الرئيس، كان الشيخ يسعى جاهداً لإقناع ابنه بأنه ليس في الأمر مذلة، وإن كان قد بلغ الخامسة عشرة، أن يذهب لتعلم أمور غير الرماية وركوب الخيل.

- هبْ أنك تسلمت يوماً، كما جرى لجدنا الأكبر، كتاباً من ملك فرنسا...

- سوف أطلب من أمين سري ترجمته...

- وماذا لو كانت رسالة سرية، هل يقتضي الحذر حقاً أن يطلع أمين سرك على فحواها؟

لم يلبث القس ستولتون أن لاحظ الفرق بين هذين التلميذين

اللذين كانا يصلان كل صباح من كفريبدا، بعد رحلة تستغرق قرابة الساعة على طريق قادومية عبر غابة الصنوبر، وفي يومياته لعام 1835، يمكن قراءة هذه الملاحظة: "طانيوس. نهم شديد للمعرفة وذكاء حاد تعترضه تقلبات روح معذبة." ثم، يضيف، بعد صفحتين: "كل ما يستحوذ اهتمام رعد هو احترام مقامه. ولو خاطبه أحد المدرسين أو التلاميذ، في أي وقت من أوقات النهار، ولم يلفظ لقب " شيخ"، يتصرف كما لو أنه لم يسمع، أو ينظر خلفه باحثاً عن الوضيع الذي قد يكون الكلام موجهاً له. وأخشى أنه ينتمي إلى أكثر فئة من التلاميذ مدعاة لليأس، تلك التي يبدو أن شعارها هو التالي: "علمني إذا كنت قادراً!" Teach me if you can، ولن يخطر لي الدفاع عن بقائه في هذه المدرسة لو كانت الاعتبارات الدراسية هي المعيار الوحيد الذي يجب أن آخذه في الحسبان".

تكاد تكون هذه الملاحظة الأخيرة اعترافاً، لأن القس، وإن كان يهتم اهتماماً صادقاً بتهذيب العقول الشابة، فهو لم يكن لامبالياً بسياسة ملك بريطانيا في المشرق.

كيف يمكن لتعليم فتى في إحدى قرى الجبل أن يكتسب أهمية بنظر دولة أوروبية عظمى؟ لا أستغرب أن يضحك المرء أو يتساءل - فلطالما كنت مصراً على هذا الموقف قبل الرجوع إلى الوثائق. ولكن الأحداث تتكلم من تلقاء نفسها: فوجود هذين الغلامين في مدرسة القس ستولتون كان معروفاً، بل لقد خضع لنقاش حامي الوطيس في مكتب اللورد بونسونبي، السفير الإنكليزي لدى الباب العالي، وفي باريس كذلك، بدون شك، في مجلس النواب الفرنسي، بمبادرة من ألفونس دو لامارتين - "وقد علّق "الأستاذ" جبرايل مستهجناً: "هذا ما حدث بالضبط، لم يسمع رعد البليد قط بمعاصره لامارتين على الأرجح، ولكن لامارتين سمع برعد!".

بأية أعجوبة؟ يجب القول إن القنصليات الأوروبية كانت منشغلة في تلك السنوات بحدث استثنائي: فقد باشر محمد علي باشا، والي مصر، بناء دولة قوية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، سوف تمتد من البلقان إلى مصب النيل، وتسيطر على طريق الهند.

كان الإنكليز لا يريدون أن يتحقق ذلك المشروع بأي ثمن، وعلى استعداد لبذل كل ما بوسعهم من أجل عرقلته. أما الفرنسيون فكانوا، على العكس، يرون في محمد علي الرجل المخلص الذي سوف يخرج المشرق من حالة السبات التي يعيش فيها، ويبني مصراً جديدة، محتذياً بالضبط النموذج الفرنسي. فقد استقدم أطباء ومهندسين فرنسيين، بل عين قائداً لأركان جيشه ضابطاً سابقاً في جيش نابوليون. وقد ذهب بعض الطوباويين الفرنسيين للعيش في مصر على أمل بناء أول مجتمع اشتراكي فيها، وهم يحملون مشاريع فريدة، كمشروع شق قناة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر. لقد كان هذا الباشا يتمتع بالتأكيد بكل ما ينتزع إعجاب الفرنسيين. ومن ثم، لو كان يزعج الإنكليز إلى هذا الحد، فلا يمكن أن يكون بهذا القدر من السوء، وبالتالي، لا يجب أن تتخلى عنه لندن.

في صراع الجبابرة هذا، ما هو الوزن الذي قد يحتله أهالي ضيعتي، وبصورة غريبة، تلميذا القس الإنكليزي؟

أكثر مما يتخيل المرء. فلكأن اسميهما محفوران على ذراع الميزان، ويكفي الانحناء قليلاً لقراءتهما. وهذا ما فعله اللورد بونسونبي. فقد انحنى على الخريطة، ثم وضع إصبعه على مكان محدد: في هذا المكان، سوف تقوم إمبراطورية محمد علي أو لا تقوم، وهنا سوف تجري المعركة!

لقد كان لهذه الإمبراطورية الناشئة جناحان: الأول في الشمال

- البلقان وآسيا الصغرى -، والثاني في الجنوب - مصر وتوابعها. وبين الإثنين، صلة واحدة، عبر الخط الساحلي الطويل الذي يمتد من غزة إلى اسكندرون، مروراً بحيفا، وعكا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، واللاذقية. ويتعلق الأمر بشريط يقع بين البحر والجبل. ولو أفلت الجبل من سيطرة الوالي، سوف تصبح هذه الطريق غير سالكة، وينفصل الجيش المصري عن خطوطه الخلفية، وتنشطر الإمبراطورية الجديدة إلى شطرين، وتولد ميتة.

وبين عشية وضحاها، صارت كل القنصليات تشخص إلى هذه البقعة الجبلية التي لم يسبق أن استقبلت هذا الكم من المبشرين، والتجار، والرسامين، والشعراء، والأطباء، والسيدات الغريبات الأطوار، وهواة الآثار القديمة. كان أهل الجبل يشعرون بالزهو، وحين أدركوا لاحقاً أن الإنكليز والفرنسيين يتناحرون على أرضهم لكي لا يضطروا للمواجهة المباشرة، تعاظم زهوهم. كان امتيازاً مدمراً ولكنه يبقى امتيازاً في كل الأحوال.

كان هدف الإنكليز واضحاً: تحريض الجبل على التمرد ضد المصريين الذين كانوا يسعون، بمساعدة الفرنسيين، للحؤول دون حدوث ذلك.

" عندما وصلت الجيوش المصرية إلى مشارف بلدنا"، كما يروي كتاب أخبار الجبل، " أرسل قائدها رسولاً إلى الأمير يطلب منه الإنضمام إليه. وحاول الأمير المماطلة، إذ رأى أن الحكمة لا تقتضي الانحياز في هذا الصراع الذي يتجاوز بكثير حدود إمارته الصغيرة وقواته المتواضعة، فأرسل له القائد رسالة ثانية هذا فحواها: "إما أن تنضم إليَّ مع جندك، أو أشن عليك هجوماً، وأدمِّر قصرك، وأزرع مكانه شجر التين!".

اضطر المسكين للإذعان، وأصبح الجبل خاضعاً للحكم المصري. ولا يظنن البعض أنه مسكين بالفعل، فقد ظل رجلاً

مرهوب الجانب، ترتعد فرائص الفلاحين والمشايخ لمجرد ذكر اسمه، ولكنه كان هو الذي يرتعد خوفاً أمام الباشا وممثليه.

كان محمد علي يأمل أن يصبح سيد البلاد بحصوله على تأييد الأمير. ولربما تحقق ذلك في بلدان أخرى، ولكن ليس في هذا البلد. لقد كان للأمير سطوة، لا ريب، ونفوذ، ولكن الجبل لا يقتصر على شخصه. كان يضم طوائف دينية لكل منها كهنتها وزعماؤها وأعيانها، وكذلك أسرها العريقة وصغار الإقطاعيين. وكانت ساحاته تضج بالشائعات والخلافات. فالشيخ على خلاف مع البطريرك، والبطريرك مقتنع بأن الشيخ قد أنجب طفلاً من لميا التي ما زالت تعيش في القصر، وفي ظل هذه الظروف، يرفض البطريرك أن يزور القصر، وقد أرسل الشيخ إبنه، تأكيداً على أن رجلاً في مثل مقامه لا يعامل بهذا الشكل، بدافع الاستفزاز، إلى مدرسة القس الإنكليزي!

عندما انحنى اللورد بونسونبي على هذه البقعة الصغيرة من الخريطة، لم يشرح له أعوانه الأمور بكل هذه التفاصيل، مكتفين بإعلامه أن الطائفة الدرزية المعادية للأمير منذ أن أمر بقتل أحد كبار زعمائها، أصبحت مستعدة للتمرد عليه وعلى حلفائه المصريين، ولكن مثل هذا العصيان لن يتكلل بالنجاح ما لم يشارك فيه المسيحيون الذين يشكلون أغلبية السكان.

استفسر السفير: "ألم تتمكن جماعتنا من القيام بخطوة باتجاه المسيحيين؟"

فذكروه بأن الإنكليزي يعتبر مهرطقاً قبل كل شيء لدى هذه الطائفة الكاثوليكية بمعظمها.

- لم يفلح أي من جماعتنا في إقامة اتصالات ذات أهمية تذكر... باستثناء قس واحد افتتح مدرسة.

- مدرسة تابعة لنا في قرية كاثوليكية؟

- لا، هذا مستحيل، فلسوف يطرد في الحال، أو يأتي حريق على مدرسته. لا، لقد استقر على أراضي زعيم درزي عجوز، هو سعيد بك، ولكنه استطاع أن يضم إلى مدرسته تلميذين كاثوليكيين، أحدهما إبن شيخ كفريبدا.

- كفر ماذا؟

تطلب الأمر إحضار خريطة أكثر تفصيلاً لقراءة إسم كفريبدا، وإسم السهلين، بواسطة عدسة مكبرة.

علق اللورد بونسونبي: "هذا مثير للاهتمام".

لم يذكر السفير في التقرير الذي رفعه إلى وزارة الخارجية إسم كفريبدا، بل تحدث عن " بوادر مشجعة". فانتساب سليل إحدى أعرق الأسر الكاثوليكية، وهي أسرة تتفاخر منذ ثلاثة قرون بعلاقاتها مع فرنسا، إلى مدرسة القس الإنكليزي، لهو نجاح بالفعل، بل واختراق.

وبالطبع، لم يكن من الوارد أن يطرد الشيخ رعد بسبب علامة سيئة!

II

لم يكن أحد في المعسكر الآخر يريد أن يأخذ الأمور على محمل الجد كاللورد بونسونبي. فلا الأمير، ولا السيد غيز، قنصل فرنسا، ولا سليمان باشا الملقب بأوكتاف جوزف دو سيف، حاكم بيروت باسم مصر. لقد كانوا جميعاً يخوضون صراعاً بارزاً، ولا أحد منهم يملك وقتاً يخصصه لهذا الخلاف القروي. لا أحد باستثناء البطريرك. كان وحده يردد أنه لا يجب التقليل من شأن انتساب الغلامين إلى مدرسة القس؛ وأخيراً، من باب المجاملة، قرر الأمير معاقبة الشيخ المتبجح، فأوفد إليه أحد مأموري الخزينة الميرية، حاملاً قائمة لا تنتهي من الضرائب المستحقة، تلك التي نجح، حتى الحين، في التهرب منها بشتى الحيل؛ ولكنه أصبح مطالباً بتسديدها، إلى جانب ضرائب جديدة كذلك، لا سيما ضريبة "الفردة" التي فرضها المحتل المصري. كانت ذريعة هذه المبادرة تمويل خزائن الأمير التي شح فيها المال بسبب متطلبات الحرب القائمة. ولكن لم يخف على أحد الأسباب الحقيقية. وفي حال ساورت أحدهم الشكوك، استدعى الشيخ الخوري وقال له بصريح العبارة إنه سيتدخل لصالح الشيخ عند الأمير لو سحب الغلامين من المدرسة المهرطقة...

شعر سيد كفريبدا بأنه محاصر. فقد كان المحصول شحيحاً هذه السنة، والمبلغ المطلوب تسديده - ثلاثمائة كيس، أي مائة وخمسون ألف غرش -، يفوق بأضعاف ما يتسنى له تحصيله، بل يرغم كل رعاياه على تسليم مدخراتهم.

كان الدفع مستحيلاً، والحل الآخر لا يخلو من المذلة المزدوجة: فلسوف يفقد الشيخ ماء الوجه بإخراج الغلامين من مدرسة القس الإنكليزي، ثم يجب أن يركع عند قدمي " بطريرك الجراد" ليتكرم ويكلم الأمير.

أوضح مأمور الخزينة، قبل مغادرة الضيعة مع موكبه، أن أراضي الشيخ سوف تصادر وتضم إلى المقاطعة الميرية في حال لم تسدد المبالغ المستحقة بالكامل خلال الشهر القادم. وكان هذا الحل لا يرضي مطلقاً أهالي كفريبدا الذين يدركون بأن سيدهم أقل الأسياد شراً.

وكان أغرب ما في الأمر الطريقة التي عاش بها طانيوس هذه الأحداث. فقد تصالح مؤقتاً مع الضيعة، بل، إن جاز القول، مع سِفاحه المزعوم، لأن ما كان يجري أمام ناظري المراهق كان في الحقيقة استئنافاً للخلاف الذي تسبب فيما مضى بغزو " الجراد"، وكان سببه مجيئه إلى هذا العالم. أما الآن، فقد بات يدركه تماماً، ويعرف السبب الذي يدعو البطريرك لاعتماد هذا السلوك، ويفهم كذلك موقف الشيخ والأهالي. وكان يحظى بتأييده لسبب واحد هو المدرسة. فقد كان يضعها فوق كل الاعتبارات، ويدرس فيها بحماس ونقمة، ويمتص كالاسفنجة الجافة كل كلمة، وكل شذرة من شذرات المعرفة، ويضع نصب عينيه هذا الجسر الذي يمتد بينه، هو طانيوس، وسائر الكون. ولهذا السبب، كان يقف إلى جانب الأهالي، والشيخ ضد كل خصوم الضيعة، وضد الأمير، والبطريرك... ويتبنى كل قضايا الحاضر والماضي.

ولقد ابتعد عن روكز لأن هذا الأخير قال له: "لماذا يجب أن أنتحب إذا صودرت أراضي الشيخ؟، ألا تريد مثلي إلغاء امتيازات الإقطاعيين؟". فأجاب الفتى: "إنها أغلى أمنية لدي، وإنما لا أريدها أن تتحقق بهذا الشكل!". فأعلن الوكيل السابق بنبرة واعظة: "حين تكون لديك أمنية غالية من شأن تحقيقها أن يمنحك سعادة عارمة، يمكن أن تطلب من الرب تحقيقها. ولكن، لا يسعك أن تملي عليه الطريقة التي يجب أن يتبعها. لقد طلبت من السماء أن تنزل القصاص بشيخ كفريبدا، فدع لمشيئتها أن تقرر الأداة التي ستلجأ إليها، سواءً كانت زلزالاً، أم جراداً، أم جيوش مصر!".

أحس طانيوس بالضيق أمام هذا التحليل. كان يرغب من جهته بإلغاء امتيازات الشيخ، ولا يريد بالتأكيد أن يجد نفسه، بعد خمسة عشر عاماً، يساعد رعد على خلع حذائه... ولكنه يدرك تماماً إلى أي جانب يقف في الصراع القائم، والأماني التي يود أن تتحقق.

كتب القس في يومياته بتاريخ 12 آذار 1836: "عند الظهر، جاء طانيوس لمقابلتي في مكتبي من أجل شرح الوضع المأساوي الذي تعيشه ضيعته، وقد شبه هذا الوضع بنمس وقع في الفخ، ينتظر سكين الصياد... نصحته بالصلاة، ووعدته ببذل كل ما بوسعي.

وبعثت على الفور رسالة مفصلة إلى قنصلنا سوف أسلمها غداً بواسطة أحد المسافرين إلى بيروت".

في أعقاب هذه الرسالة على الأرجح، وكانت نداء استغاثة بكل ما للكلمة من معنى، وفد إلى القصر زائر أجنبي. ويتحدث الأهالي حتى اليوم في كفريبدا عن زيارة القنصل الإنكليزي. وبعد التحقق من هويته، يتبين أنه ريتشارد وود الذي لم يكن قد أصبح

قنصلاً آنذاك، بل لاحقاً؛ وفي ذلك الحين، كان الموفد غير الرسمي للورد بونسونبي، وقد استقر في بيروت منذ بضعة أسابيع عند شقيقته التي كانت زوجة القنصل الإنكليزي الفعلي. ولكن هذا التوضيح لا يؤثر في مجرى الأحداث، ولا في أسلوب الإفادة عنها. ويذكر كتاب أخبار الجبل أن " ضيعتنا استقبلت في تلك السنة القنصل الإنكليزي الذي جاء حاملاً هدايا ثمينة أشاعت البهجة في قلوب الكبار والصغار. ولم يسبق لزائر أن حظي بمثل هذا الاستقبال، وقد حضر القداس، وأقيمت الولائم على شرفه ثلاثة أيام وثلاث ليال".

أليس في الأمر بعض المبالغة أن تقام كل هذه الولائم، وتذكر كل هذه الصفات التفخيمية من أجل زيارة شبه قنصل؟ لا يبدو الأمر كذلك حين يعلم المرء طبيعة هذه "الهدايا الثمينة". ولا يستفيض الراهب الياس في الحديث عنها، ولكن وود نفسه تحدث عن زيارته في رسالة بعثها بعيد الزيارة إلى القس ستولتون، وهي موجودة في محفوظات هذا الأخير، بمدرسة السهلين. لا يحدد الموفد فيها مهمته التي يعرفها المرسل إليه بالطبع بقدر ما يعرفها هو شخصياً، وإنما يشرح بالتفصيل طبيعة الهدايا التي أحضرها، والطريقة التي قوبلت بها. ومما لا شك فيه أن القس قد ذكر في رسالته المبلغ المحدد الذي كانت تطالب به الخزينة الميرية، لأن وود أمر أولاً بإحضار أكياس تحتوي نقداً وعداً مائة وخمسين ألف غرش، إلى بهو القصر، ووضعها وراء نارجيلة مضيفه مباشرة. فتظاهر الشيخ بالاحتجاج، ولكن زائره لم يترك له الفرصة:

- ما وضع عند قدميك ليس هديتنا لك، بل لأمين خزنتك، لكي يلبي مطالب الأمير دونما حاجة لمضايقتك.

فقبل سيد كفريبدا بمهابة، ولكن قلبه المزهو كان ينتفض في ضلوعه كقلب طفل.

وفي الواقع، كانت هنالك ثلاث هدايا " حقيقية " يصفها وود في رسالته. " من أجل الشيخ، ساعة تزيينية نقش عليها شعار سلالة هانوفر، وقد حملت على ظهر جمل من بيروت". لماذا ساعة وليس جواداً أصيلاً، على سبيل المثال؟ تبقى المسألة سراً، وقد ترمز هذه الساعة إلى صداقة أبدية.

أما الهديتان الباقيتان، فكانتا لتلميذي القس. فحصل طانيوس على " دواة مصدَّفة بديعة علقها في خصره على الفور". أما رعد - وكان يملك أصلاً دواة ذهبية يخفيها عند الانصراف من المدرسة خوفاً من الأقاويل حول تدني مقام الشيخ إلى مقام أمين سر - فقد حصل على " بندقية جديرة برحلة صيد ملكية سارع والده إلى تناولها لتقليبها ومداعبتها بحسد، ولربما كان يجدر تقديمها له بدلاً من ابنه، فلكان سر بها سروراً بالغاً، وظلت قطعة السلاح بين أيادٍ أكثر أماناً".

لم تتضمن هذه الجملة أي تنبؤ، ولكنها تبعث على التأمل، حين نعلم المآسي التي حملتها فوهة هذه البندقية.

وصل "القنصل" بعد ظهر يوم سبت، وعرض عليه الشيخ قضاء الليلة في القصر. وانهمكت نساء الضيعة في إعداد أرقى ألوان الطعام - ويذكر وود رقبة خروف محشي، ويثني على " الكبة بالبرغموت"، ولعله خلط بينها وبين " اللحم المدقوق بالزفير"، فالبرغموت غير معروف في مآكل الجبل. ويوضح الموفد الإنكليزي أن الشيخ ابتسم ابتسامة مرحة وهو يراه يخلط نبيذه بالماء...

في صباح اليوم التالي، وبعد حديث مقتضب وديٍّ في الليوان، أمام الوادي، حول قهوة وبعض الفاكهة المجففة، استأذن سيد كفريبدا مضيفه لاضطراره التغيب لمدة ساعة.

- سوف يبدأ القداس، وأعلم أنه لا يجدر بي أن أترك

ضيفي، ولكن الرب أكرمني في اليومين المنصرمين، وكاد أن يجترح المعجزات، وأود أن أعرب له عن شكري.

- سوف أرافقك إن لم يكن لديك مانع...

اكتفى الشيخ بالابتسام، وكان لا يرى شخصياً أي مانع، ولكنه يخشى فضيحة من بونا بطرس لو دخل إلى الكنيسة برفقة إنكليزي.

كان الخوري ينتظرهما أمام مدخل الكنيسة، بلباقة إنما بحزم.

- ضيعتنا تشعر بالامتنان لبادرتكم نحوها. ولو قبلتم تشريفي بزيارة، فقد أعدت زوجتي لكم القهوة في بيتي المتواضع، ومدخله من الخلف. وسوف تجالسكم مع ابني البكر ريثما أنتهي من القداس، وأعود للانضمام إليكم.

ونظر إلى الشيخ خلسة، كأن لسان حاله يقول: "ما كان بوسعي أن أكون أكثر لياقة مع أصدقائك الإنكليز!".

ولكن " القنصل " أجاب بعربية ركيكة:

- لا داعي لهذه المعاملة الخاصة يا أبتي، فأنا كاثوليكي، وسوف أحضر القداس مع بقية المؤمنين.

لم يتمكن بونا بطرس من الإمتناع عن التعليق: "إنكليزي وكاثوليكي، أنت أعجوبة الدنيا الثامنة"، قبل أن يدعو الضيف للدخول.

كانت ذروة حنكة اللورد بونسونبي أن أوفد إلى هذه الأمة الكاثوليكية عميلاً إيرلندياً، وهي حنكة سوف تنتزع طويلاً إعجاب أهل الجبل " بهؤلاء العفاريت الإنكليز".

III

في تلك الليلة، نام البطريرك " طب على وجهه"، كما يقول أهالي كفريبدا، والصلوات التي تمتمها كانت خالية من العطف، فقد أرسل إلى الجحيم أرواحاً وأجساداً لا تعد ولا تحصى، بحيث يتساءل المرء عن المملكة التي يسعى لخدمتها. كان شاربا الشيخ كالجمرة على فراش رجل الدين، وعبثاً تقلب يمنة ويسرة، فكان يمعن في الالتفاف حولهما.

ومع ذلك، كانت سلطته في أوجها. فبين الأمير، وهيئة أركان الجيش المصري، والقناصل الفرنسيين، وكبار زعماء الجبل، كان الوسيط المعتمد، وعماد الإئتلاف، وكذلك مجبِّره، بسبب الحاجة الدائمة لرأب الصدوع. كان القنصل الفرنسي يحتقر محمد علي، " ذلك الطاغية الشرقي الذي يدعي الإصلاح لتضليل النفوس الأوروبية الطيبة "؛ وحين يسأل عن دو سيف، ابن بلده السابق، يجيب: "سليمان باشا؟ إنه يخدم بإخلاص أسياده الجدد"، ويشمر أنفه اشمئزازاً. أما الأمير فكان يغتبط سراً لمتاعب حماته المصريين الذين يقولون عنه شبه علانيةً، إنه سيبقى أكثر حلفائهم إخلاصاً طالما أن خيامهم منصوبة تحت نوافذ قصره.

كان يتراءى للبطريرك أحياناً أنه يحافظ على هذا الإئتلاف الأعوج بقوة قبضتيه، ويتمتع في كل أنحاء الجبل بالاحترام لا بالإجلال في بعض الأحيان. فكل الأبواب مشرَّعة أمامه، وطلباته لا ترفض، إلا في ضيعتي. ففي كفريبدا، كان الخوري نفسه يولي له ظهره.

ولذلك، كانت ليلته قلقة، ولكنه استعاد ثقته في الصباح.

ووعد القواس الذي كان يساعده على ارتداء الجبة: "سوف أحملهم على تلاوة ندمهم، سوف يخرون راكعين عند قدمي كقطعة الفضة في جذع الكنيسة. فلكل داء دواء، ولديَّ الدواء الذي يحتاجون."

بعد بضعة أيام، قدم موفد من الجرد العالي يعلم بأن جدة رعد تحتضر، وترغب برؤيته. فلم يحاول الشيخ الاعتراض على سفر ابنه، بل رأى فيه، على العكس، مناسبة للمصالحة مع أسرة زوجته، وحمَّل ابنه تمنياً بالشفاء العاجل قام جريس بتحريره، وبعض الهدايا البسيطة.

ولئن كانت الجدة تحتضر، فقد كان هذا الاحتضار يخلو من العجلة. ولن يذكر كتاب أخبار الجبل وفاتها إلا بعد مائة وثلاثين صفحة - وسبعة عشر عاماً - عن سن تناهز الرابعة والسبعين. ولكن الأمر سيان، فلا ريب أنها كانت بشوق إلى حفيدها. ولكن البطريرك، على وجه الخصوص، كان من ألح على إحضار رعد، لأنه أراد أن يسرَّ له بأمور خطرة.

استهل الحديث كأحجية للأطفال في درس التعليم الديني:

- لو كنت أحد فرسان المسيح، وألفيت نفسك على حين غرة سجيناً في قصر الشيطان، فماذا تفعل؟

- أحاول الفرار، إنما ليس قبل تدمير كل شيء، ودون إبقاء حجر على حجر!

- هذا جواب جميل وجدير بفارس أصيل...
- كما أذبح الشيطان عن بكرة أبيه!
- لا داعي للمبالغة يا شيخ رعد، فلا مخلوق قادر على قتل إبليس، ولكنه يستطيع أن يزرع البلبلة في داره كما يزرعها هو في دارنا. يروق لي ورعك، ولقد كنت محقاً إذ وضعت ثقتي فيك، وأنا على يقين بأن إيمانك ودمك النبيل سوف يلهمان أفعالك كما ألهما أقوالك.

وتمتم البطريرك صلاة طويلة، محتضناً يدي الفتى بين يديه. لم يفقه رعد شيئاً مما قيل، وتراءى له أن البخور ينفذ إلى منخريه. كانت الغرفة خالية من النوافذ، غارقة في العتمة، ولا نور فيها سوى لحية البطريرك الناصعة.

- أنت في دار إبليس!

لم يفهم الشيخ اليافع. وراح ينظر حوله، وقد اعتراه هلع طفيف.

- لا أقصد دار جدك...
- القصر...
- ولا دار أبيك، سامحه الله، بل المدرسة الإنكليزية، معقل الهرطقة والمجون. إنك تذهب كل صباح إلى دار إبليس، بغير علم منك.

وتجهم وجهه كحجر القبر. ولكن ابتسامة راحت ترتسم عليه شيئاً فشيئاً.

- ولكنهم بدورهم لا يعلمون من تكون. يظنون أنهم يتعاملون مع الشيخ رعد فحسب، إبن الشيخ فرنسيس، ولا يعلمون أنك تخفي في أعماقك فارس العقاب.

لما رجع رعد إلى الضيعة بعد بضعة أيام، وسلك كالعادة القادومية التي تجتاز غابة الصنوبر، لاحظ طانيوس أن ذقنه تزدان بلحية خفيفة، وأن في عينيه نظرة تختلف عن نظرته المعهودة.

كانت الدروس في مدرسة القس ستولتون تقام في أقدم أجزاء المبنى، وهو القبو الذي يتألف من قاعتين مقببتين، شبه متناظرتين، متطاولتين ومظلمتين بالنسبة إلى الصفوف المدرسية. وسوف تضم إليهما لاحقاً قاعات أخرى، ولكن المدرسة في عصر طانيوس كانت تضم ثلاثين تلميذاً لا غير، وتقتصر على هاتين القاعتين، وعلى قاعة متاخمة فيها كتب القس ومكتبه، وقد خصص الطابق العلوي لسكنه الخاص. لم يكن البيت فسيحاً، ولكنه يوحي بمزيج من الرقة والصلابة بفضل قرميد السطح الهرمي الشكل، والشرفات المتناسقة، والنوافذ المقوسة، واللبلاب الذي يغطي الجدران. وكانت المدرسة تضم كذلك ملعباً واسعاً يمكن للتلاميذ أن يلهوا فيه، وسوف تشيد فيه، بعد سنوات، لأسباب جديرة بالثناء والتقدير - انتساب حوالي ألف تلميذ -، أبنية أقل أناقة للأسف. ولكن هذه مسألة أخرى. . . .

وفي أحد أجزاء الملعب، كانت زوجة القس تمارس شغفها الوحيد في الحياة: البستنة. وكانت تملك بستاناً صغيراً، إلى جانب أحواض من الزهور، كالنرجس، والقرنفل، وأجمة من اللاوند، ومربَّع من الورد. كان التلاميذ لا يقتربون منه، وقد أقامت زوجة القس بيديها سوراً بسيطاً من الحجارة المتراكمة ولكنها تحدد سياجاً رمزياً للبستان.

سارع رعد، مع ذلك، للقفز فوق هذا السور يوم عودته إلى المدرسة. وتوجه مباشرة نحو شجيرات الورد التي كانت قد بدأت تزهر في شهر نيسان؛ وإذ استل من حزامه سكيناً، مضى يقطف أجمل الورود، ويقطعها قرب البتلات، وكأنه يقطع رؤوسها.

كانت زوجة القس في البستان، وقد رأت كل ما حدث، ولكن التلميذ كان يتصرف بثقة وصلافة بحيث ظلت معقودة اللسان برهة طويلة قبل أن تصرخ جملة غير مفهومة. لم يتأثر الشيخ

اليافع، وواصل عمله، إلى أن هوت آخر وردة في منديله المفتوح. فأعاد السكين إلى مكانه، وقفز بهدوء فوق السور بالإتجاه المقابل، لاستعراض غنيمته أمام رفاقه.

هرع القس، فوجد زوجته تنتحب، واستدعى الفاعل إلى مكتبه. تأمله مطولاً، وهو يسعى لاكتشاف تعبير ندم على وجهه، قبل أن يبادره، بنبرة الواعظ:

- هل تدرك ماذا يحدث داخلك؟ حين وصلت هذا الصباح، كنت شيخاً محترماً، ولقد أصبحت الآن لصاً!

- لم أسرق شيئاً.

- لقد رأتك زوجتي تقتلع ورودها، فكيف تنكر ذلك؟

- لقد رأتني، ورأيت أنها قد رأتني. فهذه ليست سرقة بل نهباً!

- وما الفرق؟

- البائسون يسرقون أما النهب، فهو كالحرب، يمارسه الفرسان والنبلاء.

- أظن أنني أسمع شخصاً آخر يتحدث من خلالك، من علّمك الرد بهذا الأسلوب؟

- ولماذا أحتاج لمن يعلمني؟ أعلم ذلك منذ ولادتي !

تنهد القس، وفكر بالأمر ملياً. بالشيخ، والسيد وود، واللورد بونسونبي، بل ربما بجلالة الملك. وتنهد ثانيةً، ثم تابع، بإطناب يشوبه الرضوخ:

- إعلم، في مطلق الأحوال، أن النهب، لو كانت ممارسته تجوز، لا يجب أن يكون إلا على حساب الأعداء، أولئك الذين غزونا أرضهم أو اقتحمنا بيوتهم بسبب الحرب، ولا يجب أن يطال بالتأكيد البيوت التي يستقبل فيها المرء كصديق.

لاح على رعد أنه مستغرق في التأمل، فاعتبر القس أن هذا

الموقف، لعدم توافر الأفضل، بادرة أسف. وطلب من الشيخ اليافع ألا يعتبر نفسه بعد اليوم في حالة حرب مع مدرسته، وغض الطرف عن فعلته.

أيخون على هذا النحو مهمته التربوية لئلا يخون مصالح التاج البريطاني؟ كان القس ستولتون يشعر ببعض الخجل كما يتجلى لدى القراءة بين سطور يومياته.

في الأيام التالية، بدا رعد متعقلاً. ولكن الشيطان - عفواً، الملاك - المجرِّب لن يدعه بسلام.

كانت أداة العناية الإلهية هذه المرة مسبحة من الخشب الثمين أحضرها إلى المدرسة إبن تاجر من ديرون، وكانت هذه المسبحة تتميز بأن حاملها، حين يسبِّح بها، أو يجمعها ويفرك حباتها الواحدة بالأخرى بين راحتيه، تفوح منها رائحة المسك. كان رعد يريد الحصول على هذه المسبحة بأي ثمن، ولكنه استاء حين عرض عليه رفيقه أن يبيعها له. فقد كان من الأسهل مصادرتها بواسطة النهب النبيل! أو، كما اقترح تلميذ ظريف، الفوز بها، في لعبة شائعة بين التلاميذ، تسمى " عاصي"، وتعني "تحدي". وتقوم على فرض رهان على أحدهم، ولو فاز بالرهان، يحصل على قيمته.

أعلن الشيخ رعد: عاصي!، وردد رفاقه المبتهجون بهذه التسلية: عاصي! عاصي! إلى أن قرر صاحب المسبحة الثمينة أن يلفظ بدوره الكلمة السحرية، ثم يحدد شروط الرهان:

- عاصي أنك سوف تذهب إلى حيث تقف السيدة ستولتون، وترفع ثوبها بيديك الاثنتين حتى رأسها، كأنك تبحث عن شيء ما، وتصرخ: أين هذه المسبحة، لا أجدها!

كان ابن التاجر سعيداً للغاية بالرهان، ومتأكداً بأنه قد وجد الرهان الأصعب الذي لن يتمكن أحد رفاقه من الفوز به. ولكن

رعد سرعان ما خطا بضع خطوات نحو الاتجاه المشار إليه. فتبعه الآخرون، وكانوا سبعة، على مسافة، وهم على يقين بأنه لن يلبث أن يعود أدراجه. كانت زوجة القس منحنية فوق أحواضها، ترتدي ثوباً طويلاً تلطخت أطرافه بالوحل، فأمسك رعد المقدام بأطراف الثوب بملء يديه، ورفعه بحركة مباغتة دفعت بالسيدة إلى الأمام، فتعثرت وانسحق رأسها على أزهارها.

وأعلن بنبرة ظافرة: أين هذه المسبحة، لا أجدها!

لم يضحك الآخرون.

هذه المرة، هرع القس وزعق في وجه الأرعن بالإنكليزية، متناسياً مصالح بلاده العليا:

- أخرج من هنا! أخرج في الحال من هذه المدرسة، ولا تعد إليها بعد اليوم! إن وجودك فيها عار على كل واحد منا. ولو جاء الملك وليم شخصياً إلى السهلين، وطلب أن أبقيك فيها، فسيكون جوابي: لا، لا، وألف لا!

وكيف كان بوسعه أن يتصرف غير ذلك؟ وإلا، فكيف كان ليحافظ على هيبته وهيبة إرساليته؟ ومع ذلك، ففي الساعات التالية، تعاظم لديه الشعور بالندم الحاد، والإحساس بأنه قد قوَّض بيديه البناء الذي شرع بتشييده. وشعر بالحاجة لتبرير موقفه أمام سعيد بك، مضيفه وحاميه.

لم يحاول سيد السهلين الذي كانت الحادثة قد تناهت إلى مسامعه أن يشيع الطمأنينة في نفس زائره على الإطلاق.

- لم يهب الله إنساناً كل الخصال الحميدة، أيها المحترم. فأنت تتحلى بالذكاء، والمعرفة، والاستقامة، والفضيلة، والتفاني... إنما ينقصك الصبر.

الصبر؟ تنهد القس مطوَّلاً، وبذل جهداً لاغتصاب ابتسامة:

- لا شك أنك محق يا سعيد بك، ولكن تحمل الشيخ رعد

يتطلب صنفاً خاصاً جداً من الصبر، وأخشى أن هذا الصنف لا ينبت في إنكلترة.

- هذا هو جبلنا، أيها المحترم. لقد ظننت أنك عاقبت تلميذاً وقحاً، ولكنك عاقبت والده فحسب، وهو صديقي، وقد اضطر لمواجهة نصف العالم بسبب المودة التي يكنها لك.

- آسف لذلك من كل قلبي، ولو تسنى لي تصحيح الإساءة التي لحقت به... ربما يجدر بي الذهاب لمقابلته.

- لقد فات الأوان. والطريقة الوحيدة للإعراب عن مودتك ألا تلومه على ما سيضطر لقوله للخروج من هذا المأزق.

IV

ورد في كتاب أخبار الجبل:

" في نهاية شهر نيسان، بعيد عيد الفصح، قرر الشيخ فرنسيس، سيد كفريبدا، إخراج إبنه، الشيخ رعد، من مدرسة الإنكليز المهرطقين. وقيل إن حادثةً وقعت قبل أيام باغت خلالها القس زوجته مع الشيخ الشاب في وضع مشبوه. فالجسد ضعيف أمام الإغواء في ربيع العمر وكذلك في خريفه.

" وفي اليوم الثالث، وكان يوم جمعة، وصل سيدنا البطريرك إلى الضيعة في موكب مهيب. وكان لم يزرها منذ خمسة عشر عاماً، وابتهج الجميع لعودته. وأعلن أنه جاء للاستماع إلى اعتراف الشيخ رعد كما كان في الماضي معرِّف والدته.

" تعانق الشيخ فرنسيس والبطريرك أمام الأهالي المحتشدين في البلاطة، وتحدث سيدنا في عظته عن المغفرة والمصالحة، ولعن الهرطقة والرذيلة، أسباب التفرقة والشقاق بين المؤمنين.

" وأقيمت الولائم في الضيعة حتى الفجر. وفي اليوم التالي، ذهب البطريرك والشيخ معاً إلى قصر بيت الدين لتجديد ولائهما للأمير، حاكم الجبل، وإعلامه بمصالحتهما، فأكرم وفادتهما".

" يا إلهي، كم أشعر بالغربة وسط هذا الاحتفال! " . انقلبت مشاعر طانيوس مجدداً، وتحولت إلى نقمة وازدراء. وبين الحين والآخر، وللتمويه عن أفكاره السوداء، كان يتخيل زوجة القس متأوهة في أحضان رعد، أو ذلك الأخير في كرسي الاعتراف، يتلقى التهاني الحارة من البطريرك على الخطايا التي يدعي اقترافها. فيفاجأ ابن لميا بنفسه يضحك هازئاً على الملأ، ثم ينغمس مجدداً في استهجانه الصامت.

كان يمشي، ويمشي، كعادته كلما تملكه الغضب.

- ما الخطب يا طانيوس، هل تفكر من خلال قدميك؟

لم يكن مزاج الفتى يتحمل مناداة بهذا الأسلوب، ولكن هذا الصوت كان مألوفاً، وتلك الهيئة أيضاً. ليست هيئة نادر، بل بغله الذي لا يفارقه، والمحمَّل حمولة بطول قامة رجل.

اندفع طانيوس لمعانقة البغّال عفوياً، ثم تذكر سمعة ذلك الرجل، فابتعد عنه خطوة إلى الوراء. ولكن الآخر تابع فكرته:

- أنا أيضاً أفكر من خلال قدميَّ حتماً لأنني أجوب الطرقات على الدوام. فالأفكار التي تصنعها بقدميك، وتتصاعد إلى رأسك، تعزِّيك وتحفِّزك، وتلك التي تنزل من رأسك إلى قدميك تثقلك وتحبطك. لا تبتسم بل يجدر بك الإصغاء إلي برصانة... أو، كما تشاء، إبتسم كالآخرين. فلا أحد يتقبل حكمتي، ولذلك، أجد نفسي مضطراً لبيع الخردوات. في الماضي، كانت النصيحة بجمل عند العرب.

- لو أمكنك أن تبيع حكمتك يا نادر...

- أعلم أنني ثرثار، ولكن يجب أن تفهمني، فخلال انتقالي من ضيعة إلى أخرى، تخطر ببالي أمور كثيرة لا يتسنى لي البوح بها لمخلوق. وحين أصل إلى الضيعة، أحاول التعويض.

- تعوِّض لدرجة أنك تطرد...

- لقد حدث ذلك أحياناً، ولكنه لن يحدث بعد اليوم. لا تعول عليَّ للذهاب والإعلان على البلاطة أن الشيخ رعد قد طرد من المدرسة لأنه سحق الورد ورفع كالوغد ثوب تلك السيدة. ولن أذكر كذلك أن والده قد صفعه صفعتين مجلجلتين قبل أن يستعرضه كالبطل في الضيعة وسط الهتافات.

التفت طانيوس، وبصق ثلاث مرات بطرف لسانه، ولكن نادر استنكر هذه الحركة.

- إنك تخطىء إذ تحقد على هؤلاء البشر، فهم يعلمون مثلي ومثلك حقيقة ما جرى، ويحكمون على رعد كما نحكم عليه أنا وأنت. ولكن هذا الخلاف مع البطريرك والأمير أصبح باهظاً ومحفوفاً بالمخاطر، وذلك التحالف مع الإنكليز كان عبئاً ثقيلاً، ويجب إزاحته، وبرأس مرفوعة...

- رأس مرفوعة؟

- يمكن لنا أن نلوم زير نساء جريء، ولكننا لا نستطيع احتقاره. هكذا تسير الأمور، وبوسع أبيه أن يتحدث عن انتصاراته ضاحكاً.

- لا أرغب بالضحك، وكلما فكرت بالسيدة ستولتون، وبالأصداء التي ستتناهى إلى مسامعها، أشعر بالخجل.

- لا تكترث لزوجة القس، فهي إنكليزية.

- و إن يكن؟

- أقول لك إنها إنكليزية، وأسوأ ما قد يصيبها أنها ستضطر للرحيل عن هذه البلاد. أما نحن، فالرحيل أفضل ما قد يحصل لنا.

- إنصرف، يا نادر، فأنا حزين بما يكفي، ولا حاجة بي لحكمتك المتشائمة كحكمة البوم!

كان طانيوس يشعر، بالرغم من كل ما حدث، ببعض العزاء

من مشاعر الاستهجان والخجل والتعاسة التي تغذيها في أعماقه أفراح الضيعة، العزاء لإدراكه أنه كان على حق بخلافهم جميعاً، وأنه يظل صاحياً فيما يتعامى الآخرون بدافع الجبن والتساهل. وقد صمم على الذهاب لزيارة السيدة ستولتون، صباح الإثنين، فور وصوله إلى المدرسة، ويطبع قبلة على يدها كما يفعل النبلاء الذي قرأ عنهم في الروايات الإنكليزية، ويعرب لها عن " عميق احترامه وعاطفته البنوية"، أو أية عبارة منمقة من هذا القبيل، وسوف يخبرها كذلك أن كل الضيعة علمت بما جرى...

لم يدرك طانيوس، ولا للحظة واحدة، أنه كان غافلاً، لا بدافع التساهل بل الأمل، الأمل بمغادرة القصر باكراً في الغد لاستعادة السكينة في طراوة صفه. ولم يشك للحظة واحدة بذلك الأمر على الرغم من بساطته وبداهته: فقد أصبح من غير الوارد أن يرتاد أحد أبناء الضيعة مدرسة القس الإنكليزي. لقد أعلن الشيخ والبطريرك ذلك بوضوح لجريس قبل انصرافهما، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر إلى قصر الأمير.

ومنذ ذلك الحين، راح الوكيل يؤجل يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، اللحظة الرهيبة التي سيتحتم عليه فيها أن يعلن النبأ لطانيوس. ولعل الفتى سيفطن له تلقائياً، ويرضخ للأمر الواقع... لا، كان ذلك مستحيلاً، وغير وارد. فقد كانت تلك المدرسة أمله الوحيد بالغد، وفرحته اليتيمة التي لا يعيش إلا لأجلها. كانت مدرسة القس هي التي صالحته مع أسرته، ومع القصر، والضيعة، ومع نفسه، ومع سر ولادته.

مساء الأحد، كانت الأسرة مجتمعة حول طبق من الكشك، يغمس أفرادها كسرات الخبز في الحساء السميك. وكان جريس يروي ما علم به حول الخلاف بين والي مصر والباب العالي؛ فقد كان الحديث دائراً عن معركة يجري الاستعداد لها على ضفاف الفرات.

كانت لميا تطرح بعض الأسئلة أحياناً، وتعطي الأوامر للفتاة التي تخدمهم. واكتفى طانيوس بالإيماء برأسه، وهو يفكر بيوم الغد، وبما سيقوله للقس وزوجته لدى لقائه بهما للمرة الأولى بعد الحادثة.

اقترحت الأم في لحظة خيم عليها الصمت: "يجدر بك أن تخبر طانيوس...". فأومأ جريس برأسه.

- سوف أردد له ما قيل لي، ولكن الأمر لا يخفى عليه، ففتى نبيه مثله لا يحتاج إلى شرح مطوَّل، ولا ريب أنه قد أدرك كل شيء من تلقاء نفسه...

- عما تتحدثان؟

- عن المدرسة الإنكليزية. هل ثمة حاجة للقول إنك لن ترجع إليها؟

راح طانيوس يرتجف فجأة، كأن سيلاً بارداً اجتاح الغرفة. وبصعوبة تمكن من التساؤل: "ليش؟".

- بعد كل ما جرى، لا يمكن أن تبقى ضيعتنا على صلة بتلك المدرسة. هذا ما قاله لي الشيخ بوضوح قبل انصرافه، في حضرة البطريرك.

- فليقرِّر الشيخ بالنسبة إلى إبنه الأبله فقط.

- لن أسمح لك أن تتكلم بهذا الأسلوب طالما نعيش تحت سقفه.

- لم يرغب رعد قط بالدراسة، كان يذهب إلى المدرسة على مضض، مرغماً بسبب والده، وهو مسرور لعدم اضطراره للذهاب إليها بعد اليوم. أما أنا فسوف أذهب إليها للدراسة، ولقد تعلمت أموراً كثيرة، وأرغب بمتابعة دراستي.

- ما تعلمته يكفي. صدقني، لو درست كثيراً، لن تطيق العيش وسط أهلك. يجب أن تتعلم بالقدر الكافي لتشغل منصبك

تماماً. هذا هو الصواب. سوف تساعدني في عملي، وسوف أعلمك كل شيء.

" لقد أصبحت رجلاً، ويجب أن تفكر بكسب لقمة عيشك، وخبزك اليومي".

نهض طانيوس كالميت:

- لن آكل الخبز بعد اليوم.

صعد إلى السقيفة التي كان معتاداً على النوم فيها، وتمدد، ولم يعد يحرك ساكناً.

في بادىء الأمر، ظن أهله أنها نزوة طفولية. ولكن، حين أشرقت شمس اليوم اليوم التالي ثم غربت، ولم يفتح طانيوس فمه لا للكلام، أو لتناول الزاد، بل ولا لشرب جرعة ماء، أصيبت لميا بالهلع، وحبس جريس نفسه في مكتبه متذرعاً بمراجعة سجله، ولكنه كان يحاول إخفاء قلقه. وذاع الخبر في الضيعة.

مساء الأربعاء، أي في اليوم الرابع من هذا الإضراب عن الطعام، كان لسان طانيوس قد جف، وتحجرت عيناه، وراح أهالي الضيعة يعودونه، فيحاول بعضهم نصحه عبثاً لأنه كان يأبى الاصغاء إليهم، ويأتي بعضهم الآخر لمعاينة ذلك المشهد الغريب لشاب ينزلق رويداً بملء إرادته على منحدر الموت.

لم يعدموا وسيلة لإقناعه. التهويل من الجحيم، مصير كل من ينتحر، والحرمان من الدفن... وكان لا يصدق كلامهم، وينتظر الموت كأنه إبحار عظيم.

ولما جاء جريس منتحباً يقسم له أنه سوف يسمح له بالعودة إلى مدرسة القس لو قبل فقط أن يشرب كوباً من الحليب، أجاب، بدون أن يرمقه بنظرة واحدة:

- أنت لست أبي! لا أدري من يكون أبي!

سمعه بعض الحاضرين، وسارع أحدهم للقول: "المسكين،

إنه يهذي!"، لأن الجميع كانوا يخشون أن ينتحر جريس - غماً وخجلاً - مع طانيوس.

كان يوم الخميس، اليوم الخامس من الإضراب عن الطعام، وقد راح بعض الزوار يقترح أن يفتح فم الفتى بالقوة لإطعامه، ولكن بعضهم الآخر لم يشجع هذا الأسلوب خوفاً من موته اختناقاً.

كان اليأس قد تملك نفوس الجميع، بمن فيهم الخوري، باستثناء الخورية. وعندما جاءت شقيقتها الصغرى لميا تنتحب، وترتمي بين ذراعيها، كما في طفولتها، نهضت وأعلنت:

- ليس أمامنا سوى حل واحد، وسوف ألجأ إليه. لميا، أعطني ابنك!

وهتفت إلى الرجال بدون انتظار جواب:

- أريد عربة.

نقل طانيوس إليها، وكان فاقد الوعي تقريباً، وسجي فيها. ثم أمسكت الخورية نفسها بزمام العربة، ومضت على الدرب السالكة التي تلتف حول تلة القصر.

لم يجرؤ أحدهم على الذهاب في إثرها، واكتفوا بالنظر إليها ريثما تلاشى غبار الطريق.

كان العصر جافاً، وأشجار الفستق حبلى بالمخمل الوردي الشاحب.

لم تتوقف الخورية قبل وصولها أمام بوابة المدرسة الإنكليزية. وهناك، حملت بنفسها ابن شقيقتها، وتوجهت نحو المبنى. فخرج القس ثم السيدة ستولتون للقائها.

- سوف يموت بين أيديكما. أتركه في عهدتكما. وعندما يجد نفسه هنا، معكما، سوف يأكل مجدداً.

وضعته على أذرعتهما الممدودة، وانصرفت بدون أن تطأ عتبة الدار.

العبور الخامس

رأس أشيب

في الأيام التي أعقبت هذه الزيارة المباغتة، لاحظنا، أنا والسيدة ستولتون، ظاهرة من أغرب الظواهر. فقد بدأ شعر طانيوس، وكان حتى ذلك الحين أسود تشوبه انعكاسات نحاسية، يشيب بسرعة أثارت قلقنا. غالباً ما كنا بقربه نرعاه، فيتراءى لنا، بين ساعة وأخرى، أحياناً، أن عدد الشعرات البيضاء في رأسه قد تضاعف. وفي أقل من شهر، كان شعر هذا الفتى الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً قد شاب مثل شعر رجل عجوز.

لا أدري إن كانت هذه الأعجوبة تعزى إلى محنة الإضراب عن الطعام التي قد خاضها، أو إلى سبب طبيعي آخر. ولكن الأهالي يرون في هذه الظاهرة إشارة، لطانيوس نفسه، وربما للبلاد بأسرها. هل كانت فأل خير أم نذير شؤم؟ لا يوجد إجماع حول هذه المسألة. كان تطيرهم يخضع، كما يبدو لي، لشتى التأويلات التي كنت أفضل ألا أعيرها أذناً صاغية.

إلا أنني فهمت أن ثمة أسطورة في هذه البقعة من الجبل تتعلق بالأشخاص الذين شاب شعرهم قبل أوانه، وهم يظهرون، منذ فجر التاريخ، بين الحين والآخر، في بعض الفترات العصيبة، وسرعان ما يتوارون عن الأنظار، ويطلق عليهم " الرؤوس

الشائخة"، أو " الحكماء المجانين". ويرى البعض أنهم شخص واحد يتقمص إلى الأبد، ولا ننسى أن التقمص من المعتقدات الراسخة في بلاد الدروز.

يوميات المحترم جيريمي ستولتون
1836

I

إذا كانت الجنة للموتى المؤمنين، فقد حظي طانيوس، بمحاولته وضع حد لحياته، على ما يشبه الجنة، دون أن يحاسبه العلي القدير ظاهرياً على رغبته بالانتحار. لا ريب أن قصر الشيخ كان رحباً، ولكن عالمه مسوَّرٌ بجدران عالية وتقبيل الأيادي. كانت الدواة فيه تتوارى خجلاً، والمسابح تتخايل. أما في منزل القس، فكان الاحترام يواكب المعرفة، وطانيوس يقف على الدرجات الأولى من سلّمها، إنما يشعر بنفسه قادراً على ارتقائها كلها. فالمكتبة بمتناول يده؛ وكتبها حية في أغلفتها الثمينة، وكان يعشق أن يفتحها، ويصغي إلى صريرها، حتى تلك التي لن يدرك فحواها قبل سنوات. وفي يوم من الأيام، سوف يكون قد قرأها كلها، وكان هذا عنده بمثابة اليقين.

إلا أن حياته الجديدة لم تقتصر على هذه المكتبة، ومكتب القس، أو أقواس الصفوف. فقد أصبح لديه غرفته في الطابق العلوي. وكانت هذه الغرفة مخصصة حتى الحين للزوار العابرين، الإنكليز أو أميركيي الإتحاد، ولكن السيد والسيدة ستولتون أوضحا على الفور لنزيلهم غير المتوقع أنها ستكون غرفته. كان فيها سرير ذو قبة. ولم يسبق لطانيوس أن رقد في سرير من ذي قبل.

في الأيام الأولى، كان واهناً، فاقد الوعي، لا قدرة له على الاستمتاع بهذا الفراش الوثير. ولكنه ما لبث أن اعتاد عليه، بل راح يتساءل إن كان سيتمكن من النوم على الأرض ثانية، في خوف دائم من الأفاعي والعقارب تحت اللحاف، من العظاية الشقراء المعروفة بأبي بريص، ذات اللسعة الحارقة، وبخاصة من أعظم الشرور، كابوس طفولته، أم أربع وأربعين، ويقال عنها إنها تتسلل تحت وسادة الراقد وتتشبث بدماغه!

كانت غرفته المريحة في دار ستولتون تضم رفاً وضع عليه صف من الكتب الصغيرة، وخزانة مسمرة في الحائط، وموقد حطب، ونافذة زجاجية تطل على أحواض الزهور التي تخص زوجة المحترم.

انهى إضرابه عن الطعام فور أن فتح عينيه في السرير، وأبصر زوجة القس تناوله كوباً. وفي اليوم التالي، جاءت والدته لتختلس النظر إليه من الرواق، ولكنها لم تدخل غرفته، وانصرفت مطمئنة البال. وبعد ثلاثة أيام، عندما قرعت لميا والخورية مجدداً باب القس، كان طانيوس من فتح لهما. فارتمت الأولى في أحضانه، وغمرته بالقبلات، فيما جذبتها الثانية خارجاً لأنها لم تشأ تخطي عتبة المهرطقين.

- هكذا إذن، لقد نلت مبتغاك!

رسمت يدا الفتى حركة تعبر عن العجز الواهن، وكأن لسان حاله يقول: "هذه طبيعتي!".

أضافت الخورية: "حين يضايقني أحدهم، يعلو صوتي على صوت الجميع، ويصمت الناس، بمن فيهم بونا بطرس...".

- وأنا أخفض صوتي حين يضايقني الآخرون.

كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة ماكرة، فلوحت خالته برأسها، متظاهرة باليأس.

- مسكينة يا لميا، لم تعرفي كيف تربين ولدك! لو كان عندي في البيت، مع أربعة إخوة يكبروه سناً، وأربعة يصغرونه، لتعلم أن يزعق، ويناكد، ويمد يده إلى الحلة، دونما حاجة للتوسل إليه! ولكنه حي يرزق، ويجيد القتال بأسلوبه الخاص، وهذا أهم ما في الأمر.

أشرقت أسارير الفتى، وظنت لميا أن الوقت مناسب لتعلن:

- غداً، نعود مع والدك؟

- مع من؟

والتفت، إذ تفوه بهذه الكلمات الباردة، وابتعد في الرواق المظلم لبيت القس، وانصرفت المرأتان في حال سبيلهما.

سرعان ما استأنف دروسه، وصار كل التلامذة الذين لديهم مطالب يقصدونه، وكأنه " إبن البيت". وقد عهد إليه القس - " نظراً لكفاءاته، ومقابل دراسته وسكنه"، كما توضح يومياته - بمهمة مراجع دروس كلما تخلف أحد رفاقه بسبب التغيب، أو صعوبة في الفهم. فأصبح يؤدي دور المعلم مع رفاقه الأكبر سناً.

لا شك أنه ارتأى إرسال لحية رفيعة كالعقد للظهور بمظهر أكثر نضجاً أثناء ممارسة مهامه الجديدة؛ ولعله شاء كذلك التأكيد على استقلاليته عن الشيخ، وعن الضيعة بأسرها. كانت لحيته لا تزال مبعثرة، ولا تفوق الزغب في سماكتها، ولكنه كان يشذبها، ويمشطها، ويعدلها، ويراقبها بدافع الحرص على الكمال، وكأنها عش روحه.

وقد قال لي جبرايل: "ولكن ملامحه ونظرته وكذلك يديه كانت تتسم بشيءمن النعومة الأنثوية. كان يشبه لميا كأنه ولد منها فقط".

اعتادت والدته زيارته كل أربعة أو خمسة أيام، برفقة شقيقتها في أغلب الأحيان. ما عادت، لا الواحدة ولا الأخرى، تجرؤان

على اقتراح عودته برفقتهما إلى الضيعة. ولم تعاودا الكرة إلا بعد مضي أشهر عديدة، ولم تتوجها إلى طانيوس مباشرة بل إلى القس الذي وافق على إقناعه، فلئن كان سعيداً باستضافة أكثر تلامذته تفوقاً، وفخوراً بعاطفته البنوية الصادقة، فقد كان لا يخفى على المحترم ستولتون أن إرساليته سوف تحظى بمزيد من التأييد في البلاد التي استقر فيها متى تصالح طانيوس مع أسرته، والشيخ، وضيعته.

- فلتكن الأمور واضحة. أتمنى أن تزور كفريبدا، وأن ترى أباك وذويك، ثم تعود للعيش في هذه الدار التي ستبقى فيها نزيلاً وليس لاجئاً بعد اليوم. وعلى هذا النحو، سوف نتناسى حادثة رعد جزئياً، وينفرج الوضع بالنسبة إلى الجميع.

تراءى لطانيوس، لدى وصوله إلى البلاطة على ظهر حمار، أن أهالي الضيعة يخاطبونه بحذر، بل بشيء من الرهبة، كأنه قام من بين الأموات. وكانوا يتظاهرون جميعاً بأنهم لم يلاحظوا رأسه الأشيب.

انحنى فوق النبع، وشرب الماء البارد في قعر يديه المضمومتين، ولم يقترب منه أي عابر سبيل. ثم صعد وحده باتجاه القصر، وهو يجر مطيته.

كانت لميا تنتظر، عند الباب، لتصطحبه عند جريس، متوسلة إليه أن يكون أكثر لطفاً معه، وأن يقبِّل يده باحترام. كانت لحظة عسيرة لأن الرجل صار، على ما يبدو، يفرط في الشراب. كانت تنضح منه رائحة العرق، وتساءل طانيوس إن كان الشيخ سوف يستبقيه طويلاً في خدمته، وهو على هذه الحال. لم تحل الكحول عقدة لسانه، وبالكاد تحدث إلى ابنه الضال. كان يلوح، أكثر من أي وقت مضى، متقوقعاً على نفسه المعقَّدة والمعذبة. وأحسَّ الفتى طيلة لقائهما الصامت بإحساس خانق بالذنب جعله يندم على عودته، وعلى رحيله... وربما قبوله تناول الطعام مجدداً...

كان ذلك الجانب المظلم والوحيد. فقد كان رعد خارج الضيعة، في رحلة صيد أو عند جده وجدته، ولم يكلف طانيوس نفسه عناء الاستفسار عن مكانه، فقد كان مرتاحاً للغاية لعدم اضطراره للقائه. وقد علم فقط أن العلاقات كانت عاصفة بين السيد ووريثه، بل إن هذا الأخير ينوي المطالبة بحصته في الأرض، كما تجيز له التقاليد.

ثم أصرت لميا على اصطحاب إبنها لمقابلة الشيخ الذي احتضنه بين ذراعيه، كما كان يفعل في طفولته، وضمه إلى صدره، قبل أن يتأمل وجهه. كان التأثر بادياً على ملامحه، ولكنه لم يمنعه من القول:

- يجب أن تحلق هذه اللحية يا ابني، لأنها عشب ضار!

كان طانيوس قد عقد العزم على عدم إبداء ضيقه، فقد توقع هذه الملاحظات. سوف يدعهم يقولون، ويفعل ما يشاء. كان يفضل سماع التعليقات حول هيئته بدلاً من مدرسة القس. وهو سؤال ما كان الشيخ ينوي على ما يبدو أن يطرحه، ولعله رأى أنه من الأفضل الحفاظ على هذه الصلة الواهية مع الإنكليز. فلا أحد كان يرغب أصلاً بإثارة هذه المسألة الشائكة، ولا حتى بونا بطرس الذي اكتفى بالانفراد بقريبه، واستحلفه أنه لن يعتنق يوماً الهرطقة.

صادف غداة عودته يوم الأحد، وقد حضر الفتى القداس؛ فتحقق الجميع من أن طريقته في رسم إشارة الصليب أمام صورة العذراء والطفل لم تتبدل، فاطمأنوا إلى أنه لم " يتأنكلز " من هذه الناحية.

لمح طانيوس، لدى خروجه من الكنيسة، قرب الساحة، البائع الجوال يجر بغله المحمل بالخردوات. فهتفت الخورية: "نادر الكافر يتدبر أمره دائماً لملاقاتنا بعد انتهاء القداس. لا بد

أن ضميره مثقل بالآثام بحيث لم يعد يجرؤ على الدخول إلى بيت الرب".

- لا تخطئي الظن يا خورية، فأنا أحاول جاهداً الوصول في الموعد، ولكن بغلي لا يريد. وحين يسمع الناقوس من بعيد، يحرن ويرفض التقدم، ولا بد أن ضميره مثقل بالآثام.

- أو أنه كان شاهداً على أمور كثيرة روَّعته... يا للدابة المسكينة، لو نطقت، لكان مصيرك السجن أو المطهر.

- إنني في المطهر أصلاً. وهل تظنين أننا في الجنة هنا؟

أصبح هذا الحوار تقليدياً، اعتاد عليه المؤمنون كاعتيادهم على جرس الكنيسة الذي كانت سواعد الفلاحين المفتولة تدقه يوم الأحد. و يشعر الجميع، حين يكون البغّال في جولة خارج كفريبدا، أن القداس الذي يأبى حضوره يفتقر إلى نكهة خاصة في غيابه.

وكان هو نفسه يلجأ إلى هذا الحوار اللاذع كالجرس، لاجتذاب الزبائن، ولو نسيت الخورية أحياناً التحرش به، بادر إلى مناداتها واستفزازها لإرغامها على الرد، فيقترب منه المؤمنون، وقد سكنت نفوسهم وارتسمت الابتسامة على شفاههم، ويحلُّون أكياسهم.

غير أن بعض المؤمنين كانوا يبتعدون مع عائلاتهم، ممتعضين لمشهد الخورية التي تهزر بتسامح مع ذلك الشخص الفاسد. ولكن شقيقة لميا كانت تردِّد دائماً فلسفتها الهادئة: "يجب أن يكون في كل ضيعة مجنون وكافر!".

وفيماكان الزبائن يتدافعون حول نادر في ذلك اليوم، أومأ البغّال إلى طانيوس أن يتريث، مربتاً على بطن دابته لإفهامه بأنه قد أحضر له هدية.

أثير فضول الشاب، ولكنه اضطر للصبر ريثما باع البغال آخر

منديل مرقط، وآخر ذرة تنباك قبل أن يقترب. فأخرج نادر صندوقاً بديعاً من الخشب المصقول يحتوي بكل وضوح على غرض ثمين.

- ولكن لا يجب أن تفتحه هنا. إتبعني!

اجتازا ساحة الضيعة باتجاه التلة المشرفة على الوادي، نحو صخرة تشبه عرشاً ملكياً. أظن أنه كان لها اسم وقتذاك، ولكن لا أحد يذكره منذ اقترانها بذكرى طانيوس.

تسلق الفتى الصخرة، وتبعه نادر الذي كان يحمل الصندوق تحت ذراعه. ولم يفتحه قبل أن يجلس الإثنان ويستندان إلى الصخرة. كان ناظوراً يشبه في حجمه، بعد بسطه، حجم ذراع مشدود، وطرفه بضخامة قبضة طفل.

في أعلى ذلك " العرش" المنحني على طرف التلة حين يلتفت المرء غرباً، حيث يتقاطع الجبل مع خضرة الوادي الداكنة، يتراءى البحر.

- أنظر، هذه إشارة. لكأنه يمر فقط لأجل عينيك!

استطاع طانيوس، وهو يسدِّد ناظوره، أن يلمح في البحر سفينة قد بسطت أشرعتها.

لا ريب أن السطور التالية من " حكمة البغال" تلمح إلى هذا المشهد:

" قلت لطانيوس، حين كنا معاً على الصخرة: لو أغلقت الأبواب أمامك مجدداً، إعلم أن حياتك لم تبلغ نهايتها، بل أولى حيواتك فحسب، وأن حياة أخرى تتلهف للبدء. فأبحر على متن سفينة، لأن هناك مدينة تنتظرك.

ولكن طانيوس كفَّ عن ذكر الموت، كانت البسمة في قلبه، وشفتاه تردِّدان اسم امرأة".

تمتم: "أسما"، وندم في الحال. أيبوح هكذا بسره إلى نادر، أكبر ثرثار في الجبل والساحل؟

طانيوس وأسما.

كان مقدَّراً لغرامهما شبه البريء ألا يظل طويلاً في الخفاء، ولكن لسان البغّال لا علاقة له بالأمر.

II

لم يشأ طانيوس إحاطة سره بالكتمان بدافع الحياء فحسب. كان قد تصالح للتو مع الشيخ، وجريس، والضيعة، فكيف بوسعه الاعتراف بحبه لابنة " سارقهم"، أو ذلك الذي حكموا عليه بالمنفى؟

منذ ذلك اليوم، قبل سنتين، لما صادف ابن لميا روكز وموكبه على الطريق، واختار أن يلقي عليه التحية، تخللت علاقتهما لحظات من المودة والجفاء في آن معاً. وحين قرَّر طانيوس الابتعاد عن الضيعة، ورفض " والديه " نوعاً ما، أحس بالتآلف مع الوكيل السابق؛ ولكن الفتى بالمقابل تضامن، في خضم الخلاف مع البطريرك بشأن المدرسة الإنكليزية، مع الضيعة وشيخها، وتضايق من كلام الرجل المنبوذ. وقرر ألا يعاشره بعد اليوم، ولم يفكر بزيارته خلال الأشهر الأولى من إقامته عند القس.

إلا أنه لمحه من بعيد، محاطاً بحراسه كالعادة، بعد ظهر أحد الأيام، وقد خرج يتنزه بعد الدروس على الطريق بين السهلين وديرون. انتابت الفتى للوهلة الأولى الرغبة بسلوك أحد الدروب تحت الشجر، ثم عدل عن رأيه - " لماذا ألوذ بالفرار كابن آوى

يخشى ظله؟" - وتابع طريقه، مصمِّماً على التصرف بكياسة، إنما بدون تلكؤ.

ولكن روكز لمحه، وترجل من صهوة حصانه، وهرع صوبه فاتحاً ذراعيه:

- طانيوس، يا ابني! قد فقدت الأمل برؤيتك. ولحسن الحظ أن الصدفة تهزأ من تحفظاتنا...

اصطحبه بالقوة تقريباً، وجال به في أرجاء داره التي كان يواصل توسيعها، وكذلك إلى معصرة الزيتون الجديدة، والقزازتين، وحقول أشجار التوت الأبيض، مسهباً في الشرح عن موعد قطاف الأوراق للحصول من الديدان على أفضل أنواع الحرير... وقد اضطر الفتى للإفلات من ثرثرته والإصرار على العودة إلى الضيعة في ساعة غير متأخرة، إنما ليس قبل أن يقطع له وعداً بالرجوع يوم الأحد القادم لتناول الغداء، والذهاب في جولة أخرى...

كان الجميع يعلمون أن لا فرحة عند روكز تفوق فرحته باصطحاب ضيوفه في جولة على أراضيه. ولكنه لم يكن يستعرض أمام طانيوس ثروته فحسب؛ ولعله فعل ذلك في المرة الأولى، وإنما ليس بدافع التبجح والتفاخر في المرات التالية، ومع كل هذه الشروح الصبورة، لا سيما قرب القزازتين، ووسط الرائحة الكريهة للديدان المتعفِّنة، شعر الفتى بأنه محاط بعناية متجددة تأثر بها.

كانت أسما غالباً ما ترافقهما في نزهاتهما. وكان طانيوس يمد لها يده أحياناً لمساعدتها على القفز فوق أجمة مليئة بالشوك، أو بركة ماء؛ و عندما تكون الجلول المزروعة غير عالية،كانت الفتاة تقفز كالرجال، من جل إلى آخر، وتحط على صدر والدها، أو كتف طانيوس، في لحظة خاطفة، بالقدر الكافي للانتصاب على قدميها.

كان الفتى لا يبدي ممانعة، ولكنه ينسى كل هذه التفاصيل لدى عودته إلى بيت ستولتون. قلما كان يخاطب هذه الفتاة، ويتحاشى التحديق إليها، وإلا شعر بخيانة ثقة مضيفه. ألأن الأمر كان يتعلق،كما لاحظ القس، "بمجتمع يحتِّم فيه الاحترامُ الشديد للنساء تجاهلَهن؟"، ويبدو لي، في ما يتعلق بطانيوس، أن الأمر كان يتعلق، تحديداً، بيفاعه وحيائه.

لم يقابل طانيوس أسما ثانية إلا يوم الأحد السابق لعودته إلى الضيعة ولقائه بنادر على الصخرة. كان قد قصد روكز ولم يجده في الدار. ولكنه دخلها، نظراً لاعتياده على المكان، وجال في أرجائها لمعاينة أعمال البناء. كان الوكيل السابق يبني مضافةً تليق بقصر منيف وبطموحات صاحبها على وجه الخصوص، لأنها كانت أرحب من قاعة الأعمدة في قصر الشيخ الذي يريد أن يكون لم تكن المضافة قد اكتملت بعد، وقد غطى المرصِّعون الجدران بالخشب الدمشقي، ولكن الأرض خلت من التبليط، والنافورة التي سوف تتوسط المضافة ما زالت شكلاً مثمن الاضلاع مرسوماً بالطبشور.

كان طانيوس واقفاً وسط المضافة، حين وافته أسما. راح الإثنان يتأملان بإعجاب مهارة الصدافين. كانت الأرض مليئة بالجرادل، والخرق، والمربعات الرخامية المكدَّسة، وسلة من الأدوات الحادة التي كادت الفتاة أن تصدمها بقدمها. فأمسك طانيوس بيدها لئلا تقع. وبما أنها كانت على وشك التعثر في كل خطوة، ظل ممسكاً يدها بحزم.

كان الإثنان يتجولان منذ بعض الوقت في أرجاء المضافة، ويتأملان السقف بانبهار، وإذ بصوت خطى يتناهى إلى مسامعهما قادماً من جهة الرواق.

سحبت أسما يدها بسرعة.

- قد يلمحنا أحدهم!

التفت طانيوس نحوها.

كانت في الثانية عشرة، وقد أصبحت امرأة، بشفتيها المرسومتين، وعطر الزنبق البري الذي يفوح منها.

استأنفا جولتهما، ولكنهما كانا لا يشاهدان ما يزعمان تأمله. ولما ابتعدت الخطى في الرواق، تقاربت أيديهما. لم تكن الأيدي التي كانت تتعانق. فقد أحس طانيوس بأن يد أسما دافئة ومرتعشة كجسد عصفور، كذلك الفرخ الذي هوى من العش، واحتضنه في أحد الأيام في راحة يده، ولاح له مذعوراً في هذه اليد الغريبة، ومطمئناً لأنه لم يعد وحيداً.

نظراً معاً إلى الباب ثم الواحد إلى الآخر. وغض كل منهما الطرف، ضاحكين بانفعال. ثم عاود كل منهما النظر إلى الآخر، وأغلقا عينيهما. وكانت أنفاسهما تتلمس الطريق في العتمة.

تلامست شفاهكما وتباعدتا
كأنكما بددتما نصيبكما من السعادة
وخشيتما التعدي على نصيب الآخرين

هل أنتما بريئان؟ ومما تتحصَّن البراءة؟
فالخالق نفسه نصح بذبح الخراف
في الأعياد،
وليس الذئاب...

لو تسنى لطانيوس أن يطالع، في تلك الأيام، أبيات البغّال الكافر، للعن ثانية " حكمته المتشائمة". ولكان محقاً في ذلك لأنه سوف يتذوق طعم السعادة في دار أسما. هل كانت تلك

السعادة عابرة؟ كل الأفراح إلى زوال، سواءً دامت أسبوعاً أم ثلاثين عاماً، ويذرف المرء الدموع نفسها متى حلَّ اليوم الأخير، ويتعذب من أجل الحصول على يوم آخر.

كان يحب هذه الفتاة، ووالدها يبدو راضياً عن هذا الحب. وصار بعض الكلمات يكتسب دلالة مختلفة، فحين يدعوه روكز: "يا ابني!"، لم يكن يعني بها " الإبن"، بل " الصهر"، " الصهرالعتيد" . كيف لم يتنبه لذلك من قبل؟ فلئن كان الوكيل السابق يحدثه عن أعماله بهذا الشكل، فلأنه يرى فيه حتماً الزوج المقبل لابنته الوحيدة. في غضون عام، سوف تصبح في الثالثة عشرة، وهو في السادسة عشرة، يناهز السابعة عشرة، وبوسعهما إعلان خطوبتهما، والزواج خلال عامين، ليرقدا الواحد قرب الآخر.

تعززت لديه هذه الانطباعات خلال زياراته لدار روكز في الأسابيع اللاحقة. كان مضيفه يبادره، على سبيل المثال، فجأةً: "عندما ستدير بنفسك هذه المسألة. . . "؛ أو كذلك، وبدون لف ودوران، "عندما ستعيش في هذا البيت"، يقولها عفوياً كأن المسألة محسومة.

لاح له الغد مرسوماً سلفاً، وبأكثر الأيادي عطفاً، لأنها كانت تمنيه بالحب، وسعة العلم، والثروة كمكافأة.

ما هي العقبة التي كانت تعترض طريقه؟ جريس ولميا؟ سوف ينجح في الحصول على موافقتهما، أو يضرب بها عرض الحائط. الشيخ؟ كان يعلم علم اليقين أنه لن يكون راضياً على زواجه بابنة خصمه، ولكن ما حاجته إلى رضاه؟ لم تكن دار روكز تقع أصلاً في مقاطعته، وطالما نجح الوكيل السابق في الوقوف له بالمرصاد طوال هذه السنوات، فلم الخوف؟

كان طانيوس مطمئناً، ولكنه سوف يستعيد قلقه وهو يراقب " حماه" عن كثب.

اقتنع الشاب بأن والد أسما لم يعد رجلاً منفياً يسعى لرد الاعتبار بل عدواً لدوداً للشيخ، ونداً له لا سيما أنه انبهر بثروة روكز، وأرضه التي كانت تتوسع، وفخامة داره، ورسائل الحماية التي كان يستعرضها، وربما هجومه العنيف، أكثر من أي شيء آخر، ضد الإقطاعيين.

وهذا ما كان روكز يطمح إليه، وما يتظاهر به حتى ذلك الحين. فبفضل الثروة التي جمعها، كان قد أصبح كذلك أصلاً، ولكن الأمور الأخرى ما زالت تنقصه. فعلى مر السنين، تدهورت ببطء أحوال سيد كفريبدا الذي كان طامعاً بالملذات أكثر من طمعه بالمال، فشحَّ المال في خزينته، ولئن سمح التدخل الملائم للموفد الإنكليزي بمواجهة سداد مبلغ استثنائي، فقد كانت الضرائب السنوية التي تثقل كاهل الأهالي في سنوات الحرب الأخيرة تدفع بشق النفس. وفي قاعة القصر الكبرى، أضحى بعض الأعمدة مبقعاً جراء الماء الذي كان يرشح من السقف، فيما كان روكز الذي تزدهر أحواله يوماً بعد يوم بفضل تربية دود القز قد أحضر أمهر الحرفيين لتشييد مجلس يليق بالباشوات ويستوعب مائة وعشرين زائراً بسهولة.

ولكن كان يجب أولاً أن يأتي هؤلاء الزوار... فكلما اتسعت مضافة روكز، تجلى خواؤها للعيان، وكلما زاد بهاؤها، ظهر عدم جدواها. وقد أدرك طانيوس تلك الحقيقة أخيراً، وحين باح له الوكيل السابق في أحد الأيام بمكنونات قلبه، كانت مكنونات قلب إنسان منبوذ.

- كان البطريرك يحميني من الشيخ، وقد تصالح معه الآن. لقد ذهبا معاً لزيارة الأمير، كما لو أنهما يريدان حرماني من حاميَّ الثاني. ومنذ ذلك الحين، أرقد كل مساء معتقداً أنها ليلتي الأخيرة.

- وحراسك؟

- ضاعفت أجورهم الأسبوع الماضي. ولكن يهوذا كان حاضراً بين الرسل الإثني عشر... أصبح والي مصر، أطال الله عمره ووسَّع امبراطوريته، ملاذي الأخير! ولكن همومه كثيرة تتجاوز شخصي...

" نزولاً عند إلحاح الخواجة روكز، وكيل القصر السابق، أنشأت القوات المصرية في ديرون مركز قيادة يضم مائتي جندي، وصادرت لإيوائهم ثلاثة دور فسيحة مع حدائقها، وكان الضباط يقيمون في هذه الدور، والجنود تحت الخيام. وحتى ذلك الحين، لم تكن جيوش الباشا قد اقتربت من نواحي ضيعتنا، إلا في غزوات عابرة، بينما كانت مستقرة أصلاً في معظم قرى الجبل الكبرى.

" وسوف تنتشر دورياتهم صبحاً ومساءً في شوارع ديرون، والسهلين، وكفريبدا...".

ويفيد الراهب إلياس عن هذه الرواية التي ما زال الأهالي يتناقلونها حتى اليوم، ولكنها تفتقر إلى الصدقية بنظري، فلا ريب أن روكز عاش بضع سنوات في مصر، وكان يجيد التحدث بلهجتها، وتمكن من الحصول على بعض الحماية، ومنها رسالة الحماية الشهيرة؛ أما أن يصل به المطاف إلى تحريك جيوش الباشا على هواه... فهذا أمر محال. ولئن اقتربت الجيوش المصرية من ضيعتي، فلأنها قررت الإنتشار تدريجياً في كل أنحاء الجبل لإحكام قبضتها.

هذا، وكان من الواضح أن والد أسما قد اعتبر الأمر بمثابة نعمة، واستجابة لصلواته، وفرصة للخلاص. وربما أفضل من ذلك قليلاً...

III

كان طانيوس يزور والد أسما في أحد أيام كانون الأول وإذ بعادل أفندي، قائد حامية ديرون، يقبل وبرفقته ضابطان يعتمران قلنسوة من اللباد الأخضر، وقد أرسلا لحيتين كثتين ولكنهما مشذبتان. ساورت الشاب للوهلة الأولى مشاعر الريبة والقلق، ولكن مضيفه أسرَّ له، هاشاً باشاً:

- إنهم أصدقاء، ولا تنقضي ثلاثة أيام إلا ويأتون لزيارتي.

غير أن روكز أشار إلى أسما بالانصراف، فليس من المستحسن قط أن تجلس فتاة في حضرة جنود.

وبعد اتخاذ هذا التدبير الاحترازي، استقبلهم استقبالاً حاراً، وأعلن لطانيوس أن هؤلاء الضباط بمثابة "الأشقاء، لا بل هم أكثر من أشقاء "؛ وقدم لهم الفتى على أنه " أعز إلى قلبه من ابنه ".

يسخر القس ستولتون في وصف مفصل لهذا اللقاء، وهو وصف مستوحى مما أفاده به تلميذه فور عودته إلى السهلين، ولسبب سوف نعرفه عاجلاً: "كان مجرد لقاء عائلي".

لاحظ طانيوس على الفور أن لا أحد من هؤلاء الضباط في الجيش المصري كان مصرياً؛ فعادل أفندي كان من كريت،

ومعاونه الأول كان نمساوياً، والثاني شركسياً. ولا عجب في ذلك، لأن محمد علي نفسه كان قد ولد في مقدونيا لأبوين ألبانيين. ولكنهم كانوا يتكلمون العربية بلهجة مصرية، ويظهرون الولاء لسيدهم وسلالته. ولمثله العليا كذلك. فلدى سماعهم، لا يظن المرء أن الأمر يتعلق بغزو يقومون به بل بكفاح لنهضة شعوب المشرق. كانوا يتحدثون عن التحديث، والعدالة، والنظام، والكرامة. وراح طانيوس يصغي إليهم باهتمام، مومئاً رأسه برفق أحياناً علامة على التأييد الصادق. وكيف لا يفعل، وهؤلاء الرجال الشجعان يندوون بإهمال العثمانيين، ويتحدثون عن إنشاء المدراس في كل مكان، وتأهيل الأطباء والمهندسين.

ولقد انبهر الفتى كذلك بتعهد القائد وضع حد لكل شكل من أشكال التمييز بين الطوائف الدينية، وإلغاء كل الامتيازات... وحين بلغ الحديث هذا الحد، رفع روكز كأسه في صحة الضباط، وانتصار سيدهم، وأقسم أن ينتف شاربي الشيخ إسهاماً في إلغاء الامتيازات. ولم يجد طانيوس حرجاً في ارتشاف جرعة من العرق، وهو يتخيل المشهد - ولكان أضاف عن طيب خاطر لحية رعد؛ وجرعة أخرى حين تعهد عادل أفندي بالمرة " الغاء امتيازات الأجانب".

واسترسل قائد الحامية على الفور في هجاء متحمس، بالأدلة والقرائن، وكان من الواضح أن المسألة تحز في قلبه.

- البارحة، كنت في جولة عبر القرى، وأينما قادتني مطيتي، شعرت بنفسي في بلدي. كان بوسعي الدخول إلى كل البيوت التي كانت مفتوحة لاستقبالي، إلى أن مررت أمام بيت قس إنكليزي، فوجدت على بوابته علم ملكه، وشعرت بالإهانة.

لم يعد طانيوس قادراً فجأة على ابتلاع العرق الذي كان

يحتسيه، أو يجرؤ على رفع ناظريه خوفاً من افتضاح أمره. فالضابط لم يكن يعلم، على ما يبدو، أو بوسعه أن يفطن إلى أن هذا البيت المحصن بعلم أجنبي كان بيته.

وأصر عادل أفندي: "أو يعقل أن الأجانب أكثر حظوة واحتراماً ورهبة من أبناء البلد؟"

وإذ تذكر أنه ليس بدوره إبن البلد بكل معنى الكلمة - ولا ابن مصر، ولا ابن هذا الجبل الذي غزاه-، فقد رأى فائدة في الإفصاح عن قصده:

- سوف تقولون إنني لم أبصر النور في هذه البلاد (وما كان أحدهم ليجرؤ على تذكيره بالأمر). ولكنني كرست نفسي لخدمة هذه السلالة المجيدة، واعتنقت لغتها ودينها وزيها، وحارِبت تحت لوائها. أما هؤلاء الإنكليز فهم يعيشون بيننا، إنما يسعون فقط لخدمة سياسة إنكلترة، ولا يحترمون سوى العلم الإنكليزي، ويخالون أنه يضعهم فوق قوانين بلادنا...

سارع روكز إلى القول جهاراً إنه لا مجال للمقارنة على الإطلاق بين عادل أفندي وهؤلاء الأغراب، وأن الإنكليز من أكثر الأعراق صلافة، وأن سعادته ليس غريباً بل شقيقاً. ولم يعلق طانيوس من جهته.

وسوف يذكر القس: "ولكن تلميذي ظل محتاراً أكثر مما شاء الاعتراف به لي".

" فمن ناحية، كان يكن لي وللسيدة ستولتون عاطفة صادقة، وكان متعلقاً بمهمتنا التربوية. وفي الوقت عينه، لا يستطيع عدم التسليم بأن الأجانب يستفيدون من امتيازات لا يتمتع بها أهل البلاد. كان يشعر بانتهاك مفهومه للعدل قليلاً.

" شرحت له، إذ أدركت حيرته، أن الامتيازات مشينة عموماً في مجتمع قائم على القانون، وبالعكس، ففي مجتمع يسود فيه

التعسف، تشكل الامتيازات أحياناً حاجزاً أمام الاستبداد، فتتحول، على نحو يثير المفارقة، واحات من القانون السليم والعدل. وهذا هو بكل تأكيد وضع المجتمع الشرقي الراهن، سواءً كان عثمانياً أم مصرياً. وليس المشين في الأمر ألا يتمكن هؤلاء الجنود من الدخول بحرية إلى إرساليتنا في السهلين، أو إلى بيت رجل إنكليزي، بل المشين فعلاً أنهم يعطون لأنفسهم الحق في الدخول كما يحلو لهم إلى أية مدرسة، وأي بيت من البيوت. وليس المشين في الأمر أنهم لا يستطيعون اعتقال أحد الرعايا البريطانيين بل أنهم يتصرفون على هواهم بكل الأشخاص الذين لا يتمتعون بحماية قوة عظمى.

" وختمت مشيراً إلى أن هؤلاء الرجال، لو أرادوا إلغاء الإمتيازات، فالوسيلة السليمة للقيام بذلك لا تكون بإخضاع الأجانب للمصير البائس الذي يعيشه السكان المحليون، بل على العكس بمعاملة كل إنسان بالطريقة التي يعامل بها الأجانب، لأن هؤلاء إنما يعاملون بكل بساطة كما يجب أن يعامل أي إنسان. . .

" أخشى أن أكون قد اندفعت في الكلام، وقد وجهت لي السيدة ستولتون اللوم، إنما يبدو لي أن تلميذي قد تأثر بوجهة نظري".

ولكن القس لم يفلح في إقناع نزيله بتحاشي الذهاب بعد اليوم إلى بيت يتردد عليه الجنود المصريون. وهذا ما كانت تقتضيه الحكمة بلا شك، إنما كانت هنالك ابتسامة أسما، إزاء كل هذه الحكمة، ودرب الغد الذي تضيئه هذه الإبتسامة. ولم يكن طانيوس ليتخلى عنها قط.

لن يثار الموضوع الحساس الذي عكر صفو اللقاء الأول مع الضباط. وفي المرتين أو المرات الثلاث التي صادفهم طانيوس عند روكز، تطرق الحديث على وجه الخصوص إلى وقائع

الحرب، والنصر المحتوم لسيد مصر على السلطان العثماني، ومجدداً إلى إلغاء الامتيازات، إنما امتيازات الإقطاعيين فحسب، مع اهتمام خاص بحالة الشيخ فرنسيس، والمصير الذي ينتظر شاربيه.

لم يجد طانيوس حرجاً في الشرب احتفالاً بهذه الفكرة المبهجة. كان قد توصل إلى ما يشبه التسوية مع ذاته حول مسألة الامتيازات تقضي بالإبقاء على امتيازات الرعايا الأجانب، وإلغاء امتيازات المشايخ، الأمر الذي كان يسمح بمراعاة هواجس القس، وتطلعات والد أسما، إلى جانب ميوله الخاصة.

ألا يوجد بين هذين النوعين من الامتيازات في الواقع اختلاف في طبيعة كل منهما؟ فلئن كانت الاحتكارات الممنوحة للإنكليز تشكل حتى ذلك الحين - وكان طانيوس يقر بذلك - حاجزاً أمام الاستبداد، فالامتيازات المشينة التي كانت تتمتع بها الأسر الإقطاعية، والتي تمارس منذ أجيال بحق الأهالي المغلوبين على أمرهم، لا تفيد قضية من هذا النوع.

كانت هذه التسوية تتلاءم مع قلبه وعقله، فارتاح الفتى إذ توصل إليها، ولم يميز أنَّ بين هذين النوعين من الامتيازات اختلافاً آخر كان يجب أن يكون واضحاً للعيان: فبمواجهة القوى العظمى الأجنبية، لم يكن بمقدور ضباط حاكم مصر سوى كيل الشتائم واللعنات والشمالة ولكنهم يستطيعون ذلك تجاه الشيخ. كان نتف شاربيه أسهل عليهم من نتف فروة الأسد البريطاني.

العبور السادس

وساطة غريبة

كان مقدَّراً للمآسي التي ألمت بضيعتنا أن تتوَّج بفعل شنيع، ينذر بالشؤم: اغتيال البطريرك الثلاثي التبجيل على يدين ليستا معدتين على الإطلاق للقتل.

أخبار الجبل
الراهب إلياس

I

كانت سنة 1838 سنة شؤم منذ بدايتها. ففي الأول من شهر كانون الثاني، وقع الزلزال. وما زالت آثاره في الحجر والذاكرة.

كانت الضيعة تغط منذ أسابيع عديدة تحت طبقة سميكة من الثلوج التي أثقلت ذرى أشجار الصنوبر، وكان الأطفال في باحة المدرسة يغوصون في الثلج أعلى من كواحلهم، ولكن الطقس كان صافياً في ذلك الصباح. فلا سحابة واحدة في السماء. كانت "شمس الدب"، الكثيرة الضياء، بدون حر.

وقرابة الظهيرة، أو قبيل ذلك بقليل، سُمع رعدٌ كأنه زئير يتصاعد من جوف الأرض؛ ولكن الأهالي راحوا يستقرون السماء، هاتفين لبعضهم البعض من بيت إلى آخر. لعله رعد بعيد، أو انهيار ثلجي...

وبعد ثوان معدودة، سُمع رعدٌ آخر، أعنف من الأول. اهتزت الجدران، وألفى الناس أنفسهم خارجاً يصرخون: "هزة! هزة!". هرع بعضهم إلى الكنيسة. وركع بعضهم الآخر في مكانهم، وراحوا يبتهلون عالياً، فيما كان آخرون يقضون نحبهم تحت الأنقاض. ويذكر الأهالي أن الكلاب لم تكف عن العواء

منذ الفجر، وكذلك بنات آوى في الوادي، وكانت تبقى صامتة عادة حتى المساء

وتفيد أخبار الجبل أن " الأشخاص الذين كانوا قرب النبع رأوا مشهداً أرعبهم. فقد كانت واجهة القصر تتصدَّع أمام أنظارهم، والشرخ ينتشر فيها كما بفعل مقصات ضخمة. أشاح بعضهم النظر، إذ تذكروا مقطعاً من الأناجيل، خوفاً من التحول إلى تماثيل من الملح لو تأملوا بعيونهم غضب الرب".

لم ينهار القصر في تلك السنة، ولا انهار أي جناح من أجنحته، بل لم يتأثر كثيراً خلا ذلك الصدع. ومما يدعو للعجب أن الجدار المتصدع ما زال منتصباً حتى اليوم، منتصباً بصدعه، في حين تداعت جدران أخرى من القصر، أقدم أو أحدث عهداً، منذ ذلك الحين. كان منتصباً، وسط العشب البري، وكأنه استُثني لأنه أعلن الكارثة، أو كأن النبؤة لم تتحقق بالكامل بعد.

وفي الضيعة، بالمقابل، أحصيت ثلاثون ضحية.

قال لي جبرايل: "أسوأ ما في الأمر أن بيت البغّال انهار. كان مبنى قديماً تكوَّمت فيه آلاف الكتب من كل الأنواع. كان كنزاً للأسف! ذاكرة جبلنا! وكان نادر في جولة بعيداً عن كفريبدا. ولما عاد بعد أسبوع، ذاب الثلج، وتحلَّلت كل مكتبته في الوحل. ويقال إنه كان يملك بين كتبه...".

لم أعد أصغي إليه، فقد استوقفتني الجملة التي تلفظ بها.

- أسوأ من ذلك، تقول؟ أسوأ من مصرع الضحايا الثلاثين؟

لمعت في عينيه شرارة الاستفزاز.

- أو بالقدر عينه من السوء، على الأقل. فحين تحلُّ كارثة، أفكر بالتأكيد بالناس ومعاناتهم، ولكني أخشى كذلك على معالم الماضي.

- الحجر بقدر البشر؟

- إفهمني، تلك الأحجار المصقولة، تلك الأوراق التي كدَّ عليها المؤلف أو الناسخ، تلك اللوحات المرسومة، تلك الفسيفساءات، إنها كذلك أجزاء من البشرية، وهي بالضبط ذلك الجزء منا الذي نرجو أن يكتب له الخلود. فأي فنان يود البقاء بعد فناء لوحاته؟

بالرغم من الميول الغريبة التي أعرب عنها جبرايل، لم يكن تدمير كتب البغّال السبب في وصف تلك السنة بالمشؤومة. ولا الزلزال أصلاً، فقد كان مجرد نذير. وتفيدنا أخبار الجبل أن "تلك السنة كانت سلسلة من الكوارث والمآسي، حافلة بالأمراض المجهولة، والولادات الممسوخة، والانهيارات الجبلية، ولا سيما المجاعة والابتزاز. فقد جبيت الضريبة السنوية مرتين، في شهر شباط، ثم في شهر تشرين الثاني، ولم يكن ذلك كافياً، فقد تفنَّنت السلطات في مضاعفة الضرائب على الأفراد، ورؤوس الماعز، والمطاحن، والصابون، والنوافذ... وما عاد الناس يملكون قرشاً أسود ولا قرشاً أبيض، لا مؤناً ولا ماشية.

" ولما شاع الخبر بأن المصريين يعتزمون مصادرة الدواب وحيوانات الجر، لم يعد أمام أهالي كفريبدا خيار آخر سوى الإلقاء بحميرهم وبغالهم من أعلى التلة...".

وبالرغم من المظاهر، كانت تلك مجرد خطوة احترازية، كما يفيد صاحب أخبار الجبل، لأن رجال عادل أفندي، فور العثور على الحيوانات ومصادرتها، كانوا يعتقلون صاحبها ويرغمونه على إحضار الدابة " المجندة " بنفسه. ويختم قائلاً: "ليس أسوأ الحكام ذلك الذي يضربك بل الذي يرغمك على أن تضرب نفسك بنفسك".

وفي هذا السياق، يشير الراهب إلياس أن أهالي كفريبدا كانوا يجبرون أنفسهم على عدم مفارقة بيوتهم في ساعات معينة. كان

رجال الباشا يتسكعون في كل مكان، عند المزين، والبقال، وقهوجي البلاطة، للعب الطاولة، وفي المساء، يأتون زمراً، سكارى، للغناء والزعيق في الساحة، والشوارع المتاخمة لها، فأحجم الأهالي عن ارتياد هذه الأماكن، لا بدافع التحدي، بل مرة أخرى بدافع الحذر المتعقل، لأن الجنود كانوا ينادون كل يوم عابر سبيل ويلحقون به الإهانة لأتفه الأسباب.

واعتباراً من أواسط شباط، قرر الشيخ بدوره أن يلزم قصره، بل وامتنع عن الخروج إلى المدخل؛ فقد علم أن سعيد بك، صديقه من ضيعة السهلين، قد أوقفته دورية، فيما كان يتنزه في مقاطعته، وطلبت منه الكشف عن هويته...

غرق سيد كفريبدا بسبب هذه الحادثة في كآبة عميقة. وأمام رعاياه الذين كانوا يصعدون إلى القصر لرؤيته، حاملين شكواهم، ومتوسلين إليه التدخل لدى القائد المصري، كان يواسيهم ويقطع لهم بعض الوعود أحياناً، ولكنه لا يحرك ساكناً. وقد رأى بعضهم في هذا السلوك إقراراً بالعجز، واعتبره بعضهم الآخر دليلاً على الأنانية. " عندما تلحق الإساءة بسليل أسرة عريقة، يعتبر الشيخ نفسه قد تعرض للإهانة، أما عندما يتعلق الأمر بنا، نحن المؤاكرين، الذين نعاني الأمرين... ".

اضطر الخوري لمعاتبته:

- شيخنا يتكبر على المصريين، ولعل هؤلاء يعتبرون موقفه احتقاراً لهم، مما يشجعهم على المضي في غيهم.

- وماذا يجدر بي أن أفعل يا بونا؟

- دعوة عادل أفندي إلى القصر، وإظهار بعض التقدير لشخصه...

- لشكره على كل ما فعل، أليس كذلك؟ إذا كانت هذه إرادة الشعب، فلن أعارضها. سوف يكتب له الخواجا جريس

اليوم بالذات رسالة، يخبره فيها أنني أتشرف باستقباله ولقائه. وسوف نرى.

في اليوم التالي، قبيل الظهر، وصل جندي يحمل الجواب الذي فتحه جريس بإشارة من سيده، وقرأه بصمت. كانت المضافة تضم الجمع المهيب في المناسبات العصيبة.

وقد لمح الجميع أن وجه زوج لميا قد احتقن فجأة، ولم يكن العرق السبب الوحيد هذه المرة.

- لا يريد عادل أفندي أن يأتي يا شيخنا.

- أفترض أنه يريد أن أذهب بنفسي إلى معسكره...

- لا، إنه يريد أن يوافيه الشيخ بعد ظهر اليوم... عند روكز.

تركزت نظرات الجميع على قبضة السيد التي أطبقت على المسبحة.

- لن أذهب. لو اقترح عليَّ الذهاب إلى ديرون، لقلت: إنها مباراة كباش، نلين قليلاً، ثم ننتصب. ولكنه لا يسعى للوفاق في هذه الحالة، وإنما غايته إذلالي فقط.

تشاور أهالي الضيعة بصمت، ثم تكلم الخوري باسمهم:

- إذا كان هذا اللقاء ضرورياً لتبديد سوء الفهم وعدم تعرضنا لمزيد من المعاناة...

- لا تلح يا بونا، لن تطأ قدماي عتبة ذلك البيت الذي شيد بالمال الذي اختلسه مني.

- حتى لإنقاذ الضيعة والقصر؟

كان رعد هو الذي طرح هذا السؤال. فحدجه والده بصمت أشبه بصمت الموت. رمقه بعينين قاسيتين، ثم غاضبتين ومزدريتين، سرعان ما التفتتا نحو الخوري الذي خاطبه الشيخ، بعد برهة، بنبرة متعبة:

- أعلم يا بونا أنها الكبرياء، أو سمِّها كما تشاء، ولكنني لا أستطيع أن أتصرف غير ذلك. فليأخذوا القصر والضيعة، فما عدت أريد شيئاً من هذه الحياة، ولكن ليتركوا لي كبريائي. سوف أموت ولن أطأ عتبة بيت ذلك اللص. ولو وضع موقفي الضيعة في خطر، فاقتلوني، وانزعوا سترتي، وألبسوها لابني ليحتل مكاني، لأنه سوف يقبل الذهاب عند روكز.

انتفخت العروق في جبينه، وتحجرت نظرته، فلم يعد أحدهم يجرؤ على الكلام.

في هذه اللحظة، خطرت فكرة ببال جريس الذي تشجع بفضل الكحول التي امتزجت بدمه طوال النهار:

- لم الحديث عن القتل والحداد؟ أطال الله عمر شيخنا، وأبقاه فوق رؤوسنا، ولكن لا مانع من انتداب ابنه ووريثه في هذا اللقاء.

لم يعلق الشيخ الذي كان ما زال مغتاظاً من مداخلة رعد، واعتبر سكوته علامة الرضا، وانسحب إلى غرفته مع مسبحته.

كان اللقاء في بيت روكز مقتضباً، وهدفه الوحيد زكزكة شاربي الشيخ، فقد اعتبر الجميع أن قدوم ابنه إهانة كافية. وتمكن رعد من التأكيد بسبعة أساليب مختلفة أن الضيعة تكن الولاء المطلق لوالي مصر والأمير، حليفه المخلص. ووعد الضابط أن يكون رجاله بعد اليوم أقل فظاظة مع أهل الضيعة. ثم استأذن بعد نصف ساعة، متذرعاً بموعد آخر.

أما الشيخ الشاب الذي لم يكن في عجلة من أمره لمواجهة والده، فقد قبل القيام بجولة في المزرعة متأبطاً ذراع " اللص"، و" الخسيس"، و" المنبوذ"...

وسوف ينشأ بين الرجلين، إن لم نقل صداقة، فعلى الأقل تواطؤ. وفي الوقت عينه، تكشَّف علناً الصراع الذي كان كامناً

حتى الحين بين رعد ووالده. وطوال أسابيع، كان القصر ساحة صراع بين بلاطين متنافسين، وكاد أكثر من مرة أن يصل إلى العراك بالأيدي.

ولكن هذا الوضع لم يستمر على هذا المنوال. فسرعان ما خابت آمال الأتباع الذين التفوا حول الشيخ الشاب على أمل أن يظهر المزيد من الحكمة بالمقارنة مع أبيه في مواجهة المصريين، لأن خفته ومزاجيته كانتا لا تخفيان على أحد. فتقلصت دائرة الموالين من حوله إلى خمسة أو ستة من رفاق السوء السكارى واللصوص الذين كان أهالي الضيعة يحتقرونهم. ويجب القول كذلك إنه لم يثر النفور بسبب قلة حيلته وتضارب مواقفه فحسب بل كذلك بسبب لهجته، تلك اللهجة المقيتة التي يتكلم بها "جراد " الجرد، والتي لم يفلح قط في التخلص منها، وكانت تقف حاجزاً بينه وبين رعاياه.

لم يكن طانيوس راضياً على الإطلاق عن العلاقة الناشئة بين روكز ورعد. كان بوسعه الإقرار بأن يكون هذا الأخير أداة في الصراع مع الشيخ، ولكنه لا يرغب البتة أن يتفهم ذلك الأمر. لم تتغير ريبته إزاء رفيقه السابق في المدرسة، ولم يفوِّت فرصة لتحذير والد أسما منه. وعندما كان يصل أحياناً إلى بيت روكز، قادماً من مدرسة القس، ويلمح أمام الدار جياد رعد ومرافقيه، يمضي في حال سبيله، وإن ترتب على ذلك أن يحرم من رؤية أسما أسبوعاً كاملاً.

وفي إحدى المرات، أخذ على حين غرة. فقد جاء في الصباح، ووجد صديقته بمفردها في المضافة، فجلسا معاً لبعض الوقت. وفيما كان يستعد للانصراف، صادف روكز ورعد، بثيابهما المتسخة، وكان رعد يستعرض ثعلباً صغيراً مضرجاً بالدماء.

- أرى أن الصيد كان موفقاً.

كانت نبرة طانيوس مزدرية عن قصد، وقد أظهر ازدراءه جلياً بمواصلة السير أثناء مخاطبة الرجلين. ولكنهما لم يعربا عن الاستياء على الإطلاق، بل عرض عليه روكز، بكثير من الدماثة، البقاء لتناول بعض الفاكهة برفقتهما. فاعتذر طانيوس، متذرعاً بأنهم ينتظرونه في الضيعة. وخلافاً لكل التوقعات، اقترب منه رعد، ووضع يده على كتفه:

- وأنا بدوري سوف أعود إلى القصر، لأنني بحاجة للاغتسال والراحة، وسوف نترافق.

لم يكن بوسع طانيوس أن يرفض، بل وافق على استعارة مطية، وألفى نفسه يسير جنباً إلى جنب رعد واثنين من أصدقائه الأوباش.

قال الشيخ بنبرة رقيقة: - كنت بحاجة للتحدث إليك.

كان طانيوس قد لاحظ ذلك، فابتسم ابتسامة لبقة.

- أنت صديق الخواجا روكز، وقد أصبحت بدوري صديقه، وآن الأوان لننسى خلافاتنا الصبيانية. لقد كنتَ مجتهداً، وكنتُ مشاكساً، ولكننا كبرنا نحن الإثنين.

كان طانيوس في السابعة عشرة، ملتحياً، ورعد في الثامنة عشرة، وقد التحى عثنوناً على طريقة البطريرك، لكن لحيته كانت سوداء وخشنة. حدق إليها طانيوس قبل أن يشيح ببصره ساهماً إلى الطريق.

- أخبرني روكز أنه يتحدث إليك دائماً بثقة كبيرة، ويصغي إلى آرائك بخشوع، ويرى أنني يجب أن أحدثك وأسمعك بدوري.

كان يعتمد نبرة البوح والمسارَّة، ولكن الرجلين اللذين يرافقانه كانا يسترقان السمع إلى كل كلمة من الحديث. فبدرت عن إبن لميا حركة استسلام.

- بالطبع، لا شيء يمنعنا من المصارحة...

- كم أنا سعيد لأننا عدنا صديقين!

صديقين؟ عدنا صديقين؟ كانا يمضيان، طوال أشهر، إلى المدرسة نفسها كل صباح، ويسلكان الطريق عينها، ولم يتبادلا تقريباً كلمة واحدة! ولم يكن طانيوس يشعر نحوه في هذه اللحظة بالصداقة، بل يقول في سرِّه: "إنه مزعج في فظاظته، ومزعج في دماثته"... وفي هذه الأثناء، كان رعد يبتسم راضياً:

- أما وقد أصبحنا صديقين، أصدقني القول، هل في نفسك شيء تجاه ابنة روكز؟

كان هذا هو التفسير لكل هذه اللباقة والكياسة. لم يكن طانيوس يرغب في البوح لا سيما أن تابعي الشيخ قد اقتربا منهما، بسحنتين تلوحان كسحنة الكلاب الجائعة.

- لا، ليس في نفسي شيء تجاه هذه الفتاة. هل يمكن أن نغير الحديث؟

وشدَّ على اللجام، فجمحت مطيته.

أجاب رعد: "بالطبع، سوف نغير الحديث على الفور، إنما كنت بحاجة للاطمئنان منك حول أسما. فقد طلبت يدها للزواج".

II

أول رد فعل عند طانيوس هو شعوره بالازدراء والذهول. كان ما زال يحتضن في عينيه نظرة أسما، ويحمل على أصابعه أثر مداعباتها، ويعرف كذلك كيف ينظر روكز في قرارة نفسه إلى رعد. أجل، كان يريد استغلال هذه الدمية لإضعاف والده، ولكن الوكيل كان أذكى من الارتباط به إلى الأبد.

ومع ذلك، لما عاد الشيخ الشاب للسير إلى جانبه، لم يتمالك طانيوس نفسه من السؤال، بنبرة حاول أن تبدو مرتاحة:

- وماذا أجاب؟

- روكز؟ لقد أجاب كما يفترض بأي رجل من العامة يشرفه سيده بإبداء الاهتمام بابنته.

لم يعد طانيوس يطيق الكلام مع هذا الشخص الكريه، فقفز من ظهر المطية التي أعاره إياها، وعاد أدراجه، إلى بيت روكز مباشرة. وجد هذا الأخير متربعاً في مكانه المعهود وسط مضافته الجديدة، وحيداً، بدون زوار أو حراس أو خادمات، محاطاً بدخان التنباك والقهوة. كان يلوح ساهماً، ومحبطاً بعض الشيء. ولكنه استرجع مرحه حالما رأى طانيوس، واستقبله بالأحضان مع العلم أنهما افترقا منذ ثلاثة أرباع الساعة فقط:

- كم أنا سعيد لرجوعك! لقد اصطحبك الشيخ رعد بالقوة، وكنت أريد البقاء معك بهدوء والتحدث إليك كالإبن الذي رزقني به الله بعد طول انتظار.

وأمسك بيده.

- لدي نبأ عظيم. سوف نزوِّج أختك أسما.

سحب طانيوس يده، وتراجع جسده حتى التصق بل كاد ينسحق على الحائط. وتكاثف الدخان المنبعث من كلام روكز، وأصبح خانقاً.

- أعلم ما عانيناه معاً من المشايخ، ولكن رعد هذا ليس كأبيه. والدليل على ذلك أنه وافق على زيارة هذا البيت من أجل مصلحة الضيعة، فيما ظل الآخر على عناده. ولكن الشيخ العجوز لا يهمنا، فلدينا الوريث الذي يقف إلى جانبنا، لدينا المستقبل.

استعاد الشاب رباطة جأشه قليلاً. وانغرزت نظرته في عيني روكز الغائرتين، وبدا له هذا الأخير كأنه يتداعى.

- كنت أظن أن المستقبل عندك هو القضاء على المشايخ...

- أجل، هذا رأيي ولن أحيد عنه قيد أنملة. يجب أن يختفي الإقطاعيون، وسوف ترى، سأعمل على إخفائهم عن الوجود. ولكن، أليست أفضل وسيلة لاقتحام القلعة التأكد من وجود حلفاء داخلها؟

لم يعد طانيوس يرى في وجه روكز سوى آثار الجدري التي كانت تغور وتغور كآبار من الديدان.

خيمت لحظة صمت. وعبَّ روكز نفساً من نارجيلته. لمح طانيوس الجمر يتوهج، ثم يخبو.

- أحب أسما، وهي تبادلني الحب.

- لا تقل هذه الترهات، فأنت إبني، وهي ابنتي، ولن أزوج إبنتي بابني!

كان الرد يفوق قدرة الشاب على التحمل، كان رداً مليئاً بالنفاق.

- لست ابنك، وأريد التكلم مع أسما.

- لا تستطيع أن تكلمها، فهي تستحم وتستعد. وغداً، سوف يعلم الناس بالخبر، ويأتون للمباركة والتهنئة.

انتفض طانيوس، وخرج من المضافة راكضاً، عبر الرواق؛ إلى أن وصل إلى الباب الذي كان يعلم أنه باب غرفة أسما. ففتحه، ودفعه بحركة عنيفة. كانت الفتاة تجلس عارية في مغطسها النحاسي، وبقربها خادمة تسكب لها الماء الساخن على شعرها. فأطلقت الاثنتان صرخة ذعر، وشبكت أسما ذراعيها على صدرها، وانحنت الخادمة لتناول منشفة.

وقف طانيوس بدون حراك، وقد تسمرت عيناه على ما كان بوسعه أن يلمح من جسد حبيبته. وعندما انقض عليه روكز والحراس الذين هرعوا، وجذبوه إلى الخلف، كانت ترتسم على وجهه غبطة زائفة، وكف عن المقاومة بل لم يحاول رد الضربات.

- لماذا تهلعون؟ لو كنا أخوين حقاً، فلماذا لا يجوز لي أن أراها عارية؟ سوف نرقد كل ليلة في الغرفة نفسها، اعتباراً من هذا المساء، على غرار كل الإخوة والأخوات.

قبض عليه والد أسما من شعره الأبيض.

- لقد احترمتك أكثر مما تستحق، إذ دعوتك ابني. فلا أحد يعلم من تكون. لا أريد أن يكون ولدي أو صهري إبن حرام. ألقوا به خارجاً! لا تلحقوا به الأذى، ولكن إذا لمحه أحد منكم يحوم ثانية حول مزرعتي، فليدق له عنقه!

ثاب طانيوس إلى رشده، كما لو أن جسد أسما العاري قد أزال عن عينيه غشاوة، وكان علامة غضب ضد نفسه، وعلامة ندم، وكذلك سكينة.

لا ريب أنه كان يلوم نفسه لأنه لم يدرك هذه الخيانة سلفاً. فروكز المهووس بالارتقاء الاجتماعي ما كان ليرضى أن تنتهي حياته المهنية حيث بدأت، بتزويج ابنته الوحيدة إلى ابن وكيل - أو،الأسوأ من ذلك، إلى إبن حرام -، طالما بوسعه أن يزوجها بسليل " الحسب والنسب". أما رعد الذي لا بد أن شبح الإفلاس يقض مضجعه يوماً بعد يوم، فكان يرى في الاستيلاء على الثروة الموعودة بها أسما خطوة لا يمكن أن تلقى سوى الترحيب.

في طريق العودة إلى كفريبدا، استرسل طانيوس أولاً في تقريع نفسه على عدم تبصره، ثم راح يفكر ملياً، لا بانتقام طفولي، بل بالطريقة المحددة التي تكفل له الحؤول دون عقد هذا الزواج.

لم يعتبر هذه الفكرة ضرباً من المحال. فلو كان روكز حديث نعمة كالكثيرين غيره، من البرجوازيين أو المؤاكرين الذين ازدهرت أحوالهم، لكان الشيخ وافق على هذا الزواج المعيب. ولكن الوضع كان يختلف بالطبع، فكيف بوسعه الموافقة على هذا الزواج، وهو لم يتنازل ويطأ عتبة " اللص"؟ كان طانيوس يعلم أنه سيجد في الشيخ حليفاً محنكاً وحازماً.

راح يحث الخطى، فيتكشف له في كل خطوة وجع في الساقين، والضلوع، والكتف، والشعر. ولكنه لم يعبأ، بل كان يضع نصب عينيه أمراً واحداً إلى درجة الهوس: سوف يفوز بأسما وإن اضطر للقفز فوق جثة أبيها.

سلك، لدى بلوغه الضيعة، درباً جانبية إلى يمينه، تقود إلى القصر بدون عبور البلاطة، عبر الحقول ثم على مشارف غابة الصنوبر.

وفور الوصول إلى القصر، لم يقصد الشيخ بل قصد والديه.

وطلب منهما في غاية المهابة الإصغاء إليه، منتزعاً منهما سلفاً وعداً بعدم السعي للاحتجاج، وإلا رحل إلى غير رجعة.

ويذكر الراهب إلياس ما قاله لهما، بالنص شبه الحرفي، في أخبار الجبل، وكذلك القس ستولتون على ورقة مفردة تندرج في يومياته لعام 1838، ولكنها كتبت لاحقاً على الأرجح. وأنقل مضمونها لأنه يطابق على ما أظن ما نقله إليه طانيوس نفسه:

" كونا على علم أنني أحب هذه الفتاة، وأنها تبادلني الحب، وأن والدها أوهمني بأنه سوف يوافق على زواجي منها. ولكن روكز ورعد احتالا عليَّ، وقد اعتراني اليأس. وإذا لم أخطب أسما، قبل نهاية الأسبوع، فإما أن أقتل رعد، أو أنتحر، وأنتما تعلمان أنني أستطيع الإقدام على ذلك. فأجابت والدته: "إلا هذا!"، وكانت لم تتجاوز محنة الإضراب عن الطعام الذي نفذه ابنها منذ عامين. فأمسكت بيد زوجها، كما لو أنها تتوسل إليه، وخاطب هذا الأخير الذي كان مضطرباً مثلها، طانيوس قائلاً: "لن يتم الزواج الذي تخشاه، وإذا لم أمنعه، لن أكون والدك!".

لم يكن هذا الغلو في القسم غريباً على أهل البلاد، ولكنه كان مؤثراً، في تلك الظروف - ظروف المأساة الجارية، وولادة طانيوس -، وليس مضحكاً على الإطلاق.

وتفيد أخبار الجبل: "كان القدر يضيق الخناق، وشبح الموت يحوم".

أحس طانيوس بشبح الموت يحوم حوله. لم يكن متأكداً من رغبته بإبعاده، في حين كان جريس، المعروف بجبنه، يبدو مصمِّماً على مواجهة العناية الإلهية واعتراض طريقها.

ويؤكد أهالي الضيعة الذين لم يشعروا يوماً بذرة شفقة نحو هذا الرجل - ومن بينهم " جبرايلي"، والكثيرون غيره من

العجائز - أن عزيمة وكيل القصر كانت فترت لو تضاربت تطلعات طانيوس مع تطلعات الشيخ. ولكن هذا التحليل كان يتغافل عن الانقلاب الذي يجري في أعماق جريس في خريف حياته الحافلة بالإخفاقات والاجترارات. كان الأمر يتعلق بإنقاذ ابنه، وكذلك بإنقاذ كرامته كرجل وزوج، تلك الكرامة المنتهكة منذ وقت طويل.

وفي ذلك المساء، بعيد عودة طانيوس والحديث الذي دار بينهما، قصد جريس الشيخ، فألفاه في بهو القصر الكبير، يهيم بين الأعمدة، وحيداً، حاسر الرأس، بشعره الأبيض المشعث. كان يحمل في يده مسبحة يعبث بحباتها بضربات متلاحقة، كما لو أنه يسبِّح على إيقاع تنهداته.

وقف الوكيل قرب الباب، صامتاً، إلا بحضوره الذي كان يضخِّمه قنديل قريب.

- ما الخطب يا خواجا جريس، تبدو لي مهموماً مثلي.

- إنه ولدي، يا شيخ.

- ولدانا، ورجاؤنا، وصليبنا.

جلس الواحد قرب الآخر، وقد أعياهما التعب. أضاف الشيخ: "ولدك ليس سهل المراس، ولكنك تشعر على الأقل أنه يفهم الكلام".

- ربما يفهمه، ولكنه يتصرف على هواه. وكلما استاء من أمر، هدد بالانتحار.

- وما السبب هذه المرة؟

- إنه مغرم بابنة روكز، وقد أوهمه ذلك الكلب أنه سيزوجه بها. وعندما علم أنه قد وعد أيضاً الشيخ رعد...

- أهذا كل ما في الأمر؟ فليطمئن طانيوس. إذهب وأبلغه على لساني أن هذا الزواج لن يتم ما دمت على قيد الحياة، ولو

أصر ابني، فسوف أحرمه من الميراث. إنه يطمع بثروة روكز؟ فليصبح صهر روكز! ولكنه لن يحصل على أرضي. فالرجل الذي سرقني لن يعود إلى هذا القصر، لا هو ولا ابنته. إذهب، وردد هذا الكلام حرفياً لابنك، لكي يستعيد شهيته.

- لا، يا شيخ، لن أذهب لأردِّد له كلامك.

انتفض الشيخ، فلم يسبق لتابعه المخلص قط أن رد عليه بهذا الشكل. كان يبدأ عادة بتأييد أقواله حتى قبل أن يكمل جملته؛ ولم تخرج كلمة " لا " هذه من شفتيه قط. فراح يتأمله محتاراً، بل بشيء من المرح واليأس.

- لا أفهمك...

كان الآخر ينظر إلى الأرض فقط. فمواجهة الشيخ كانت أصلاً عسيرة؛ وليس بوسعه، علاوة على ذلك، أن يتحمل وطأة نظراته.

- لن أنقل إلى طانيوس كلام شيخنا، لأنني أعرف سلفاً جوابه. سوف يقول لي: "رعد يحقق دائماً مأربه، مهما كانت رغبات والده. لقد أراد الانسحاب من المدرسة الإنكليزية، فتدبر ذلك بأشنع الأساليب، ولم يوجه له أحدهم الملامة. وأراد زيارة روكز لمقابلة الضابط، فكان له ما أراد، ولم يقف له أحدهم بالمرصاد. وسوف يتكرر الأمر بالنسبة إلى هذا الزواج. وعما قريب، سوف يهدهد شيخنا على ركبتيه حفيداً يحمل إسمه، ويكون كذلك حفيد روكز".

صمت جريس. أصابه كلامه بالدوار. كان لا يصدق أنه خاطب السيد على هذا النحو. وراح ينتظر، وقد التصقت عيناه بالأرض، وتعرقت رقبته.

كان الشيخ الذي صمت بدوره يتردد. هل يجب أن يوبخه؟ أن يقمع بالغضب والازدراء محاولاته التمردية؟ لا، بل وضع يده على كتفه القلقة.

- خيِّي جريس، ماذا تنوي العمل؟

هل قال " خيِّي"؟ أخي؟ اغرورقت عينا الوكيل بدموع الفرح، واشرأب عنقه خلسةً لتحديد أسلوب التعاطي.

- ألم يعلمنا البطريرك أنه سوف يزور القصر يوم الأحد؟ لا أحد غيره قادر على إقناع روكز والشيخ رعد...

- هذا صحيح، شرط أن يكون راغباً بذلك...

- لن يعدم شيخنا الحجج لإقناعه.

أومأ سيد القصر برأسه موافقاً، ثم نهض وتوجه إلى جناحه. كان الوقت قد تأخر. فنهض جريس بدوره، وقبل يد سيده استئذاناً بالانصراف، وكذلك لشكره على موقفه. وكان يهم بالتوجه إلى الرواق الذي يقود إلى جناحه الخاص، وإذ بالشيخ يعود أدراجه، ويناديه، ثم يطلب أن يرافقه إلى غرفته ويحضر قنديلاً. وهناك، أخرج من تحت اللحاف البندقية التي كان قد أهداها ريتشارد وود إلى رعد في الماضي. كانت تلمع تحت ضوء القنديل كدرَّة مريعة.

- لقد لمحتها هذا الصباح بحوزة أحد الأوباش الذين يعاشرهم إبني. قال لي إنه أعطاه إياها على أثر رهان، فصادرتها، وقلت له إنها من أملاك القصر، وهدية من قنصل إنكلترة. أريدك أن تحكم الإقفال عليها في الخزنة مع مالنا. وحذار، فهي ملقَّمة.

ضم جريس قطعة السلاح إلى صدره. كانت تفوح منها رائحة الصمغ الحارة.

III

كان أهالي ضيعتي يشعرون إزاء تاج البطريرك بالإزدراء والإجلال على حد سواء. ولما حثهم البطريرك، خلال العظة التي ألقاها في الكنيسة، على الصلاة من أجل أمير الجبل، وكذلك والي مصر، راحت شفاههم تتمتم، ولكن الرب وحده يعلم الكلمات والأدعية التي كانت تختفي وراء طنينهم المتجانس.

استمرَّ الشيخ قابعاً في أريكته طوال القداس؛ كان قد شعر بتوعك طفيف أثناء الليل، ولم ينهض سوى مرة واحدة، لحظة المناولة، ليتلقى على لسانه القربانة المغمسة في النبيذ. وحذا رعد حذوه بدون ورع ظاهر، ووقف بجانبه يرمق بنظرة وقحة العروق المنتفخة في جبين أبيه.

بعد القداس، اجتمع الشيخ والبطريرك في قاعة الأعمدة. وفيما كان جريس يغلق مصراعي الباب الكبير ليتركهما على انفراد، تسنى له أن يسمع البطريرك يقول:

- لدي طلب، وأعلم أنني لن أعود خائباً من هذا البيت العريق.

فرك زوج لميا يديه، وقال في سرِّه: "الله يحبنا! فإذا كان سيدنا قد جاء في خدمة، لن يستطيع أن يرفض تلك التي سوف

نطلبها منه!". وجالت عيناه تبحثان عن طانيوس ليسرَّ له بتفاؤله.

في القاعة الكبرى، ارتعش الشيخ، وفتل شاربيه بيديه فقد خطر له بالضبط ما خطر لوكيله، في حين كان البطريرك يتابع الكلام:

- لقد أتيت من بيت الدين حيث أمضيت نهاراً كاملاً عند أميرنا. وجدته مهموماً. فعملاء إنكلترة والباب العالي ينشطون في كل أنحاء الجبل، وقد أفسدوا الكثير من الرجال. فأعلن الأمير: "في مثل هذه الظروف، يكتشف المرء الفرق بين الإنسان المخلص والإنسان الوضيع". وبما أننا كنا نتحدث عن الإنسان المخلص، فقد كان إسمك بدهياً أول إسم يتبادر إلى الأذهان، يا شيخ فرنسيس.

- أطال الله عمر سيدنا!

- لا أخفي عليك أن أميرنا كان يشعر ببعض التحفظ. فقد ظلت هذه الضيعة توحي له بأنها أصاخت السمع لأناشيد الإنكليز. وقد أكدت له أن كل ذلك أصبح من الماضي، وأننا إخوة كما كان يجدر بنا أن نظل على الدوام.

أومأ الشيخ برأسه موافقاً، ولكن عينيه كانتا تفضحان مخاوفه. فماذا سوف يطلب هذا الزائر الوقح بعد هذه الديباجة المبهمة والمثقلة بالوعيد والإطراء؟

تابع رجل الدين قائلاً: "لقد أظهرت هذه الضيعة في الماضي بسالة في المحن والشدائد، واستمرَّت شجاعة رجالها مضرب مثل. واليوم، تتهيأ أحداث خطرة، وأميرنا بحاجة إلى جنود مجدداً. لقد جنَّد الرجال بالقوة في قرى الجبل الأخرى. أما هنا، فثمة تقاليد. لقد قلت لأميرنا إن كفريبدا سوف ترسل له من المتطوعين أكثر مما يتسنى له التجنيد بواسطة أعوانه. فهل أسأت التقدير؟

لم يسر الشيخ لهذه الفكرة، ولكن إظهار التحفظ كان سيبدو سلوكاً أخرق.

- أبلغوا أميرنا بأنني سوف أحشد رجالي كما في السابق، وأنهم سيكونون أكثر جنده بسالةً.

- ما توقعت موقفاً آخر من شيخنا. وكم رجل يستطيع الأمير أن يعتمد عليهم؟

- كل الرجال الأصحاء، وأنا على رأسهم.

نهض البطريرك، وهو يقيس بنظراته سحنة مضيفه الذي يبدو أنه استعاد رباطة جأشه، بل حرص على النهوض كشاب بدون أن يتكىء، ولكن قدرته على قيادة رجاله إلى القتال كانت أمراً مشكوكاً فيه...

قال رجل الدين: "حفظك الله دائماً بصحة وعافية".

ورسم بإبهامه إشارة الصليب على جبين الشيخ.

- قبل أن يغادر سيدنا، لي عنده طلب. ليست بالمسألة العظيمة الشأن، لا بل إنها تافهة بالمقارنة مع كل ما يجري في البلاد. ولكنها تؤرقني، وأود تسويتها قبل رحيلي إلى القتال...

أخطر البطريرك موكبه، لدى خروجه من الإجتماع، أنه يود "المرور أمام بيت الخواجا روكز"، الأمر الذي منحه من جانب جريس قبلة حارة على يده، استغربها بعض الحاضرين.

كان " المرور أمام بيت روكز " مجرد تعبير مخفف. فقد دخل البطريرك بالفعل إلى بيت الوكيل السابق، وجلس في المجلس الملبس بالخشب، وطلب التعرف إلى أسما، وتحدث إليها مطولاً، ثم على انفراد إلى والدها الذي قبل عن طيب خاطر أن يصطحبه في جولة على أملاكه. وقد استغرقت الزيارة أكثر من ساعة، ودامت أكثر من تلك التي قام بها إلى القصر. ثم غادر البطريرك مشرق الأسارير.

كان الوقت يمضي متثاقلاً بالنسبة إلى طانيوس، ولميا، وكذلك جريس الذي لم يفلح في الامتناع عن احتساء بعض جرعات العرق غير المخلوط بالماء للتخفيف من قلقه.

أشار البطريرك، لدى عودته إلى قصر الشيخ، بحركة مطمئنة، أن المسألة قد سويت تقريباً. ولكنه طلب الانفراد برعد. ولما خرج من خلوتهما، لم يكن هذا الأخير برفقته، بل تسلل من باب خلفي. وأكد البطريرك: "لن يفكر بالأمر بعد اليوم".

ثم، ظل واقفاً، مكتفياً بالإتكاء إلى أحد الأعمدة في القاعة الكبرى، وأعلم مضيفه همساً بنتيجة وساطته، والمخرج البارع الذي توصل إليه.

أعدت لميا لنفسها قهوة على الفحم، واحتستها بجرعات ساخنة. كانت تصلها عبر الباب الموارب أصوات وضوضاء، ولكنها لا تترقب سوى خطوة جريس، راجيةً أن تطالع على أساريره ما حصل. وبين الفينة والأخرى، تتضرع إلى العذراء، وتضغط على الصليب في يدها.

علق جبرايل: "كانت لميا صبية، ولا تزال جميلة، وعنقها كعنق النعجة الوديعة".

بانتظار صدور القرار، صعد طانيوس إلى السقيفة التي كان يجد فيها أثناء طفولته السعادة والسكينة. بسط فراشاً رقيقاً، وتمدد عليه، وغطى ساقيه، ولعله كان يعتزم ألا يبرح مكانه، ويستأنف إضرابه عن الطعام، لو فشلت الوساطة. ولعله كان يحتاج فقط إلى الاسترسال في أحلام اليقظة لتحمل الانتظار. ولكنه لم يلبث أن غرق في النوم.

في القاعة الكبرى، تكلم البطريرك. ثم انصرف على الفور، فهذه الزيارة غير المتوقعة لبيت روكز قد تسببت له بتأخير يجب أن يعوض.

رافقه الشيخ حتى المدخل، ولكنه لم ينزل السلالم معه. ولم يلتفت رجل الدين لوداعه، وساعده مرافقوه على اعتلاء صهوة جواده، وانطلق الموكب.

وقف جريس، قرب الباب، وقد وضع قدماً في الداخل، والأخرى عند المدخل. كان ذهنه يزداد تشويشاً لحظة تلو الأخرى، بسبب العرق الذي تجرعه خلال ساعات الانتظار، وتبريرات البطريرك، وكذلك تلك الكلمات التي همسها الشيخ قرب أذنيه.

قال الشيخ، وقد جفت نبرته مثل ريقه: "أتساءل إن كان يجدر بي الضحك أم الإطباق على خناقه".

واليوم، حين تروى في الضيعة هذه الواقعة التي لم ينسها الأهالي، تتضارب الآراء بين الاستنكار والمرح: فالبطريرك المبجل الذاهب لطلب يد أسما لطانيوس، عدل عن رأيه لما رآها بهذا الحسن والجاه، وطلب يدها... لإبن أخيه!

آه، كان للرجل الورع تبرير: فالشيخ يرفض هذه الفتاة زوجة لرعد، وروكز لا يريد أن يسمع بطانيوس ثانية؛ وبما أن لديه ابن أخ يريد أن يزوجه...

شعر سيد كفريبدا بأنه كان ضحية خدعة. لقد كان يسعى لتحجيم وكيله السابق، فإذا بذلك " اللص " يتحالف مع أسرة البطريرك، رأس طائفته!

أما جريس فلم تعد حالته تسمح له بتقدير الأرباح أو الخسائر. تسمَّرت عيناه على مطية البطريرك الرمادية التي كانت تنطلق بخطى وئيدة، وتملكه هاجس واحد، كالخازوق، كالتعذيب... وأفلتت الكلمات من صدره:

- سوف ينتحر طانيوس!

سمع الشيخ مجرد زمجرة، وراح يحملق إلى وكيله من رأسه إلى أخمص قدميه.

- رائحة العرق تفوح منك، يا جريس! أغرب عن وجهي! ولا تعد لرؤيتي إلا بعد أن تصحو وتتعطر!

وتوجه السيد نحو مخدعه، وهو يهز كتفيه. فقد أصابه الدوار مجدداً، وكان يشعر بحاجة ماسة للاستلقاء قليلاً.

في تلك اللحظة، راحت لميا تنتحب. لم يكن بوسعها تحديد السبب، ولكنها كانت على يقين أن لديها من الأسباب ما يحملها على البكاء. أطلت من نافذتها، ولمحت بين الأشجار موكب البطريرك يبتعد.

أرادت التوجه إلى القاعة الكبرى، إذ عيل صبرها، من تسقُّط الأخبار. فقد آثرت، خلال وجود البطريرك، التواري عن الأنظار، وكانت تعلم أنه لم يحبها يوماً، وأنه استاء من الشيخ بسببها؛ وكانت تخشى أن يستشيط غضباً لو لمحها، وأن يتحمل طانيوس العواقب.

يرى صاحب أخبار الجبل أن هذا الحذر كان غير ضروري.

" لطالما كان البطريرك لا يطيق ولادة ذلك الشاب بحد ذاتها، بسبب الأقاويل... فكيف كان بوسعه أن يطلب بالنيابة عنه يد تلك الفتاة للزواج؟".

لمحت لميا مشهداً غريباً، لدى اجتيازها الرواق الذي كان يفضي من جناح الوكيل إلى مبنى القصر الرئيسي. ففي الطرف الآخر من الممر الضيق، خالت أنها لمحت خيال جريس يعدو، حاملاً بندقية. فحثت الخطى، ولكنها لم تره، ولم تتأكد تماماً أنها تعرفت إليه في العتمة. فمن جهة، كانت تقول في سرِّها أنه هو بالفعل، وما كان بوسعها أن تحدد الإشارة أو الحركة التي استطاعت أن تتعرف من خلالها إليه، ولكنها كانت تعيش معه منذ قرابة العشرين عاماً، فكيف تخطىء؟ ومن جهة أخرى، كان ذلك الأسلوب في العدو يتنافى مع طباع زوجها الذي يمارس مهامه في

القصر بكثير من الرصانة والتبجيل، بل يمتنع عن الضحك لئلا يفقد شيئاً من هيبته. قد يحث الخطى، أما أن يصل به الأمر إلى العدو؟ وبيده بندقية؟

وصلت إلى قاعة الأعمدة، فوجدتها مقفرة، وكانت تعج بالزوار منذ لحظات. ولم تصادف أحداً في الباحة الخارجية.

خالت أنها لمحت جريس يتوارى بين الأشجار، لدى خروجها إلى درج المدخل. كانت رؤية وجيزة، وخاطفة أكثر من سابقتها.

هل يجدر بها أن تركض في أثره؟ همت برفع أطراف ثوبها، ثم عدلت عن رأيها وعادت إلى جناحها. نادت طانيوس، ولم تنتظر الجواب، بل ارتقت درجات السلم الصغير الذي كان يقود إلى المكان الذي يرقد فيه، وراحت تهزه:

- إنهض! رأيت والدك يجري كالمسعور، وبيده بندقية. يجب أن تلحق به!

- والبطريرك؟

- لا أدري، لا أعلم ما جرى. أسرع، هيا، والحق بأبيك، لا بد أنه يعلم، وسوف يخبرك...

ما جدوى الكلام؟ لقد أدركت لميا. الصمت، القصر المقفر، وزوجها الذي يجري.

كان الدرب الذي لمحت جريس يسلكه من أكثر الدروب وعورة بين القصر والضيعة. كان أهالي كفريبدا - كما قلت - يسلكون عادة الدرجات التي تصعد من البلاطة، خلف النبع؛ أما العربات والخيالة فكانوا يفضلون الطريق العريض - وقد تهالك في بعض المواضع اليوم - الذي يتطاول ويتعرج حول تلة القصر. ومن ثم، كان ذلك الدرب، عبر الواجهة الجنوبية - الغربية، الأكثر وعورة وتصخراً، ولكنه بمثابة قادومية للوصول بأسرع ما

يمكن إلى خراج الضيعة، والطريق المتفرع من الساحة. وكان المرء، إذ يغامر بسلوكها، يجب أن يتكىء باستمرار على الأشجار والصخور. وفي الحالة التي كان جريس عليها، كان يجازف بدق عنقه.

كان طانيوس الذي يقتفي أثره ينظر عبثاً في كل الاتجاهات بحثاً عنه كلما اضطر للتوقف، وهو يستند براحة يده إلى واجهة صخرية. لم يلمحه سوى في اللحظة الأخيرة، بعد فوات الأوان، بينما كان يمسح بنظرته المشهد بأكمله - الرجال، والمطايا، وحركاتهم، وتعابير وجوههم. كان البطريرك يتقدم على صهوة جواده، وموكبه في أثره، مؤلفاً من عشرة خيالة، ومثلهم راجلين. وجريس، مختبئاً خلف صخرة، حاسر الرأس، والبندقية على كتفه.

انطلقت الرصاصة وأرجعت صدى أزيزها الجبال والوديان. هوى البطريرك كجذع الشجرة، وقد أصيب في وجهه، بين الحاجبين. وراح جواده الذي جفل يعدو، وهو يجر الفارس من قدمه على بعد مترين أو ثلاثة أمتار قبل أن ينفصل عنه.

خرج جريس من مخبئه، وكان صخرة عمودية ومسطَّحة، مغروسة في الأرض كقطعة ضخمة من الزجاج، وصارت تسمى منذ ذلك الحين " الكمين". كان يرفع البندقية فوق رأسه، علامة على الإستسلام. ولكن مرافقي البطريرك، إذ توهموا أنهم تعرضوا لهجوم من زمرة عصاة، لاذوا بالفرار على أعقابهم، باتجاه القصر.

ظل القاتل وحيداً، وسط الطريق، رافعاً ذراعيه، حاملاً البندقية ذات الانعكاسات المتوهجة، هدية "قنصل" إنكلترة.

فاقترب منه طانيوس، وجذبه من ذراعه.

- بيِّي!

" أبي "! منذ سنوات عديدة، لم يناده طانيوس بهذا الإسم. رمق جريس الشاب بامتنان. لقد تطلب الأمر أن يتحول إلى قاتل ليستحق سماع هذا النداء، بيَّي!، مجدداً. في تلك اللحظة، كان لا يأسف على شيء، ولا يريد شيئاً. فقد استعاد مكانته وشرفه. واستعاد بجريمته حياته؛ وبقي أن يكفر عن جريمته. لم يبق أمامه سوى أن يسلم نفسه، والظهور بمظهر مهيب ساعة العقاب.

وضع السلاح أرضاً، بحذر، كأنه يخشى أن يخدشه. ثم التفت إلى طانيوس. حاول أن يشرح له السبب الذي حمله على القتل، ولكنه ظل صامتاً، فقد خانه لسانه.

ضم الفتى إلى صدره لبرهة. ثم تركه ليرجع إلى القصر. ولكن طانيوس جذبه من ذراعه:

- بيِّي! لنبق معاً. لقد اخترت هذه المرة أن تقف إلى جانبي، ولن أدعك تعود إلى الشيخ أبداً!

سار جريس وراءه صاغراً. وغادر الإثنان الطريق لسلوك درب وعر يقود إلى أسفل الوادي. كان ضجيج الضيعة يتصاعد خلفهما. ولكنهما ما عادا يسمعان شيئاً، وهما يهبطان الجبل من شجرة إلى أخرى، ومن صخرة إلى صخرة.

IV

"سارع الوكيل جريس، بعد ارتكاب فعلته، إلى هبوط التلة برفقة ابنه. وتوارى الإثنان عن الأنظار، واضطر الشيخ للعدول عن مطاردتهما.

"سارا حتى هبوط الظلام، بعد وصولهما إلى أسفل الوادي، ثم طوال الليل، قرب الشلال، باتجاه البحر.

"ومع أول خيوط الفجر، عبرا الجسر الذي يعلو نهر الكلب، للوصول إلى بيروت، حيث كانت سفينتان تهمان بالإبحار على الرصيف. كانت الأولى متجهة إلى الاسكندرية، ولكنهما لم يصعدا إلى متنها لأن سيد مصر كان سيسرع في تسليمهما إلى الأمير للاقتصاص منهما بسبب الجريمة النكراء. فاستقر رأيهما على السفينة الثانية المبحرة إلى جزيرة قبرص التي وصلاها بعد يوم من الإبحار، وليلة، ثم يوم في عرض البحر.

"وهناك، عثرا على مسكن في مرفأ فاماغوستا، بعد انتحال شخصية تاجري حرير، في خان صاحبه من حلب".

لا تفصح هذه السطور المقتضبة المقتطفة من كتاب أخبار الجبل للراهب إلياس عن الهلع العظيم الذي انتاب أهالي ضيعتي، ولا الإحراج الشديد الذي أصاب الشيخ.

كانت اللعنة قائمة بالفعل هذه المرة، وملقاة على الطريق، قرب صخرة الكمين. ولما نقل الجثمان على إيقاع ناقوس الكنيسة، راح المؤمنون، لأنهم كرهوا المغدور، وما زالوا يكرهونه، ينتحبون كالمذنبين، ويبحثون أحياناً في أياديهم المبللة بالدموع عن آثار دمائه.

كان الشيخ يعلم أنه مذنب لأنه كره " بطريرك الجراد"، وكاد أن يجهر، قبل دقائق من وقوع الجريمة، برغبته في رؤيته مخنوقاً. فكيف كان بوسعه، وإن لم يأخذ في الحسبان ذلك الدعاء المتهور الذي التقطته أذن جريس، التنصل من جريمة اقترفت على أراضيه، على يدي أمين سره، وبالسلاح الذي عهد به إليه شخصياً؟ كان سلاحاً، كما ذكرت، قد أهداه ريتشارد وود، " قنصل" إنكلترة، وقد استعمل بالضبط لاغتيال أحد المناوئين للسياسة الإنكليزية.

يا للصدفة! وهل هي مجرد صدفة أصلاً؟ كان سيد كفريبدا الذي غالباً ما مارس دور القاضي، بحكم الامتيازات التي يتمتع بها، لا يفلح في الامتناع عن التفكير بأنه لو جمع كل هذه الشهادات حول رجل، لكان حكم عليه بالتحريض على القتل، أو بالتواطؤ في الجريمة. ولكن الله وحده يعلم أنه ما تمناها، ولكان أجهز على جريس بيديه لو ارتاب بنواياه المبيتة.

عندما رجع مرافقو البطريرك أعقابهم لإخطار الشيخ بالمأساة التي وقعت أمام ناظريهم، لاح لهم في حيرة من أمره، بل على شفير اليأس، كأنه مسح بنظرته في تلك اللحظة كل المآسي التي سوف تتوالى. ولكنه لم يكن رجلاً ينشغل عن واجباته القيادية. فجمع رجال مقاطعته، بعد أن استعاد رباطة جأشه، لتنظيم مطاردة القاتل.

كان ذلك ما يحتّمه عليه الواجب، وما تقتضيه الحكمة: يجب أن تتحقق السلطات، وموكب البطريرك أولاً، أنه لم يأل جهداً في ملاحقة المجرمين. أجل، المجرمين، جريس وكذلك طانيوس. كان الشاب بريئاً، إنما لو كان قد ألقي عليه القبض في تلك الليلة، لما كان بيد الشيخ حيلة سوى تسليمه إلى عدالة الأمير، وإن كان مصيره الشنق. حرصاً على المظاهر.

في مثل هذه المسألة الخطرة التي تتجاوز حدود مقاطعته إلى حد بعيد، بل مقاطعة الأمير، لم يكن سيد كفريبدا طليق اليدين. كان مرغماً على احترام المظاهر بحذافيرها. ولكنه تعرض للملامة على هذا الموقف بالذات، من بعض رفاق البطريرك، ثم الأمير والقيادة المصرية، لأنه تظاهر فحسب.

لقد شوهد بالفعل منهمكاً في القصر حتى طلوع الفجر وسط جلبة الخيالة، وزعيق الأوامر، وتحريض الرجال وكيل الشتائم. ولكن خصومه رأوا في هذا الاندفاع مجرد ذر للرماد في العيون. وزعم أقارب البطريرك الصريع أن الشيخ راح يستجوبهم مطولاً عن ملابسات الجريمة، بدلاً من اتخاذ التدابير الواجبة على الفور، ولم يصدقهم حين صرحوا بأنهم قد خالوا أنهم تعرفوا إلى جريس، بل أرسل رجاله لإحضار الوكيل من جناحه؛ وإذ عاد هؤلاء بخفي حنين، بادرهم قائلاً:

- أحضروا لي طانيوس في هذه الحالة، أريد التحدث إليه.

ثم انفرد الشيخ قليلاً بلميا، في الحجرة الصغيرة قرب قاعة الأعمدة؛ وخرج منها الإثنان بعد دقائق معدودة، هي تذرف الدموع، وهو بسحنة محتقنة؛ ولكنه أعلن بمنتهى الثقة:

- لقد ذهب طانيوس للبحث عن والده، وسوف يحضره إلى هنا بالتأكيد.

ولما أعرب أصدقاء البطريرك عن شكوكهم، أمر رجاله بالبحث في كل الاتجاهات - في الضيعة، وغابة الصنوبر، وقرب الاسطبلات القديمة، بل وفي بعض أرجاء القصر. لماذا البحث في كل مكان، عوضاً عن إرسال الرجال باتجاه الوادي، على الطريق الذي لا ريب أن جريس وطانيوس قد سلكاه؟ فبحجة التفتيش في كل الأمكنة، لم يفتش الشيخ عملياً في أي مكان لأنه كان يريد أن يمنح الفاعلين الوقت الكافي للفرار!

ولكن، ما هي مصلحته من وراء ذلك؟ لم يكن لديه أية مصلحة بل، على العكس، كان يجازف كثيراً بمقاطعته، وبحياته، وكذلك بخلاص روحه، إلا إذا كان طانيوس إبنه حقاً...

أجل، كان ذلك الشك يحوم دائماً حول الشيخ ولميا، وحول القصر، وتلك البقعة من الجبل، كسحابة من الأمطار الدبقة والشريرة.

ورد في يوميات المحترم ستولتون:

"غداة الجريمة، وصلت كتيبة من الجيش المصري أمام باب دارنا، وعلى رأسها ضابط استأذنني في التفتيش داخل حرم الإرسالية. أجبت أن هذا الأمر مستحيل، ولكني أقسمت له بشرفي كرجل وكاهن أن لا أحد يحتمي في داري. وقد ظننت، لبضع لحظات، أنه لن يكتفي بقسمي، لأن الضيق ارتسم على وجهه، ولكنه كان ملتزماً الامتثال للأوامر العليا على الأرجح. وبعد أن حام حول الدار، محاولاً اكتشاف أي حضور مشبوه، ابتعد مع جنوده أخيراً.

"لم يتمتع أهالي كفريبدا بهذا القدر من الاحترام. فقد اجتاحت الضيعة قوة تتألف من بضع مئات الجنود تابعين لجيش والي مصر وجيش الأمير. وراحوا يعلنون في الساحة أنهم يسعون وراء القاتل وابنه - أي تلميذي - بالرغم من علم الجميع أنهما

قد لاذا بالفرار بعيداً. ثم تعرض كل بيت للمداهمة، ولم يعثر الجنود في أي من البيوت على ضالتهم المنشودة؛ ولكنهم لم يرحلوا خاليي الوفاض، لأن "الفاعلين " اللذين اعتقلوهما كانا حلياً، ومعاطف، وبسطاً، وأغطيةً، ونقوداً، وشراباً أو مؤناً.

"وفي القصر، داهمت القوة الحجرة التي كانت مكتباً لجريس، وخلعت الخزنة الموجودة فيها. فتحقق الجميع من عدم اختباء الوكيل فيها... كما نقب الجنود في الغرف التي يسكن فيها أهل طانيوس، ولكن والدته كانت قد غادرت القصر في اليوم السابق، بناء على نصيحة الشيخ فرنسيس، للإقامة عند شقيقتها الخورية.

وقد تعدَّدت الانتهاكات التي قام بها حماة الأمن أولئك... ولحسن الحظ، إن جاز لي القول، أن البلاد كانت تخوض معمعة الحرب، وأن الجنود قد جرى استدعاؤهم بعد أسبوع فانسحبوا لأداء مهمات جليلة في مواقع أخرى، ولكنهم لم يرحلوا قبل ارتكابهم ظلماً أخيراً".

وفي الواقع، وللتأكد من عدم تقاعس الشيخ في سعيه للعثور على الفاعلين وتسليمهما " أباً وابناً"، كما أوضح الأمير، اصطحب الجنود " مشبوهاً " آخر كان رهينة بالأحرى، هو رعد. ولا شك أنه كان صاحب أداة الجريمة، وقد قيل أيضاً إنه تفوه أمام الضابط الذي يستجوبه بكلام متهور، مفاده أن البطريرك، وبعد وساطته الغريبة، كان يستحق ما جرى له.

كانت العلاقة بين الشيخ وابنه لا تزال عاصفة، ولكن الرجل العجوز شعر بالعار لرؤية الجنود يسوقون ولده، وقد أوثقوا يديه خلف ظهره، كالمجرم.

أقفر القصر، قبل حلول نهاية تلك السنة المشؤومة، من أهله، وخصوماتهم، وآمالهم، ودسائسهم.

كان هيكلاً متصدعاً، ومصيراً متداعياً، ولكن الأهالي المخلصين لم يكفوا عن الصعود كل صباح "لرؤية" اليد العاجزة لسيد كفريبدا.

العبور السابع

برتقال على السلم

قال لي طانيوس: "لقد عرفت امرأة لا أتكلم لغتها، ولا تتكلم لغتي، ولكنها كانت تنتظرني في أعلى السلم. وسوف أرجع يوماً لأطرق بابها وأعلمها أن سفينتنا تتأهب للإبحار".

نادر

حكمة البغّال

I

في فاماغوستا، أثناء ذلك، كان الهاربان يستهلان حياة جديدة وسط الهلع والندم، ولكنها حياة تميزت كذلك بالأفعال الجريئة، والملذات، والمسرَّات.

كان نزل الحلبي عبارة عن خان للتجّار العابرين، ومتاهة من الدكاكين والشرفات والأعمدة المتصدعة؛ كان بناءً قديماً، شبه فارغ من الأثاث، ولكنه أكثر الفنادق المضيافة في المدينة. كان جريس وطانيوس يطلان، من شرفة غرفتهما، في الطابق الثالث، على مبنى الجمارك، والأحواض، والسفن الراسية قرب الرصيف، ولكنهما لا يلمحان اليم الشاسع.

في الأسابيع الأولى، عاشا في خوف من أن يفطن أحدهم لأمرهما. فظلا مختبئين من الصباح حتى المساء، لا يخرجان إلا تحت جنح الظلام - سوياً، أو طانيوس بمفرده - لشراء الطعام من بسطة يتصاعد منها البخار. وكانا يتربعان على الشرفة بقية الوقت، يراقبان حركة الناس في الشوارع، وتجوال الحمالين والمسافرين، وهما يمضغان خروباً قبرصياً داكناً.

وفي بعض الأحيان، كانت نظرة جريس تغشى، وتنهمر

دموعه. ولكنه لا يتكلم، لا عن حياته الضائعة، ولا عن المنفى. وأكثر ما كان يقوله متنهداً:

- أمك! لم تسنح لي الفرصة لوداعها!

أو أيضاً:

- لميا! لن أراها أبداً بعد اليوم!

فكان طانيوس يطوق كتف والده، ويسمعه يقول:

- يا ابني! لولا رغبتي برؤياك لما فتحت عيني!

أما الجريمة نفسها، فكان الإثنان لا يأتيان على ذكرها. كان كل منهما بالطبع يفكر بها، تلك الرصاصة اليتيمة، ذلك الوجه المضرَّج بالدماء، ذلك الجواد الذي يعدو جافلاً، ، يجرُّ الفارس وراءه، ثم جريهما اللاهث إلى أسفل الوادي، باتجاه البحر، نحو الضفة الأخرى. لا ريب أنهما كانا يستحضران كل هذه الأحداث خلال ساعات الصمت الطويلة، ولكنهما لا يتحدثان في الأمر بدافع الهلع الثقيل.

ولا أحد كذلك كان يذكرها أمامهما. فقد لاذا بالفرار سريعاً، ولم يسمعا صوتاً يصرخ: "لقد مات البطريرك، قتله جريس!"، بل ولا ناقوس الكنيسة. سارا لا يلويان على شيء، ولم يصادفا مخلوقاً قبل الوصول إلى بيروت التي لم يكن قد ذاع فيها النبأ. وفي المرفأ، كان الجنود المصريون لا يسعون وراء أي قاتل. وعلى متن السفينة، كان المسافرون الذين يعلقون على الأحداث الأخيرة، يتحدثون عن المعارك في جبال الشام وعلى الفرات، ومحاولة اغتيال أنصار الأمير في ضيعة درزية، وموقف الدول العظمى. ولكنهم لا يذكرون البطريرك، ثم، في قبرص، عاش الهاربان في عزلة عن الناس...

كان جريس يشك أحياناً بحقيقة فعلته، إذ كان محروماً من معرفة صداها، وكأنه أوقع إبريقاً على الأرض، فتحطم، ولكنه لم يسمع صوت الحطام.

لقد افتضح أمرهما أولاً بسبب ذلك الصمت الذي لا يطاق.

راح جريس يسلك سلوكاً غريباً. كانت شفتاه تتمتمان، في معظم الأحيان، أحاديث طويلة صامتة.

وفي بعض الأحيان، يفلت منه بعض الكلمات، بصوت مسموع، بدون ترابط. فيبتسم ببؤس إلى طانيوس.

- لقد تكلمت في الحلم.

ولكن عينيه كانتا مفتوحتين طيلة الوقت.

صمَّم الشاب على استدراجه خارج النزل، فقد خشي عليه من الجنون.

- لن يفطن أحدهم إلى هويتنا. وفي كل الأحوال، إننا موجودان على أرض العثمانيين الذين يخوضون حرباً ضد الأمير. فلماذا نختبىء؟

كانت في البداية نزهات قصيرة ومرتابة. لم يعهدا السير في شوارع مدينة غريبة، فلم يعرف كل منهما سوى كفريبدا والسهلين وديرون. ولم يستطع جريس الامتناع عن إبقاء يده اليمنى مرفوعة باستمرار كما لو أنه يتهيأ للمس جبهته من أجل إلقاء التحية على الناس الذين يصادفهم، ماسحاً بنظرته وجوه المارة.

كانت هيئته قد تبدلت قليلاً، وما عاد بالإمكان التعرف إليه للوهلة الأولى. فقد أهمل حلق لحيته خلال الأسابيع المنصرمة، وقرر أن يرسلها. أما طانيوس فقد تخلص من لحيته، ولبادته، وعصب رأسه بمنديل من الحرير الأبيض، خوفاً من أن يفضح شعره أمره. كما ابتاعا سترتين بأكمام فضفاضة كما يليق بالتجار.

لم يكن المال ينقصهما، فلحظة تناول سلاح الجريمة من خزنة القصر، أخرج الوكيل منها كذلك كيساً كان قد أودعه فيها في الماضي، ويحتوي مدخراته، لا غرش أكثر. كان يعتزم أن يخلف هذا الكيس لزوجته وابنه، ولكنه اصطحبه، في استعجاله،

وأخفاه في ثيابه. كان مبلغاً كسبه بعرق جبينه، يتألف من قطع ذهبية أصلية كان الصرافون في فاماغوستا يتلمسونها بانبهار، قبل تسليمه مقابل كل قطعة منها حفنات طافحة من العملة الجديدة. وكان جريس الحريص والمتقشف في حياته يجد فيها ما يكفيه للعيش سنتين أو ثلاث سنوات بمنأى عن العوز، حتى تشرق شمس الخلاص.

أصبحت نزهاتهما تطول كل يوم، ويكتنفها المزيد من الأمان. وفي أحد الأيام، تجاسرا على الجلوس على ناصية أحد المقاهي. فقد لمحا ذلك المقهى يوم وصولهما إلى الجزيرة؛ وكان الرجال الجالسين في داخله يتسلون بملء جوارحهم بحيث انكفأ الهاربان خجلاً وحسداً.

كان مقهى فاماغوستا لا يحمل أية يافطة، ولكنه يلمح من بعيد، على متن السفن نفسها. فصاحبه، وهو يوناني بشوش وبدين يدعى أليفتيريوس، يجلس عند المدخل، متربعاً على كرسي من الخيزران، وقدماه على قارعة الطريق. كان يوجد خلفه أداته الرئيسة، الجمر الذي يغلي عليه باستمرار أربع أو خمس ركوات من القهوة، كما يستخرج منه ناراً لإشعال النراجيل. كان لا يقدم غير القهوة سوى بعض الماء البارد في دورق، ومن رغب من رواد المقهى بشراب السوس أو التمر الهندي، ينادي بائعاً من الشارع، بدون أن يغضب ذلك الأمر صاحب المقهى.

كان الزبائن يجلسون على مقاعد وطيئة، ويحق للمداومين منهم أن يلعبوا طاولة الزهر التي كانت شبيهة تماماً بتلك التي توجد في كفريبدا وسائر أنحاء الجبل. وغالباً ما كان اللاعبون يراهنون على النقود، ولكن القطع المعدنية كانت تنتقل من يد إلى أخرى، ولا توضع قط على الطاولة.

لم يسبق لجريس أن قصد المقهى الوحيد في ضيعته، على

البلاطة، إلا خلال سنوات المراهقة. وفي كل الأحوال، قبل فوزه بوظيفته في القصر. ولم تجذب الطاولة اهتمامه ولا ألعاب الحظ الأخرى. ولكنه راح، هو و طانيوس، في ذلك اليوم، يتابعان بنظرات مستغرقة المباراة التي كانت تدور على المائدة المجاورة، فأحضر لهما صاحب المقهى اللعبة نفسها في صندوقها المستطيل المصنوع من الخشب البني المتشقق. وشرع الإثنان في رمي النرد، وتحريك القطع بصخب، والتلفظ بالشتائم والسخرية.

كانا يعجبان لأنهما يضحكان. فما عادا يذكران المرة الأخيرة التي ضحكا فيها.

وفي اليوم التالي، عادا إلى المقهى في ساعة مبكرة، وجلسا في المكان عينه، وكذلك اليوم الذي يليه. وكان جريس يبدو قد تخلص كلياً من كآبته، بأسرع مما توقع طانيوس، بل سوف يكوِّن بعض الصداقات.

وفي أحد الأيام، في خضم مباراة حامية الوطيس، أقبل رجل، معتذراً لمخاطبتهما بدون سابق معرفة، ولكنه كان مثلهما، كما شرح، من الجبل، وقد تعرف إلى لهجتهما. كان يدعى فهيم، وفي وجهه، لا سيما في شكل شاربيه، بعض ملامح الشيخ. ذكر لهما إسم ضيعته، الباروك، في معقل الدروز، وهي منطقة معروفة بعدائها للأمير وحلفائه؛ ولكن جريس، بسبب حذره الشديد، عرف عن نفسه باسم مستعار، وأعلن أنه تاجر حرير، يزور قبرص برفقة ابنه.

– للأسف، وضعي يختلف عن وضعكما! ولا أدري كم من السنوات سوف تمضي قبل عودتي إلى دياري. لقد ذبح كل أفراد أسرتي، وأحرقت دارنا. وقد نجوت شخصياً بأعجوبة. اتهمونا بنصب كمين للمصريين كانت أسرتي براء منه، ولكن دارنا، لسوء الحظ، كانت تقع عند مدخل الضيعة، وقد قتل إخوتي الثلاثة. وطالما أن الغول حي يرزق، فلن أرى الجبل ثانية!

- الغول؟

- أجل، الأمير! هكذا يلقبه خصومه، ألا تعلمان ذلك؟

- خصومه؟

- إنهم بالمئات، نصارى ودروزاً، ينتشرون في كل مكان. لقد أقسموا ألا يهنأ لهم بال قبل اغتياله (وخفض صوته). إنهم متغلغلون حتى في حاشية الغول وأسرته، حاضرون في كل مكان، ينشطون في الخفاء، وسوف تسمعان يوماً بمآثرهم، وأعود يومئذ إلى البلاد.

استفسر جريس بعد برهة صمت: "وما هي أخبار البلاد؟"

- لقد اغتيل أحد المستشارين المقربين من الغول، البطريرك. . . ولكنكما على علم بما حصل بالتأكيد.

- لقد سمعنا بهذا الاغتيال. ولا بد أن الفاعلين هم من الخصوم، لا ريب.

- لا، إنه وكيل شيخ كفريبدا، ويدعى جريس. يقال إنه رجل محترم، ولكن البطريرك أساء إليه. وقد تمكن من الفرار حتى الساعة. ويقال إنه هرب إلى مصر، وأن السلطات هناك تبحث عنه لتسليمه. وليس من مصلحته كذلك العودة إلى البلاد طالما أن الغول على قيد الحياة.

تريث الرجل: "ولكني أكثرت الكلام، وقاطعت مباراتكما. تابعا اللعب، رجاءً، وسوف أنافس الفائز منكما. وحذار، فأنا لاعب ماهر، وآخر مرة هزمت فيها، كنت بسن هذا الشاب".

ساعدت هذه الادعاءات الجبلية على تلطيف الأجواء، وتخلى طانيوس الذي كان قد سئم اللعب عن مكانه للوافد الجديد.

في ذلك اليوم، وفيما كان جريس يلعب الطاولة للمرة الأولى مع فهيم الذي سوف يصبح صديقه الصدوق، وقعت في حياة طانيوس واقعة " البرتقال " التي تشير إليها المصادر تلميحاً،

بالرغم من أهميتها الحاسمة، كما يتراءى لي، في بقية مساره، وكذلك، على ما سمعت، في اختفائه الغامض.

فارق طانيوس اللاعبين، وقفل عائداً إلى الخان، لإيداع غرض في غرفته. لمح، وهو يفتح الباب للخروج، امرأة شابة، مغطاة الرأس بحجاب أسدلته على أسفل وجهها. تلاقت نظراتهما، فابتسم الشاب بكياسة، وردت عينا الغريبة الابتسامة بمثلها.

كانت تحمل إبريقاً من الماء في يدها اليسرى، وقد رفعت طرف ثوبها بيمناها لئلا تتعثر بخطاها، ممسكة في ذراعها المطوي سلة مليئة بالبرتقال. خطر لطانيوس أن يساعدها، إذ لمحها تتأرجح على السلم بأحمالها، ولكنه خشي ظهور زوج غاضب من وراء أحد الأبواب، واكتفى بمتابعتها بعينيه.

كان في الطابق الثالث، وهي تتابع صعودها، وإذ ببرتقالة تنزلق من السلة، ثم برتقالة ثانية، وتتدحرجان على السلم. تظاهرت المرأة بالتوقف، ولكنها كانت لا تستطيع الانحناء. فهرع الشاب والتقط البرتقالتين. ابتسمت له، ولم تتمهل. لم يفهم طانيوس إن كانت تبتعد لأنها لا تريد أن تخاطب رجلاً غريباً، أم أنها تدعوه للحاق بها. فمضى في أثرها، متردداً، إنما بخطى خجولة، وقد ساوره بعض القلق، حتى الطابق الرابع، فالخامس والأخير.

توقفت أخيراً أمام أحد الأبواب، ووضعت أرضاً الإبريق والبرتقال، وأخرجت مفتاحاً من صدرها. كان الشاب يقف على بعد خطوات منها، حاملاً البرتقالتين لئلا يشك أحدهم بنواياه. فتحت الباب، وجمعت أغراضها، ثم التفتت نحوه، وابتسمت له ثانية، لحظة دخولها إلى الغرفة.

ظل الباب مفتوحاً. فاقترب طانيوس. أشارت الغريبة إلى

السلة التي وضعتها أرضاً، قرب فراش رقيق. وفيما كان يضع الفاكهة في مكانها، اتكأت المرأة كأنها متعبة إلى الباب الذي انغلق جراء ذلك. كانت الغرفة ضيقة، ولا منفذ فيها سوى منور قرب السقف؛ وكانت شبه فارغة من الأثاث، فلا كرسي فيها، ولا خزانة، ولا زينة.

أومأت المرأة التي لم تنبس ببنت شفة إلى طانيوس بأنها تلهث من العناء. أمسكت يد زائرها ووضعتها على قلبها. فارتسم على وجهه تعبير رصين، كما لو أنه يعجب لشدة خفقان قلبها، وأبقى يده حيث وضعتها. لم تحاول أن تنزعها، بل راحت على العكس تمرِّرها، بانزلاقات خفيفة، وراء ثوبها. كانت تفوح من بشرتها رائحة الأشجار المثمرة، وعطر نزهات نيسان في البساتين.

تجرأ طانيوس وأمسك بيدها ليضعها على قلبه. احمر خجلاً من وقاحته، وأدركت المرأة أنها المرة الأولى التي يقوم فيها بهذه الحركة. فانتصبت، ونزعت عن جبينه المنديل المعصوب، وخللت يدها في شعره الذي شاب باكراً، مراراً وتكراراً، وهي تضحك بدون خبث. ثم جذبت رأسه إلى صدرها العاري.

لم يكن طانيوس يعلم شيئاً عن الحركات التي يجب أن يقوم بها. كان متأكداً أن جهله يتجلى في كل لحظة، ولم يخطىء في تقديره. ولكن المرأة ذات البرتقال لم تستهجن سلوكه، ومقابل كل حركة خرقاء قام بها، كانت تستجيب بمداعبة لطيفة.

ولما أصبح كلاهما عاريين، دفعت مزلاج الباب، قبل أن تجذب زائرها إلى الفراش، وترشده بأطراف أناملها إلى درب اللذة الدافىء.

لم يتبادلا الكلام، فلا أحد منهما كان يتكلم لغة الآخر، ولكنهما رقدا كجسد واحد. كانت الغرفة تشرف على الغرب، ومن خلال المنور، تتسلل شمس مربعة تتطاير فيها خيوط من الغبار.

ظل طانيوس يشعر، بعد أن استيقظ من النوم، بعطر البستان ذاك، وبخفقات قلبٍ على خده الأيمن، بطيئة وساكنة في طراوة نهد امرأة.

كان الشعر الذي تكشف عنه الحجاب أصهب، كتلك الأراضي الحمراء في نواحي ديرون، والبشرة الوردية نمشاء. ووحدها الشفتان والحلمتان فيها سمرة خفيفة.

فتحت عينيها، أمام النظرة التي كانت تتجول على جسدها، وانتصبت، ثم حاولت من خلال المنور أن تحدد الساعة. وجذبت نحوها طانيوس، وربتت على المكان الذي كانت ترن فيه النقود، مرفقة حركتها بابتسامة متأسفة. راح الشاب، وقد ظن أن الأمور تجري دائماً على هذا المنوال، يبسط حزامه وينظر إلى مضيفته متسائلاً. حددت له رقم ستة بثلاثة أصابع من كل يد، فنقدها قطعة فضية من فئة الغروش الستة.

وحين ارتدى ثيابه، أهدته برتقالة. فتظاهر بالرفض، ولكنها وضعتها في جيبه. ثم رافقته إلى الباب الذي توارت خلفه لحظة خروجه لأنها كانت عارية.

استلقى، لدى عودته إلى غرفته، وراح يرمي بالبرتقالة في الهواء ثم يلتقطها، متملياً في الأمر الرائع الذي حدث له للتو. "هل كان يجب أن أرحل إلى المنفى، وأحط الرحال يائساً في هذه المدينة الغريبة، وفي هذا الخان، وأصعد إلى الطابق الأخير على أثر امرأة غريبة... هل كان يجب أن تلفظني أمواج الحياة إلى هذا المكان النائي لتسنح لي هذه اللحظة من السعادة؟ تلك السعادة العارمة كأنها علة مغامرتي. ونهايتها. وكذلك خلاصي".

طفق يستعرض في ذهنه الأشخاص الذين عبروا حياته، وتوقف مطولاً عند أسما، مندهشاً لأنه قلما فكر بها منذ رحيله. ألم تُقترف الجريمة بسببها، وألم يلوذا بالفرار بسببها؟ ومع ذلك،

تلاشت ذكراها كما لو أن فخاً ابتلعها. لا ريب أن ألعابهما البريئة، وأصابعهما، وشفاهما التي كانت تتلامس وتتباعد كقرون الحلزون، ولقاءاتهما المختلسة، وتلك النظرات الحافلة بالوعود - لا تشبه على الإطلاق تلك اللذة القصوى التي بات يعرفها. ولكنها كانت وقتذاك مصدر سعادته. فماذا لو اعترف لجريس أن تلك الفتاة التي توعد بالانتحار لأجلها، تلك الفتاة التي جعله يتحول إلى قاتل بسببها، لم تعد تشغل باله بكل بساطة!

حاول أن يبرر الأمر لنفسه. ففي المرة الأخيرة التي رأى فيها أسما، حين اقتحم باب مخدعها، ماذا كانت تفعل؟ كانت تستعد لتلقي التهاني على خطوبتها المعلنة مع رعد. لا شك أن تلك الفتاة كانت مكرهة على الامتثال لمشيئة أبيها، إنما ما أعظم خضوعها!

ومن ثم، حين رأت طانيوس يهرع إليها، صرخت. لم يكن بوسعه منطقياً أن يلومها على ذلك السلوك. فكل فتاة كانت سوف تسلك سلوكاً مغايراً لو اقتحم أحدهم مخدعها أثناء استحمامها؟ ولكنه لم يفلح في محو مشهد أسما وهي تصرخ من ذاكرته، ومن ثم هرولة روكز والحراس الذين انقضواعليه وألقوا به خارجاً. كانت تلك آخر صورة احتفظ بها عن تلك التي لطالما عشقها. وفي تلك اللحظة، كان يستحوذ عليه هاجس وحيد، تحت وطأة الغضب والكبرياء الجريحة: أن يسترد بأي ثمن ما سرق منه بالخيانة؛ أما وقد توضحت الأمور في ذهنه، فقد صار يشعر نحو أسما بالمرارة فحسب، مع العلم أنه قد حطم حياته وحياة ذويه لأجلها؟

أليس حرياً به أن يطلب الصفح من جريس؟ لا، فمن الأفضل أن يدعه يتوهم بأنه اقترف جريمة نبيلة وضرورية.

II

في نهاية ذلك اليوم، عاد جريس في ساعة متأخرة من الليل، ثم خرج صباحاً، فور استيقاظه من النوم. وباتت هذه عادته يومياً. كان طانيوس يتبعه بنظرته، بابتسامة خفية، كأنه يقول له: "ها أنت تستسلم للعبث بدلاً من استسلامك للجنون!".

أصبح الهم الوحيد لجريس، على مشارف عقده الخامس، بعد حياة التابع الخنوع، وضمير مثقل بجريمة بحجم الجبل، وحياة يعيشها طريداً، منبوذاً، ومنفياً، أن يهرع كل صباحِ إلى مقهى اليوناني للعب طاولة الزهر مع رفيقه في المنفى.

كان يصدف في القصر أن يلعبها حين يكون الشيخ بدون شريك ويستدعيه؛ فيتظاهر بالاستمتاع ويتدبر الأمر للخسارة. ولكنه لم يعد ذلك الرجل في فاماغوستا، فقد غيرته جريمته. وصار يطيب له البقاء في المقهى، ويلعب الطاولة بكل جوارحه، وبالرغم من تبجح فهيم، رفيقه الدائم، كانت الغلبة له في معظم الأحيان. ولو أخطأ في اللعب، أسعفه النرد.

كان الرفيقان يضجان في المقهى أكثر من بقية الزبائن؛ وفي بعض الأحيان، يتحلق حولهما حشد صغير، فيبتهج صاحب المقهى لهذا الترفيه. أقلع طانيوس عن اللعب، وبات يكتفي

بالتفرج على اللاعبين، وسرعان ما ينهض للتنزه، فيحاول جريس استبقاءه:

- وجهك يجلب لي الحظ!

ولكنه كان ينصرف بالرغم من ذلك.

وذات صباح، في شهر تشرين الأول، رضي البقاء. لا ليجلب الحظ لأبيه - وهل جلب له الحظ كثيراً في حياته؟ -، بل لأن رجلاً كان مقبلاً نحوهم، طويل القامة، ذا شارب رفيع، يرتدي زياً كزي أعيان الجبل، ويبدو متعلماً كما تدل بقع الحبر على أصابعه. وقال إنه يدعى سلُّوم.

- أسمعكما منذ بعض الوقت، فلم أقاوم الرغبة في إلقاء التحية على أبناء بلدي. كنت أمضي أياماً بطولها في ضيعتي أمام الطاولة، ألعب شوطاً تلو الآخر. ولكني أجد المزيد من المتعة في مراقبة الآخرين يلعبون، ما لم يجدوا في الأمر بأساً.

سأله فهيم: "وهل أنت في قبرص منذ فترة طويلة؟"

- وصلت أول أمس فقط. وبدأ يهيج بي الحنين إلى الوطن.

- وهل ستبقى بعض الوقت بين ظهرانينا؟

- العلم عند الله. سوف أبقى لحين قضاء حاجة أو حاجتين...

- وكيف أحوال الجبل؟

- طالما لا يتخلى عنا الله، فكل شيء يسير على ما يرام.

كان جواباً حذراً، بل شديد الحذر. وانقطع حبل الحديث، واستؤنف اللعب. كان جريس بحاجة إلى رقم ستة مضاعفاً، دوشاش. طلب من طانيوس أن ينفخ على النرد، ثم رمى به، فأصاب. دوشاش!

أطلق فهيم شتيمة: "اللعنة على لحية الغول!".

أظهر المدعو سلوم المرح لدى سماع هذه الشتيمة.

- لقد سمعت كل أنواع الشتائم، ولكنني لا أعرف هذه الشتيمة، فلم أكن أعلم أن للغيلان لحية.

- الغول الذي يعيش في قصر بيت الدين لديه لحية طويلة للغاية!

تمتم سلوم، مستهجناً: "أميرنا!".

ونهض في الحال، ممتقع السحنة، واستأذن بالانصراف. علق جريس، وهو ينظر إليه يبتعد: "يبدو أننا قد أسأنا إليه".

أقر فهيم: "الذنب ذنبي. لا أدري ما الذي أصابني. لقد تكلمت كأننا وحدنا، وسوف أحاول أن ألجم لساني بعد اليوم".

في الأيام اللاحقة، صادف جريس وفهيم الرجل مراراً في حي المرفأ، وألقيا عليه التحية بكياسة، فرد عليهما بالمثل، إنما من على مسافة، وبإيماءة خاطفة. ولقد خال طانيوس أنه لمحه في سلم الخان، يتجاذب مع صاحبه الحلبي أطراف الحديث.

ارتاب الشاب أكثر من الرجلين اللذين يكبرانه سناً. كان من الواضح أن سلوم من أنصار الأمير. ولو اكتشف هويتهما وسبب وجودهما في قبرص، فسوف يتعرضان للخطر. ألا يجدر بهما الرحيل والاختباء في مكان آخر؟ ولكن فهيم هدأ من روعه: "إننا في أرض عثمانية، ولن يتمكن هذا الرجل من إلحاق الأذى بنا حتى لو كان يعتزم ذلك. ويد أميره ليست طويلة إلى هذا الحد! لقد سمعني سلوم أتفوه بكلام لم يرق له، وهو يتحاشانا، هذا كل ما في الأمر. وإذا كنا نتوهم أننا نلمحه في كل مكان، فلأن المسافرين الأغراب يتجولون في الشوارع نفسها". اقتنع جريس بكلامه، فلم يكن يرغب إطلاقاً بالهروب من منفى إلى آخر، وقال في سرِّه: "لن أرحل من هنا إلا للقاء زوجتي وبلدي".

كان هذا الاحتمال يتعزز يوماً بعد يوم، وفهيم ينقل له،

بفضل اتصالاته بالمعارضة، أنباءً تبعث على التفاؤل. فسلطة المصريين على الجبل تضعف، وخصوم الأمير يزدادون بأساً، وأقاليم بحالها تشهد حالة من العصيان. وعلاوة على ذلك، يقال إن " الغول" عليل، ولا ننسى أنه كان في الثالثة والسبعين من العمر!. " قريباً، سوف نستقبل في قرانا كالأبطال!".

وبانتظار حلول ذلك اليوم العظيم، تابع الصديقان رمي النرد في مقهى اليفتريوس.

ولم يكن طانيوس بدوره مسروراً بفكرة الرحيل إلى منفى آخر، ولئن كانت تساوره بعض المخاوف، فقد كان أيضاً يملك دافعاً قوياً لتمديد إقامته في هذه المدينة، وفي هذا الخان: المرأة ذات البرتقال والتي صار يجب أن تدعى باسمها الذي لا يأتي على ذكره سوى كتاب نادر، على حد علمي، " ثمر".

تعني هذه الكلمة " فاكهة " باللغة العربية؛ ولكن ثمر كان كذلك من أعرق الأسماء النسائية في جيورجيا لأنه كان إسم ملكة ذلك البلد. وحين نعلم أن تلك المرأة لم تكن تتكلم العربية ولا التركية، وأن بعض أجمل النساء في الامبراطورية العثمانية كن سبايا جيورجيات سابقاً، يبطل العجب.

أمام هذه المحظية ذات الشعر البرتقالي، لم يشعر طانيوس في بادىء الأمر إلا بأحاسيس جسده. كان في الثامنة عشرة، غارقاً في حرمانه القروي، حاملاً في أعماقه عشقه الجريح، وكذلك جرحاً أقدم، محبطاً، مذعوراً، فوجد في أحضان تلك المرأة الغريبة... ما وجده تقريباً في هذه المدينة الغريبة، هذه الجزيرة القريبة من الوطن والبعيدة غاية البعد: مرفأ انتظار. انتظار الحب، انتظار العودة، انتظار الحياة الحقيقية.

لا بد أن الوضاعة في هذه العلاقة - قطعة النقود - قد أشاع في نفسه الطمأنينة على العكس، كما تشهد الجملة التالية في كتاب حكمة البغّال:

" قال لي طانيوس: لكل الملذات ثمن، ولا تزدري تلك التي تحدِّد ثمنها".

لم يعد راغباً، بعد خيبته الأولى، بقطع الوعود أو سماعها، ولا بالتطلع إلى الغد. لقد أقسم على الأخذ، والعطاء، والرحيل، ثم النسيان. ولم يفلح سوى في المرة الأولى، وليس تماماً. فقد أخذ ما وهبته إياه تلك الغريبة، وسدَّد دينه، ثم انصرف. ولكنه لم يقو على النسيان.

كان طانيوس لا يريد أن يصدق أن الشبق قد يتولد من جسدين. ولعله كان يتوقع أن تكفي قطع النقود لإخماد سعيره.

في بادىء الأمر، كان الأمر مجرد رغبة مبتذلة للغاية بتذوق الفاكهة نفسها ثانية. فترقبها في السلالم، ولمحها، ثم لحق بها على مسافة. ابتسمت له، وحين دخلت غرفتها، تركت له الباب مفتوحاً. كان الطقس عينه يتكرر، باختصار، إنما بدون البرتقال.

ثم يلتصق أحدهما بالآخر، ويستعيدا الحركات نفسها التي تبادلا بها الحب. وقد أظهرت القدر عينه من الحنان والصمت، وكانت راحتاها تتضوعان بعطر البرغموت في الجنائن المحمية. فلفظ طانيوس إسمه، مشيراً إلى نفسه بالبنان، فأمسكت إصبعه، ووضعته على جبينها، وقالت: "ثمر". فردد إسمها مداعباً شعرها.

ومن ثم، كما لو أن الأمر كان بدهياً بمجرد أن تم التعارف، راح يتكلم. روى لها مخاوفه، ومآسيه، ومشاريع رحلاته النائية، مستهجناً، متحمساً، بحرية تتعاظم لا سيما أن ثمر لم تكن تفقه كلمة واحدة. ولكنها كانت تصغي بدون تضجر، وتتفاعل، وإن بصورة مخففة: فحين يضحك، كانت تعلو شفتيها ابتسامة خفيفة، وحين يرغي ويزبد، تقطب حاجبيها قليلاً؛ وحين يضرب بقبضتيه على الحائط، وعلى الأرض، كانت تمسك يديه برفق كأنها

تشاطره غضبه. وكانت تحدق إلى عينيه، طوال مناجاته، وتشجعه ببعض الإيماءات من رأسها.

ومع ذلك، ولما حانت ساعة الإنصراف، وأخرج من حزامه قطعة الغروش الستة، تناولتها، ولم تتظاهر برفضها، قبل مرافقته، وهي عارية، إلى الباب.

راح يفكر، لدى عودته إلى غرفته، بالأمور التي قالها. كانت ثمة كلمات وأحاسيس لم يخل أنه يختزنها في قرارة نفسه. وقد تكشفت أمام تلك المرأة؛ وكذلك وقائع كانت قد غابت عن باله. لقد ترك لديه اللقاء الأول - ولا أظن أن في قول ذلك إجحافاً - الانطباع أن جسده قد استكان. وقد رجع من هذا اللقاء الثاني وقد استكانت روحه.

اكتشف، وهو الذي كان يظن أنه بلغ ذروة اللذة، لذة أكثر حدة في جسده ذاته. لا شك أنه ما كان ليبوح بمكنونات قلبه لو كانت عشيقته تفهم الكلام؛ وفي كل الأحوال، لما أمكنه أن يتكلم، كما فعل، عن الجريمة التي اقترفها جريس، ودوافعه، ولا عن الشكوك حول سرِّ ولادته. ولكنه بات يرغب أن يعاود التحدث إليها بلغة تتمكن من فهمها.

وصار يجد الوقت الذي يمضيه بدونها طويلاً ومملاً. ولما أدرك الحاجة التي نمت داخله، هاله الأمر. فهل يكون قد تعلق بتلك المرأة إلى هذا الحد؟ ففي نهاية المطاف، كانت - كان يأبى أن يلفظ الكلمة التي تفرض نفسها عليه -، ولكنها كانت ما يعرف أنها تكون!

وراح يترقب مرورها في السلالم، ويظن أنه سوف يباغتها برفقة رجال آخرين؛ وكان سوف ينتحب بروحه ودمه لو لمحها تبتسم لرجل آخر كما ابتسمت له، ورآها تسمح له بموافاتها إلى غرفتها لكي يضع يده القذرة على صدرها. لا به أنها كانت تعرف

رجالاً آخرين، والكثير منهم - وكيف يتخيل عكس ذلك؟ -، ولكن طانيوس لم يفلح في رؤيتهم. فثمر لم تكن تصعد السلالم في أغلب الأحيان، كما كان يفترض بها؛ ولعلها تملك بيتاً آخر تعيش فيه حياة مختلفة؟

تجد تلك الأيام الحافلة بالقلق والحيرة لها صدى مبطناً في الصفحة التالية من كتاب نادر:

امرأة أحلامك زوجة رجل آخر طردها من أحلامه

امرأة أحلامك سبية بحار. كان ثملاً حين اشتراها من سوق أرضروم، ولم يتعرف إليها بعد صحوته.

امرأة أحلامك هاربة، كما كنت أنت، وقد بحث كل منكما عن ملاذ في الآخر.

كان طانيوس قد زار ثمر في المرتين السابقتين ساعة القيلولة؛ وقد خطر له، في ليلة لم يغمض له فيها جفن، أن يذهب ويقرع بابها. فانسلَّ من الغرفة، مطمئناً لشخير جريس، وارتقى السلالم في العتمة، متشبثاً بالإفريز.

قرع الباب مرتين بقوة، ثم أعاد الكرة، ففتح. كانت الغرفة مظلمة، ولم يلمح تعبير الوجه الذي استقبله. وفور أن نطق تلاقت أصابعهما، وتعارفا، فدخل مطمئن القلب.

وعندما أراد مداعبتها، أبعدت يديه بحزم، وجذبته نحوها، ووضعت رأسها في قعر كتفه.

فتح عينيه مع طلوع الفجر، وألفى ثمر جالسة تنتظره. كانت تريد أن تقول له بعض الأمور، أو بالأحرى أمراً واحداً، حاولت أن تفصح عنه إيماءً، ولم تستعن بلغتها إلا لتصل بيديها إلى الإيماءات المناسبة. كان يبدو أنها تقول له: "حين ترحل، سوف أرحل معك. إلى أبعد وجهة تقصدها. وعلى متن السفينة التي سوف تقلك، سأبحر. فهل تريد ذلك؟".

وعدها طانيوس أنهما سيرحلان معاً في أحد الأيام. فهل كان يجاملها؟ ربما، ولكنه، حين كان يقول لها " نعم"، كان يعنيها بكل جوارح روحه المنفية. وقد أقسم لها، ويده على رأسها البرتقالي.

وتعانقا. ثم انفصل عنها وأمسك بها من كتفيها بذراعيه الممدودين، وراح يتأملها. كان من المفروض أنها في سنه، ولكنها لا تعيش حياتها الأولى، فقد لمح في عينيها يأساً وكأنه لم يسبق لها من ذي قبل أن تعرَّت على هذا النحو.

لم يكن جمالها كامل الأوصاف كما ظن حين كانت مجرد موضع رغباته الذكورية. كان ذقنها متطاولاً بعض الشيء، وفي أسفل خدها ندبة. داعب طانيوس بأصابعه الذقن المتطاول، ومرَّر إبهامه على الندبة.

ذرفت دمعتين من الفرح، وكأن الاعتراف بهذه العيوب اعتراف بالحب. وقالت له بالإيماءات أكثر من الكلمات:

- هناك، ما وراء البحار، سوف تكون زوجي، وسأكون زوجتك.

ومرة أخرى، أجاب طانيوس " نعم"، ثم تأبط ذراعها، وراح يمشي ببطء معها حول الغرفة كأنهما في عرس.

استجابت لهذه المحاكاة بابتسامة حزينة، ثم ابتعدت، وجذبت بدورها الشاب من يده، وقادته إلى زاوية في الغرفة أزالت فيه بأظافرها بلاطة، وأخرجت، من مخبأ، علبة تبغ عثمانية قديمة نزعت غطاءها ببطء. كانت تحتوي على عشرات القطع الذهبية والفضية، وكذلك أساور وأقراط... كانت تحتفظ في منديل مبطن بقطعتي الغروش الستة اللتين نقدها إياهما طانيوس خلال زيارتيه السابقتين. أرته إياهما، ووضعتهما في جيبه داخل المنديل، وأغلقت علبة التبغ، ثم أعادت البلاطة إلى مكانها.

لم يستجب الشاب على الفور. ولكنه أدرك فقط، لدى عودته إلى غرفته التي كان جريس ما زال يشخر فيها، واستحضاره للمشهد، الثقة الفريدة التي أعربت له عنها ثمر لتوها. لقد وضعت كنزها وحياتها بين يدي رجل غريب. كان على يقين أنه لم يسبق لها أن تصرفت على هذه الشاكلة مع رجل. وشعر بالزهو والحنان، وتعهد ألا يخيب أملها. فهو الذي طالما عانى من الخيانة، لن يخون قط!

ومع ذلك،

حين كانت السفينة تنتظرك في المرفأ، بحثت عنها لوداعها

ولكن عشيقتك لم ترغب في مثل هذا الوداع

III

انتاب جريس وطانيوس الهلع إذ سمعا قرعاً على الباب ذات يوم، في الصباح الباكر. ولكنهما تعرفا إلى صوت فهيم.

- لن تلوماني حين تعلمان ما الذي أتى بي!

- أنطق!

- لقد نفق الغول!

انتصب جريس، وتشبثت يداه الإثنتان بأكمام صديقه.

- كرر ما قلت، فلم أسمعك جيداً!

- لقد سمعتني، الغول نفق. لقد كف الوحش عن التنفس، كف عن الأذى، وتضرّجت لحيته الطويلة بدمه. حدث ذلك منذ خمسة أيام، وقد علمت بالأمر هذه الليلة. ولقد أمر السلطان بشن هجوم على الجيوش المصرية التي اضطرت للانسحاب من الجبل. ولما علم المعارضون، قبضوا على خناق الأمير، وذبحوه مع أنصاره، وأعلنوا العفو العام. ولعلني أخطأت بإيقاظكما من النوم للاشيء... أخلدا للنوم بسلام، وسوف أنصرف.

- انتظر، إجلس قليلاً. إذا كان ما تقول صحيحاً، فبوسعنا العودة إلى الديار.

- يا واش، يا واش! على رسلك! لن نرحل هكذا، بسبب

نزوة. فلا شيء يضمن أننا سنجد سفينة في الأيام القادمة. لا تنس أننا في تشرين الثاني!

أعلن جريس، وقد سئم فجأة ونفذ صبره: "لقد انقضت علينا سنة تقريباً في هذه الجزيرة، سنة ولميا وحدها".

فأجاب فهيم: "لنذهب ونحتسي القهوة، ثم نتجول قرب أرصفة المرفأ، ومن ثم، نقرر ما العمل".

كانوا في ذلك الصباح أوائل زبائن اليوناني. كان الطقس بارداً، والأرض رطبة، فجلسوا داخل المقهى، قرب الموقد. طلب جريس وطانيوس قهوة حلوة، وشربها فهيم سادة. كان نور النهار ينفخ الشوارع بطيئاً، والحمالون يتوافدون، بحبالهم على ظهورهم المقوسة. توقف بعضهم أولاً في مقهى اليفتيريوس الذي قدم لهم أول فنجان قهوة، قبل أن يتقاضوا أجرهم الأول.

وفجأة، لاح بين المارة، وجه معروف.

تمتم طانيوس: "أنظرا من أقبل".

قال فهيم: "لندعوه للجلوس معنا. سوف نتسلى. خواجا سلوم، تعال وانضم إلينا".

اقترب الرجل، وحياهم ملامساً جبينه بيده.

- لن ترفض فنجان قهوة!

- لا أرغب بتناول أي شيء هذا الصباح. أعذروني، يجب أن أنصرف.

- يبدو لي أن أمرا ما يقض مضجعك...

- من الواضح أنكم لا تعلمون.

- لا نعلم بماذا؟

- الأمير، أميرنا العظيم، توفي. ولن تنهض البلاد من كبوتها. لقد قتلوه، وأعلنوا العفو، وسوف نرى، عما قريب،

المجرمين يتبخترون بكل حرية. لقد ولى عهد العدل والنظام. وسوف تعم الفوضى، ويصبح كل شيء عرضة للانتهاك!

علق فهيم، وهو يضبط نفسه لئلا ينفجرضاحكاً: "إنه لمصاب أليم".

تابع جريس بصوت أصبح فجأة نائحاً: "الله يرحمنا".

-كان يجب أن أرحل هذا الصباح، فهناك سفينة تبحر إلى اللاذقية. ولكني أتردد الآن.

- أنت على صواب. فلا شيء يدعو للعجلة.

ردد سلوم ساهماً: "لا، لا شيء يدعو للعجلة. ولكن الطقس قد يسوء، والله وحده يعلم متى يتسنى لنا الإبحار ثانية".

تابع الرجل طريقه، مطأطيء الرأس، فيما كان فهيم يقبض بقوة على سواعد رفيقيه:

- اكبحا جماحي، وإلا سوف أضحك قبل أن يولي لنا ظهره!

ثم نهض.

- لست أدري ما الذي عقدتما العزم عليه، ولكني سوف أبحر على متن هذه السفينة هذا الصباح. فبعد ما أعلنه هذا الرجل، وبعد رؤية سحنته لحظة تلفظ بكلمة " عفو"، حسمت أمري. سوف أرحل إلى اللاذقية، وأبقى فيها ليلة أو ليلتين، للتأكد من صحة الأنباء الواردة من الجبل، ثم أعود إلى ضيعتي عن طريق البر. أعتقد أنه يجدر بكما أن تحذوا حذوي. أعرف صديقاً يملك بيتاً في صُلُنْفة، في أعلى الجبل، ولسوف يسر باستضافتنا نحن الثلاثة!

حسم جريس أمره.

- سوف نرحل بمعيتك.

كان يتراءى في عينيه وجه لميا وشمس ضيعته. ولعله كان

يخشى كذلك قضاء الشتاء في فاماغوستا بدون رفيق تسلية. وكان طانيوس أكثر تردداً منه، ولكن القرار النهائي لا يعود إليه وإلى سنواته الثماني عشرة.

فاتفقوا على اللقاء بعد ساعة على رصيف المرفأ، على أن يهتم فهيم بالحجز على متن السفينة، فيما يعود رفيقاه إلى الخان لإخلاء غرفتهما ومحاسبة صاحب الخان.

كان كل منهما يحمل بقجة صغيرة فحسب، وقسم جريس المال المتبقي بينهما مناصفة.

وقال: "في حال مت غرقاً...".

ولكنه لم يكن كئيباً، وتوجها إلى المرفأ.

كانا قد تقدما عشرين خطوة فقط وإذ بطانيوس يتوقف، متظاهراً بأنه قد نسي شيئاً.

- يجب أن أعود إلى الغرفة قليلاً. تابع السير، وسوف ألحق بك.

فتح جريس فمه للاحتجاج، ولكن الشاب كان قد توارى عن الأنظار. فتابع طريقه، بخطى وئيدة، وهو ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر.

ارتقى طانيوس السلالم مهرولاً، وتجاوز الطابق الثالث، ثم توقف لاهثاً في الخامس، وقرع الباب. قرعه مرتين بقوة، ثم أعاد الكرة. ففتح أحدهم باب غرفة مجاورة لم تكن غرفة ثمر. كانت عينان غريبتان ترمقانه. ولكنه قرع الباب مجدداً. ثم ألصق أذنه على الخشب. لم يسمع صوتاً. فألصق عينيه على القفل، ولم يلمح ظلاً. نزل السلالم، ببطء، راجياً أن يصادف صديقته في السلالم، سلالمهما.

اجتاز باحة الخان، والدكاكين، وسط الزبائن، وظل يجيل

الطرف باحثاً عنها، إلى أن بلغ الشارع. ولكن ثمر اختارت أن تتغيب في ذلك الصباح.

كان طانيوس يتلكأ، غافلاً عن الساعة، وإذ بصفارة قادمة من المرفأ تتناهى إلى مسامعه، فراح يجري. وأطاح الهواء بالمنديل الذي كان يعصب به رأسه الشاب الأشيب. التقطه، واحتفظ به بيده، معتزماً أن يلف به رأسه لاحقاً على متن السفينة.

كان جريس وفهيم يومئان له أمام الجسر، وقد عيل صبرهما. وكان سلوم واقفاً على مقربة منهما؛ ويبدو أنه قد قرر بدوره الرحيل.

كانت السفينة تهم بالإبحار، وحشد من الحمالين ينقلون إليها، كل اثنين أو ثلاثة معاً، حقائب ثقيلة مزنرة بالحديد.

ولما جاء دور فهيم وجريس للصعود إلى متن السفينة، أشار هذا الأخير إلى الجمركي التركي باتجاه طانيوس، وأراه إسمه على التذكرة ليأذن له بموافاتهما لأن زهاء عشرين مسافراً كانوا يفصلونه عنهما.

كان الرجلان قد اعتليا بالكاد متن السفينة، حين اعترضت الإبحار فرقة من الخيالة. فقد وصل تاجر ثري، وهو يكاد يجري، موزعاً حوله الأوامر والشتائم إلى سرب من الخدم. فطلب الجمركي إلى المسافرين الآخرين التنحي جانباً.

تبادل مع المسافر الوافد عناقاً طويلاً، وبعض الهمسات، ثم أجالا معاً على الجموع المحيطة بالنظرة المرتابة والمزدرية نفسها، والمرحة كذلك، بالرغم من أن لا شيء كان يضحك في هيئة هؤلاء المسافرين الطيبين الذين كان بحر تشرين الثاني يبعث في نفوسهم التوجس سلفاً؛ ولعل الأمر الوحيد الذي كان يبدو طريفاً كان وقوفهم بجوار ذلك التاجر الذي كان أكثر اكتنازاً من أضخم حقائبه، وذلك الجمركي الهزيل والبارز التقاطيع، المعتمر قبعة

ضخمة مزينة بالريش، بشاربيه اللذين يمتدان حتى أذنيه. ولكن لا أحد من الناس كانت لتسول له النفس أن يسخر من مظهرهما.

تطلب الأمر الانتظار ريثما يجتاز التاجر الجسر مع كل حاشيته قبل أن يطأه بقية المسافرين بأقدامهم المتواضعة.

وعندما جاء دور طانيوس، أشار له الجمركي بالتريث. فافترض الشاب أن الأمر بسبب سنه، وأفسح المجال للرجال الذين يكبرونه سناً الواقفين خلفه، حتى عبروا جميعاً. ولكن الجمركي اعترض طريقه ثانية:

- قلت لك أن تنتظر، فانتظر! كم تبلغ من العمر؟

- ثمانية عشر عاماً.

كان بعض الحمالين يقفون خلفه، فتنحى طانيوس لهم جانباً. وكان جريس وفهيم يهتفان على متن السفينة لحثه على الإسراع، ولكنه أومأ لهم بيده أن لا حيلة له، وأشار خلسة إلى الجمركي.

وفجأة، رأى طانيوس أن جسر السفينة بدأ يرفع. فصرخ، ولكن العثماني بادره بهدوء:

- سوف تبحر على متن السفينة القادمة.

راح فهيم وجريس يومئان بصورة محمومة، فأشار لهما الشاب بالبنان، محاولاً أن يشرح، بتركية ركيكة، أن والده على متن هذه السفينة، وان لا شيء يبرر على الإطلاق بقاءه على اليابسة. فلم يرد الجمركي بل نادى أحد رجاله، وهمس له بعض الكلمات ليشرح بالعربية إلى المتظلم:

- يقول سعادته إنك سوف تضرب وتزج في السجن بجرم إهانة ضابط من ضباط السلطان، إذا لم تكف عن وقاحتك. أما إذا امتثلت، فلن نتعرض لك، وبوسعك أن تبحر على متن السفينة القادمة، بل سوف يدعوك سعادته لتناول القهوة في مكتبه.

وأكد سعادته الدعوة بابتسامة. فلم يكن أمام طانيوس حل

آخر سوى الرضوخ لا سيما أن الجسر قد رفع أصلاً. فوجه إلى فهيم وجريس المذهولين إيماءة يريد بها القول: "لاحقاً". ثم اقتفى أثر الرجل البغيض ذي الشاربين الذي أمره أن يتبعه.

في الطريق، توقف الرجل مراراً لإعطاء أمر، وتفحص رزمة، وسماع شكوى. وبين الحين والآخر، كان طانيوس ينظر باتجاه السفينة التي رآها تبتعد ببطء، وقد نشرت أشرعتها. فلوح بيده للمسافرين دون التأكد من رؤيتهما له.

ولما وصل إلى مكتب ضابط الجمارك، حصل على التبرير الذي كان ينتظر. لم يكن يفهم كل كلام محاوره - ففي مدرسة القس، تعلم طانيوس التركية في الكتب، إنما ليس بالقدر الكافي للتحاور. إلا أنه أدرك فحوى الحديث: فالتاجر الذي رأوه قادماً، وهو من أغنى أعيان الجزيرة وأكثرهم نفوذاً، كان شديد التطير؛ والإبحار برفقة شاب أبيض الشعر كان يعني له الغرق المحتم.

انفجر ضابط الجمارك ضاحكاً، وطلب من طانيوس كذلك أن يسلم بطرافة الموقف.

علق مضيفه قائلاً: "إنها معتقدات سخيفة، أليس كذلك؟".

اعتبر طانيوس أن الحذر لا يقتضي الموافقة، فآثر القول:

- لقد اتخذ سعادتكم القرار الصائب.

فأصر الآخر: "ولكنها معتقدات سخيفة بالرغم من كل شيء؟".

وأوضح أنه يعتبر من جهته أن الشعر الذي يشيب قبل الأوان أفضل فأل خير. ثم اقترب من الشاب، ومرر يديه، الواحدة تلو الأخرى، في شعره، ببطء، وبمتعة جلية، قبل أن يصرفه.

ذهب طانيوس، بعد مغادرة مباني المرفأ، ليطلب من صاحب الخان استرجاع غرفته لبعض الليالي الإضافية. وروى مغامراته العاثرة للرجل الذي اعتبر بدوره أنها لا تخلو من الطرافة.

- أرجو أن يكون والدك قد ترك لك مالاً لتسدد لي أجرة الغرفة!

فربت طانيوس على حزامه بحركة واثقة.

وأردف صاحب الخان: "في هذه الحالة، يجب أن تشكر السماء لأنها تركتك هنا، فسوف تستعيد بعض العلاقات الممتعة. . . ".

وأطلق ضحكة القرصان الخبيثة، فأدرك طانيوس أن زياراته للطابق الأخير كانت معروفة. وغض الطرف، متعهداً في سره أن يتوخى الحيطة في المرة القادمة التي يقرع فيها باب ثمر.

أصر الرجل، وهو يضحك ضحكته الملتوية: "هيا، ستمرح هنا بالتأكيد أكثر مما لو كنت في الجبل الذي أتيت منه. القتال يتواصل هناك، أليس كذلك؟ وأميركم العظيم ما زال في رعاية باشا مصر! ".

صوَّب الشاب كلامه: "لا، لقد قتل الأمير، وانسحبت جيوش الباشا من الجبل".

- ماذا تقول؟

- إنها آخر الأنباء، لقد علمنا بها هذا الصباح، ولذلك عاد والدي إلى البلاد.

صعد طانيوس إلى غرفته وخلد للنوم. كانت ليلته قصيرة للغاية، وقد أحس بالحاجة لاستيقاظ أكثر سكينة.

لم يفتح عينيه قبل ساعة الغداء. ولمح في الشرفة بائع عوامات. فأسال البخار المتصاعد لعابه. واختار في نقوده القطعة المطلوبة، محتفظاً بها في قعر يده، لئلا يفك حزامه في الشارع، ثم خرج.

في أسفل السلم، صادف صاحب الخان الذي كان صاعداً لرؤيته.

- اللعنة عليك! كدت أن توقعني في مصيبة! لقد أخطأت بتصديق أكاذيبك الصبيانية!

وشرح له أن ضباطاً عثمانيين من معارفه قدموا لزيارته، وقد ظن أنه يجاملهم بتهنئتهم على الانتصارات التي حققوها ضد المصريين، ولكنهم امتعضوا.

- كادوا أن يلقوا علي القبض. فاضطررت أن أقسم لهم بأنني لا أهزأ بهم لأن الجيوش العثمانية قد منيت في الحقيقة بهزائم جديدة بدلاً من الانتصار. وأميرك ما زال حياً يرزق، مثلك ومثلي.

- لعل هؤلاء الضباط لا يعلمون بآخر المستجدات...

- لقد تحدثت إلى هؤلاء الضباط، وكذلك إلى مسافرين قد وصلوا لتوهم من بيروت، فإما أن يكون كل هؤلاء القوم كاذبين وجهلة، وإما...

" وإما "، كرر طانيوس، وراحت فرائصه ترتعد فجأة كأنه قد أصيب واقفاً بنوبة صرع.

IV

يفيد كتاب أخبار الجبل أن " فهيم كان الإسم المستعار لمحمود بو راس، أفضل بصاصي الأمير. كان يعمل في ديوان البصاصين بقيادة الخواجا سلوم كرامي الذي كان يعمل بهويته الحقيقية. وكانت الخطة التي أتاحت إعادة قاتل البطريرك إلى البلاد أعظم مأثرة حربية لهذين الرجلين.

" لقد أعاد هذا النجاح حظوة الأمير لدى الأهالي والمصريين. فقد أثبت للذين كانوا يزعمون أن زمام السلطة قد أفلت من يده، وأن يده تضعف، والشيخوخة تجتاحه بأنه ما زال يحتفظ باليد الطولى خارج الجبل، ما وراء البحار.

" اعتقل الجنود المصريون جريس فور وصوله إلى مرفأ اللاذقية، ثم نقلوه إلى قصر بيت الدين لإعدامه شنقاً. وقيل إنه واجه الخيانة والموت بامتثال عظيم.

" ولما علم الشيخ فرنسيس بمصير وكيله، قصد على الفور قصر بيت الدين للمطالبة بالإفراج عن ابنه، الشيخ رعد. وقد ترك يوماً كاملاً مع العامة، بدون اعتبار لمقامه وأسرته. ورفض الأمير مقابلته، ولكنه أرسل من يبلغه أنه يستطيع اصطحاب ابنه لو عاد في اليوم التالي.

" وفي الساعة المحددة، مثل أمام أبواب القصر؛ فأقبل جنديان وألقيا عند قدميه بجثة رعد الهامدة. كان قد أعدم شنقاً عند فجر ذلك اليوم، وما زال عنقه دافئاً.

" وعندما قصد الشيخ مفجوعاً ديوان الأمير للاستفسار عن سبب هذا العقاب، قيل له حرفياً: "لقد قال أميرنا إنه كان يجب أن يعاقب أب وإبنه على هذه الجريمة. وقد اكتمل العدد! ".

كان الرجل الذي تفوه بهذا الكلام الخواجا سلُّوم الذي كان الشيخ - حسب زعم صاحب أخبار الجبل - يعلم أصلاً بضلوعه في اعتقال جريس. ويقال إنه بادره قائلاً:

- أنت كلب حراسته، فاذهب وقل لأميرك أنه يجدر به أن يقتلني أيضاً، لو كان يرغب أن يرقد بسلام!

فأجاب سلوم، بأكثر النبرات هدوءاً:

- لقد سبق وفعلت، ولكنه حرص على أن ترحل. فهو الآمر الناهي...

- لا أعرف سيداً سوى ربي!

ويروى أن الشيخ قصد، لدى خروجه من القصر، كنيسة قديمة في نواحي بيت الدين، وركع أمام المذبح لرفع الصلاة التالية:

- يا رب، لقد زهدت في الحياة وملذاتها، ولكن لا تدعني أموت قبل أن أثأر!

لئن كان سلوم وفهيم عميلين للأمير، فضابط الجمارك التركي، والتاجر الثري المتطير، وكذلك المرأة ذات البرتقال، كانوا، بدون شك، عملاء العناية الإلهية.

إلا أن طانيوس، في أيام القلق تلك، كان لا يفكر بنفسه، ولا بحتفه الذي كان يتربص به، ولم يذهب لملاقاته. كان يحاول إقناع نفسه بأنهم لم يكذبوا عليه، وبأن " الغول" قد اغتيل حقاً،

وبأن النبأ سوف يذاع قريباً. كان يقول في سره إن فهيم ينتمي، بلا أدنى شك، إلى شبكة سرية من المعارضين؛ وأنه قد حصل على معلومات عن بعض الأحداث التي لن يعلم بها العامة إلا في الغد، أو في الأسبوع القادم.

ومضى يحوم في مقهى اليفتيريوس وفي الأسواق، وعلى الأرصفة، وفي الحانات قرب المرفأ، محاولاً أن يلمح في هيئة الناس أو في لهجتهم، أهالي الجبل والساحل، بحارة وتجاراً ومسافرين. ولكن لا أحد هدأ من روعه.

وفي المساء، قفل عائداً إلى غرفته، وأمضى الليلة بطولها على الشرفة، يراقب أضواء فاماغوستا تنطفىء، حتى الضوء الأخير، ويصيخ السمع إلى هدير الأمواج، وأعقاب دوريات العسكر. ثم، عند بزوغ الفجر، وبينما كانت أشباح أوائل المارة تعبر الشوارع، غفا على أصوات المدينة، وقد أسند جبينه على الإفريز، إلى أن أحرقت الشمس، في مسارها، عينيه. فنهض، منهكاً بسبب تشنجات جسده، مشبعاً بالمرارة، متابعاً بحثه.

في اللحظة التي كان يغادر فيها الخان، لمح عربة مارة يرفرف فوقها العلم الإنكليزي،، فكاد يرتمي عليها، صارخاً بلغتها:

- سيدي، سيدي، أود التحدث إليك.

توقفت العربة، وارتسم على وجه الرجل الذي كانت تقله الحيرة عبر بابها:

- - هل أنت من الرعايا البريطانيين؟

كانت اللهجة المصطنعة التي تكلم بها طانيوس توحي بذلك، بعكس مظهره. ولكن الرجل، في كل الأحوال، كان يبدو على استعداد لسماعه، فسأله الشاب إن كان على علم بالأحداث الخطرة التي قد تكون جرت في الجبل.

ولما فرغ من الكلام، أعلن الرجل الذي كان يتفرس في وجهه، بدلاً من الإجابة، بنبرة منتصرة:

- إسمي هوفزيبيان، وأنا ترجمان قنصل إنكلترة. وأنت، لا بد أنك طانيوس.

ترك لمحاوره الشاب الوقت لينظر إليه مبحلقاً:

- هناك من يبحث عنك يا طانيوس. لقد أعطى مواصفاتك للقنصلية. إنه قس.

- المحترم ستولتون! أين هو؟ كم أرغب بلقائه مجدداً!

- للأسف، لقد أبحر البارحة من ليماسول.

وبالعودة إلى يوميات المحترم جيريمي ستولتون، وملاحظاته الأخيرة لعام 1839، نقرأ ما يلي:

" لقد قررت السفر إلى القسطنطينية في شهر تشرين الثاني من أجل التحدث إلى سفيرنا، اللورد بونسونبي، بشأن الإغلاق المؤقت لمدرستنا، وهو قرار اضطررت لاتخاذه بسبب تصاعد حدة التوتر في الجبل، ولا سيما في السهلين...

" إلا أن بعض الشائعات تناهى إلى مسامعي في الأسابيع التي سبقت رحيلي، ومفاده أن طانيوس ووالده قد وجدا لهما ملاذاً في قبرص. فتساءلت إن كان لا يجدر بي أن أعرِّج على الجزيرة في طريقي.

" كان ترددي عظيماً. فمن جهة، لم أشأ، بصفتي كاهن الكنيسة الإصلاحية، أن أظهر أي تعاطف مع قاتل بطريرك كاثوليكي. ومن جهة أخرى، لم يكن بوسعي القبول بأن ينهي أكثر تلامذتي تفوقاً وألمعيةً وإخلاصاً، وقد أصبح بالنسبة لي وللسيدة ستولتون بمثابة إبن بالتبني، حياته على حبل المشنقة، وهو لم يرتكب إثماً سوى إشفاق الإبن على أب مضلَّل.

" فصمَّمت أن أعرِّج على قبرص لغاية واحدة، هي فصل

مصير الشاب عن مصير والده، جاهلاً أن المسألة كانت تتحقق في اللحظة عينها، بفضل التدخل الحكيم للعلي القدير، وبدون اللجوء إلى الوسيط الضعيف الذي كنت.

" كنت على يقين، بدافع سذاجة أحمرُّ لها خجلاً اليوم، ويعذرها رجائي العظيم، أنني سوف ألتقي بتلميذي في غضون ساعات بمجرد وصولي إلى الجزيرة، وطرح الأسئلة المناسبة على الناس. فقد كان يتسم بسمة تجعل التعرف إليه سهلاً - وهي شعره الذي شاب قبل الأوان -، وإذا لم يخطر له أن يصبغه لسوء الحظ بدافع الحيطة، فلعلني أوفق في الاهتداء إليه.

" ولكن الأمور لم تكن بهذه السهولة. فالجزيرة كبيرة، وموانئها كثيرة، بل تفوق مساحتها أربعين مرةً مساحة مالطة التي عرفتها بصورة أفضل. ومن ثم، ما كدت أسأل حولي حتى أدركت مذعوراً الخطر الذي كنت أعرض له تلميذي بغير قصد. فلم أكن الشخص الوحيد الذي يسعى وراءه، ولو مضيت في البحث والتقصي، لسهلت مهمة أولئك الذين يضمرون له الشر.

" فقررت، بعد يومين، أن أكلف بهذه المهمة الصعبة رجلاً واسع الحيلة، هو السيد هوفزيبيان، الترجمان الأرمني في قنصليتنا، قبل مواصلة رحلتي.

" وغداة رحيلي، عثر على طانيوس، لا في ليماسول حيث بحثت عنه بل في فاماغوستا، وقد أوصاه السيد هوفزيبيان بعدم مفارقة الخان الذي كان يقيم فيه، ووعده بإبلاغي حول وضعه. وقد تسلمت رسالته بالفعل، بعد ثلاثة أسابيع، بواسطة أمين سر اللورد بونسونبي... ".

لئن أتاح هذا اللقاء مع الترجمان القيام بهذا الإتصال الثمين، فبال طانيوس لم يطمئن حول بيت القصيد، أي الأنباء الواردة من البلاد. لقد كان من الواضح أن الأمير لم يفارق الحياة، ولا ريب

أن الاستياء كان يعم وينتشر، والحديث يدور حول انتفاضة في الجبل؛ كما أن الدول العظمى، وبخاصة إنكلترة، والنمسا، وروسيا، كانت تتشاور حول الطريقة الفضلى لحماية السلطان من غارات خصومه في مصر؛ ولم يعد التدخل العسكري أمراً مستبعداً على الإطلاق، وكانت كل هذه الأمور تصب بدون شك في الاتجاه الذي تمناه جريس المسكين. إلا أن الانقلاب لم يحصل، ولم يحدث ما من شأنه أن يبرر عودته المستعجلة.

كان طانيوس يجترّ الأحاديث مع فهيم وسلوم، ويستعيد الكلام، ويستحضر العبارات التي صار يدرك مغزاها بصورة مختلفة. ثم يتخيل جريس واصلا إلى المرفأ، معتقلاً، مكتشفاً الحقيقة، مغلولاً، متعرضاً للضرب، مهاناً، مساقاً إلى حبل المشنقة، مقدِّماً عنقه إلى الجلاد، ثم متأرجحاً ببطء وسط ريح البحر الخفيفة.

كان يعتري طانيوس، وهو يتصور هذا المشهد، إحساس فظيع بالذنب. فلولا نزواته وضلاله، ولولا توعده بالانتحار، لما تحول الوكيل إلى قاتل. "كيف بوسعي أن أواجه ثانية نظرة أمي، ونميمة الأهالي؟". فيروح يفكر بالرحيل، بعيداً، إلى أقاصي المعمورة.

إلا أنه كان يعدل عن رأيه، ويعاود التفكير بجريس، ويتذكر عينيه المذعورتين، يوم اغتيال البطريرك، ويتخيله بهاتين العينين أمام حبل المشنقة، أمام الخيانة. ومثلما جرى في ذلك اليوم، تمتم هامساً: "أبي".

العبور الثامن

ركوعاً في سبيل المجد

فانتحيت بطانيوس، كما كان يحتم علي الواجب، وقلت له: فكر ملياً، لا شأن لك بهذه الحرب. فسواءٌ هيمن المصريون على جبلك أو العثمانيون،، وسواءٌ تفوق الفرنسيون على الإنكليز أم حصل العكس، لن يتغير الوضع بالنسبة لك.

ولكنه اكتفى بالقول: لقد قتلوا أبي!

يوميات القس جيريمي ستولتون
عام 1840

I

ما هو السبب الذي دعا الأمير إلى إخلاء سبيل الشيخ المفجوع؟ لم يفعل بدافع الإهمال، وأقله بدافع الشفقة.

ومع ذلك، فقد أعلن العاهل العجوز: "يجب أن يسمح له بالبكاء على جثمان ولده".

وراحت ترتعش رموشه التي كانت طويلة للغاية كأقدام عنكبوت غير مرئي.

أعلن الشيخ، لدى عودته إلى كفريبدا، عن تنظيم أعظم مأتم لرعد شهده الجبل. كان عزاء بائساً، ولكنه كان يشعر بأنه يدين لابنه، ولأسرته، بذلك التكريم الأخير، وللأمير بهذا التحدي الأخير.

– سوف ترون أن الناس سيتقاطرون من كل حدب وصوب. سوف يأتي أغنى القوم وأفقرهم للإعراب عن حزنهم، وغضبهم المحق، وحقدهم على الطاغية.

غير أن من حوله نجحوا في ثنيه عن عزمه. فقد تشاور الأهالي، وكالعادة، صعد الخوري إلى القصر، لينقل مخاوفهم.

– ألم يتساءل شيخنا عن السبب الذي جعل الأمير يرحمه؟

- هذا هو السؤال الذي يقض مضجعي منذ غادرت بيت الدين، ولا أجد له جواباً.

- وماذا لو كان الطاغية يريد بالضبط أن يستدعي شيخنا كل أصدقائه الأوفياء، وكل الخصوم، وكل الذين يطالبون بتغيير الأوضاع؟ سوف يتوافد هؤلاء جميعاً إلى كفريبدا، ويتسلل بينهم عملاء الأمير، ويعرفون أسماءهم، ويحفظون كلامهم، ثم، في الأيام اللاحقة، تكمم أفواه أصدقائك الواحد تلو الآخر.

- قد تكون محقاً، يا بونا. ولكنني لن أدفن إبني خلسة كالكلب.

- ليس كالكلب، يا شيخنا، إنما بكل بساطة كمؤمن بالخلاص وعدالة الخالق.

- كلامك يبعث في نفسي العزاء. فأنت تتكلم بإسم الدين، وكذلك بإسم الحكمة، إنما ما أعظمه من نصر للأمير لو استطاع أن يمنعنا حتى من مشاطرة أحزاننا مع أحبائنا!

- لا يا شيخ، لا يستطيع ذلك بالرغم من كونه أميراً. بوسعنا أن نرسل إلى كل القرى، ونطلب من أهاليها أن تتزامن صلواتهم مع صلواتنا، إنما بدون أن يتوافدوا إلى هنا. وهكذا، يعرب لنا كل امرء عن تعاطفه بدون إفساح المجال للأمير لتحقيق مأربه.

ومع ذلك، فقد وصل سعيد بك، يوم المأتم، مع العلم أنه قد تقرر أن يقتصر على أهالي الضيعة وحدهم. ويوضح كتاب أخبار الجبل: "كان سيد السهلين قد تعرض لكبوة مؤخراً، ولكنه حرص على المجيء، متكئاً على ذراع ابنه البكر، قحطان بك".

- لقد طلب الشيخ فرنسيس من أصدقائه الكثيرين عدم المجيء في هذه الظروف، تفادياً لإحراجهم، وهذا دليل على نبله وشرفه. ولكن شرفي يملي عليَّ المجيء بالرغم من ذلك! وأشار

صاحب أخبار الجبل: "وسوف يكلفه هذا التصريح حياته، ويجلب لضيعتنا وابلاً جديداً من الويلات".

وقف الزعيمان العجوزان، جنباً إلى جنب، معاً، للمرة الأخيرة. وعلى قبر رعد، تمتم بونا بطرس صلاة طويلة ذكر فيها خاطرة لجريس، لكي تغفر له السماء جريمته. وعلى حدِّ علمي، لم تسترجع جثة الوكيل؛ و لم يدفن ذلك الرجل دفناً لائقاً.

لم يكد يمضي أسبوعان حتى اجتاحت كفريبدا مفرزة مهيبة من القوات المصرية وجنود الأمير، عند الفجر، من كل الجهات، كأن الضيعة قلعة العدو. وانتشر الجنود على البلاطة، وفي الشوارع المتاخمة لها، وعلى الدروب المؤدية إلى الضيعة، ونصبوا خيامهم حول القصر. كان عادل أفندي على رأسهم، يشد أزره الخواجا سلوم، بتكليف من الأمير.

طلب الرجلان مقابلة الشيخ الذي حبس نفسه على الفور في جناحه، وأبلغهم أنه لو كان لديهما أدنى احترام لحداده، لما قدما لإزعاجه قبل انقضاء الأربعين. ولكنهما اقتحما خلوته، وأرغماه على سماع رسالة "الطاغية". كان هذا الأخير يذكره بأن البطريرك جاء يطلب منه إمداد الجيش بالعديد، ويريد أن يتأكد من استعداده للقيام بذلك. فكرر الشيخ:

- عودا بعد انقضاء الأربعين، وسوف أتحدث إليكما.

إلا أنهما قدما بدافع الاستفزاز وفي مهمة كان يجب إنجازها. وفيما كان سلوم يتظاهر بالتفاوض في القصر، قرع رجاله الأبواب في الضيعة، طالبين من الأهالي التجمع على البلاطة للاستماع إلى بيان.

راح الأهالي يقتربون، وقد اعترتهم الريبة، وكذلك الفضول، وشيئاً فشيئاً، غصَّ المكان بهم من باحة مدرسة الرعية إلى قناطر

المقهى، بل وضع بعض الأولاد الطائشين أيديهم في مياه النبع الباردة قبل الإنصراف إثر صفعة من ذويهم.

وهناك، في جناح الشيخ، كان عادل أفندي يقف صامتاً قرب الباب، وقد شبك ذراعيه، في حين كان سلوم يمعن في مضايقة مضيفه وفريسته.

- رجال كفريبدا مشهورون ببسالتهم، وفور تجنيدهم، خطر لأميرنا أن يكلفهم بمهمة.

لعله كان يريد أن يسأل عن نوعية هذه المهمة، ولكن الشيخ تركه يتابع الكلام:

- يمعن أهالي السهلين في صفاقتهم. والبارحة بالذات، نصبوا كميناً لدورية حلفائنا، وجرحوا ثلاثة رجال، وقد آن الأوان لإنزال عقوبة بهم تكون عبرة لمن يعتبر.

- وتريدان قيادة رجالي ضد رجال سعيد بك؟

- نحن، نقود رجالك، يا شيخ فرنسيس! معاذ الله! إننا نحترم تقاليد كفريبدا. سوف تكون أنت على رأسهم، ولا أحد غيرك. ألست أنت الذي تقودهم دائماً إلى القتال؟

كان رئيس البصاصين يبدو مستمتعاً بدوره - يحمل شوكة بيده، وينكأ ببطء جراح الأسد الجريح. رمق الشيخ باب غرفته. كان عشرات الجنود يقفون متأهبين لإشهار سلاحهم. فالتفت نحو جلاده، وتنهد بازدراء.

- قل لسيدك إنه لم يسبق قط أن سفكت الدماء بين أسرة سعيد بك وأسرتي، ولن تسفك طالما أنا على قيد الحياة. وبالمقابل، يوجد بين أميرك وبيني دم ابني البريء الذي سوف يفدى كما يجب. يعتقد سيدك أنه بلغ اليوم أوج سلطانه، ولكن أعلى الجبال تشرف على وديان سحيقة. أما الآن، فلو بقيت لديكما ذرة كرامة، فأخرجا من غرفتي، وغادرا قصري!

فأعلن سلوم، وهو ينظر أرضاً: "لم يعد هذا القصر قصرك. وأحمل أمراً بمصادرته".

وأشرع عادل أفندي مصراع الباب، مفسحاً المجال أمام رجاله الذين كان قد نفذ صبرهم.

وبعد لحظات قليلة، نزل الشيخ فرنسيس سلم القصر، معصوب العينين، وقد أوثقت يداه خلف ظهره، باتجاه النبع، مخفوراً بين جنديين كانا يسندانه من ذراعه. كان حاسر الرأس، كاشفاً عن شعره الأشيب المنتصب حول صلع خفيف. ولكنه ما زال يرتدي سترته الخضراء المذهبة التطريز، آخر معالم سلطته.

كان أهالي الضيعة حاضرين، صامتين، واجمين، يتنفسون على إيقاع خطى الرجل العجوز، منتفضين كلما انزلقت قدمه، وساعده الجنود على الانتصاب.

ثم أشار سلوم إلى الجنود بالتوقف، وإقعاد الشيخ أرضاً. ثم اقترب هو وعادل أفندي، ووقفا أمام سجينهما بحيث توارى هذا الأخير عن أنظار الناس.

وألقى مستشار الأمير الخطاب التالي:

" يا أهالي كفريبدا،

لا هذا الشيخ، ولا أسرته، ولا سلالته، كانوا يكنون أي تقدير لكم، ولعرض نسائكم، ولحقوق المؤاكرين. فبحجة جباية الضريبة، قاموا بتحصيل أموال غير مستحقة كانت مخصصة للإنفاق على حياة الرخاء والتهتك في هذا القصر.

" ولكن هذا الرجل الذي ترونه راكعاً ورائي اقترف أسوأ المعاصي. فقد تحالف مع الهرطقة، وتورط في اغتيال بطريرك جليل، وجلب لهذه الضيعة ولأهاليها غضب الرب والسلطات.

" لقد جئت لأعلن لكم أن عصر الإقطاع قد ولى. أجل،

لقد ولى الزمن الذي كان يعطي فيه رجل متعجرف لنفسه حقوقاً تعسفية على النساء والصبايا.

" هذه الضيعة لم تعد ملكاً للشيخ بل لأهاليها، وكل أملاك الإقطاعي سوف تصادر، اعتباراً من هذا اليوم، لمصلحتكم، وتعهد إلى حراسة الخواجا روكز، الماثل أمامكم، ليؤمن إدارتها بعناية من أجل الصالح العام".

كان الوكيل السابق حاضراً، على صهوة جواده، منذ بعض الوقت، محاطاً بحراسه، منزوياً قليلاً عن جموع الأهالي. التفتت الوجوه نحوه، فغلغل يده في لحيته المزدهرة وارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، فيما كان سلوم يختم قائلاً:

" اليوم، وبمشيئة العلي القدير، وبفضل الرعاية الرشيدة لأميرنا المحبوب، وتأييد حلفائنا الظافرين، طويت صفحة من تاريخ هذه المنطقة. لقد هوى الإقطاعي البغيض إلى الحضيض، والشعب يشعر بالسرور والغبطة".

ظلت الجموع صامتة، بقدر ما كان الشيخ صامتاً. أطلق رجل واحد صرخة فرح، ثم ندم تواً. كان نادر، ويبدو أنه وصل إلى الساحة، في ختام خطاب سلوم، ولعله تذكر " ثورته " الفرنسية، فهتف ببساطة: "إلغاء الامتيازات!".

التفتت صوبه مئات العيون الساخطة، فجزع البغّال بالرغم من حضور عادل أفندي وجنوده، وروكز وحراسه، ومستشار الأمير. ثم غادر كفريبدا في ذلك اليوم، مقسماً ألا يرجع إليها أبداً.

وبغضّ النظر عن هذه الحالة الاستثنائية، لم تظهر على الوجوه أمارات الفرح التي كان يفترض أن ترافق هذا الإعلان التحريري. كانت دموع، ليست بدموع فرح، تنهمر على وجوه الرجال والنساء. فتبادل الجنود المصريون النظرات. وراح سلوم يجيل على كل هؤلاء الجاحدين نظرة متوعدة.

ولما أجبر الشيخ على الوقوف، وسيق بعيداً، تعالى النحيب والصلوات والأنين، كما في مأتم شخص عزيز. ومن بين النساء اللواتي رحن ينتحبن، كانت أكثر من واحدة قد عاشرها الشيخ ثم هجرها، وغيرهن ممن اضطررن للتحايل من أجل الإفلات من إغوائه. كن ينتحبن جميعاً بدون استثناء، ولميا أكثر من غيرها، وكانت تقف بجوار الكنيسة، متشحة بالسواد، جميلة وممشوقة القوام بالرغم من وطأة الأحزان.

وفجأة، سمع جرس الكنيسة. قرع مرة واحدة، أعقبها صمت. ومرة ثانية، أكثر دوياً، انتشرت كالزئير. وأرجعت الجبال الصدى الذي كان يرن في الآذان وإذ به يعلو للمرة الثالثة. كانت الخورية تمسك بذراعيها العنيدين الحبل، تجذبه، تفلته، ثم تشده مجدداً.

واصل الجنود المذهولون للحظات السير. وانتصبت قامة الشيخ وسطهم أعلى ما أمكنها.

ما كان يجدر بي أن أصف تلك الثورة الاجتماعية الكبرى التي حدثت في ضيعتي آنذاك بهذا الأسلوب. ولكن مصادري تذكرها على هذا النحو، وهكذا ظلت محفورة في ذاكرة العجائز.

ولعله كان يجدر بي تزييف الوقائع قليلاً، كما فعل آخرون قبلي. فلربما كنت حظيت بمزيد من الاحترام والمصداقية، إنما كانت بقية روايتي ستصبح غير مفهومة.

II

غداة هذا الاحتفال، فارق روكز داره المنيفة كثوب أضحى ضيقاً وغير لائق. وانتقل للعيش في القصر مع ابنته، وحراسه، وهواجسه، وأطماعه الدنيئة. كما أحضر رسماً كان قد طلب من فنان بندقي عابر إنجازه، وسارع لعرضه في قاعة الأعمدة مكان اللوحة التي كانت تسلسل شجرة أسرة الشيخ المخلوع. كان رسماً مطابقاً لصاحبه للغاية، كما قيل، مع فارق بسيط أن الوجه المرسوم كان خالياً من أي أثار للجدري.

استقرت أسما في الغرفة التي كانت تسكن فيها الشيخة فيما مضى، ويبدو أنها كانت لا تخرج منها إلا لماماً. أما الجناح الذي كان يقطن فيه وكيل القصر، والذي شغله روكز قبل سنوات، فقد ظل مهجوراً. وأقامت لميا عند شقيقتها، الخورية، قلما يلمحها الناس، لا تخرج إلا لحضور القداس يوم الأحد، مروراً بالحجرة الكهنوتية. كانت قامة سوداء ونحيلة يرمقها المؤمنون برقة، ولكنها لا ترمق أحدهم بنظرة.

سألت جبرايل العجوز يوماً: "ألم تشعر بالندم قط؟"

زمَّ عينيه، كأنه لم يدرك قصدي.

- أنت، وكل عجائز الضيعة، أوحيتم لي أنها قد استسلمت

للإغواء، عصر أحد أيام أيلول، في مخدع الشيخ، وأن خطيئتها جلبت للضيعة وابلاً من الشقاء. ومع ذلك، كلما تذكر والدة طانيوس، تصفها بالبراءة والجمال والفتنة، " النعجة الوديعة " ، ولا تضعها قط في موضع الإتهام، ولم تذكر مرة واحدة ندمها في معرض حديثك.

كان جبرايل يلوح مبتهجاً بسخطي، كما لو أن استفزازه للدفاع عن شرف تلك السيدة ضرب من الامتياز. كنا جالسين في بهو بيته العتيق المشيد من الحجر الرملي. فأمسك بيدي، وقادني إلى الخارج، على شرفة تتوسطها شجرة توت من الزمن الغابر.

- كحِّل عينيك بجبالنا. منحدراتها الناعمة، ودیانها الخفية، مغاورها، صخورها، أنفاسها العطرة، وألوان ثوبها المتغيرة. جميلة هي مثل لميا. فاتنة مثلها، وبدورها تحمل جمالها كالصليب. مشتهاة، معنفة، مهانة، غالباً مستلبة، وفي بعض الأحيان معشوقة وعاشقة. ماذا يعني، بالنظر إلى مئات السنين، الزنى والعفة أو السفاح؟ إنما هي من حيل الولادة.

" هل كنت تفضل أن تظل لميا متوارية عن الأنظار؟ تحت حكم روكز، عاشت مختبئة، وأصبحت ضيعتنا كزهرة "بخور مريم" مقلوبة؛ زهرتها مطمورة في التراب، وزغب جذورها شاخص نحو السماء.

كان لقب " الدرنة المشعرة " أقل التشبيهات خبثاً وشراسة في ضيعتي حالما يذكر إسم روكز. ولا شك أن هذه العداوة كانت مبرَّرة. غير أنها بدت لي أحياناً متمادية في غلوها. لا ريب أن هذا الرجل كان لا يخلو من الوضاعة، ولكنه يثير الشفقة كذلك؛ كان الطموح عنده كالقمار أو البخل عند غيره، رذيلة يعاني منها، وفي الوقت عينه، لا يقوى على التخلص منها. هل يعني ذلك أن خطأه، يوم خان طانيوس، يعادل خطأ المقامر الذي

يبدد مبلغاً مختلساً من شخص عزيز؟ لن أذهب في التحليل إلى هذا الحد، إنما يتراءى لي أحياناً أنه في اللحظة التي كان يحيط بها الفتى برعايته، لم يكن يفعل بدافع الحسابات الباردة فحسب، بل بدافع رغبة جامحة للإحساس بأن طانيوس يكن له الحب والإعجاب.

ولئن ذكرت هذا الطبع، فليس لتبرئة ساحته - وهو لم يعد بحاجة لذلك، حيثما كان -، بل لأنه سوف يسلك هذا السلوك مع الأهالي، رعاياه.

لا ريب أنه أمعن في الدسائس والتنازلات وتوزيع الإكراميات للحصول على معقل خصمه المخلوع. ولكنه لم يتمكن من الاستمتاع بهذا الانتقام الذي كان يترقبه ويحضر له منذ سنوات طويلة. بسبب الأهالي الذين بكوا أمام مشهد سيدهم المذلول. لقد ارتسم في ذلك اليوم على وجه والد أسما تعبير متعجرف، ولكنه كان يتميز غيظاً في أعماقه. وقد أقسم على أن يكسب محبة هذا الحشد، في القريب العاجل، وبكافة الوسائل.

استهل عهده بإلغاء عادة تقبيل اليد، رمز الغطرسة الإقطاعية. ثم أبلغ الفلاحين أنه لن يطالبهم بغرش واحد حتى نهاية السنة " لمنحهم الوقت الكافي لترتيب أوضاعهم إثر شدائد المواسم الأخيرة "؛ ولو توجب تسديد ضرائب، فسوف يسدِّدها بماله الخاص.

كما قرر ترميم برج جرس الكنيسة الذي كان مهدداً بالانهيار، وتنظيف حوض النبع. وعلاوة على ذلك، دأب على توزيع القطع الفضية حوله كلما اجتاز الضيعة، على أمل أن يبتهج الأهالي بزياراته، ويهتفوا له، إنما بدون جدوى. فالناس كانوا ينحنون لالتقاط قطعة النقود، ثم ينتصبون مولين له ظهرهم.

وعندما ذهب روكز، في أول أحد بعد قدومه إلى الكنيسة،

اعتبر أن من حقه الجلوس في المقعد المغطى بسجادة والذي كان مخصصاً حتى الساعة للشيخ. ولكن المقعد كان قد اختفى، توارى بفضل عناية الخوري الذي اختار في ذلك اليوم موضوعاً لعظته تلك الآية من الإنجيل:

"إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله".

وقد كان لذلك الكلام تأثير فوري في ضيعةٍ يعادل فيها إسناد لقب لأحدهم معمودية ثانية... ولكنه ليس بذلك التأثير الذي توقعت. فلم يلصق بروكز لقب "الجمل"، فالأهالي كانوا يكنون الكثير من المودة لهذا الحيوان، والاحترام لوفائه، وصبره، وطبعه، وكذلك فائدته، بل كان القصر الذي حمل لقب "الإبرة" كما ذكرت آنفاً.

وكان ذلك الحجر الأول في جرف من النوادر المقذعة والشريرة في أغلب الأحيان.

وعلى سبيل المثال، تلك النادرة التي يحلو لجبرايل أن يرويها حتى اليوم: "قصد أحد الفلاحين روكز ورجاه أن يعيره ليوم واحد الرسم الذي يمثله. فشعر الوكيل السابق بالزهو لا سيما أن زائره شرح له بأنه سوف يغتني سريعاً بفضل هذا الرسم.

- وبأية وسيلة؟

- سوف أعلقه على الحائط، ثم يأتي الأهالي لرؤيته، وأحملهم على الدفع.

- تحملهم على الدفع؟

- ثلاثة غروش للشتيمة، وستة غروش للبصقة".

وفي نهاية المطاف، استجاب روكز، إذ ضاق ذرعاً بكل ما كان الناس يتفننون في تلفيقه حوله، بأسلوب مضحك للغاية أساء إليه بالتأكيد أكثر من كل انتقادات خصومه. فاقتنع أن هذه النوادر

لا تتولد عفوياً، وأن بعض المتآمرين يجتمعون في بيت كل مساء لاختراع النادرة التي تذيع على كل شفة ولسان في اليوم التالي، وأن من بين هؤلاء عميلاً إنكليزياً متخفياً. فطلب الخواجا إلى رجاله الانتشار في الضيعة بحثاً عن "مصنع النوادر" مهما كلف الثمن!

كنت لأقسم بأن الأمر لا يعدو كونه حكاية من الحكايات الكثيرة التي اختلقها خصومه، وليست أكثرها صحة بالتأكيد، لولا أن نادر - وهو لم يكن يضمر العداء لروكز - قد ذكرها كواقعة لا يرقى إليها الشك.

"بسبب تساهلهم، جعلوا من الشيخ طاغية مزاجياً، وبسبب خبثهم، جعلوا من خليفته مجنوناً.

"كان لا يطمع بشيء غير انتزاع إعجابهم واستدرار مغفرتهم، كان على استعداد لتوزيع ثروته كلها من أجل سماع شفاههم تتمتم عبارة امتنان.

"وانتهى به المطاف سكيراً يحوم في الليل بحثاً عن مصنع النوادر، وكانت قهقهاتهم تصدح داخل بيوتهم المظلمة.

"لقد رحلت عن الضيعة لئلا أضحك من ضحكاتهم، ولكني سأبكي يوماً على بكائهم".

والحق يقال إن موقف أهالي ضيعتي من حكامهم كان محيراً بعض الشيء على الدوام. فمع بعض هؤلاء الحكام، كانوا يتماهون، بعكس بعضهم الآخر. والحديث عن زعيم شرعي ومغتصب زعامة مجرد تعمية للحقيقة. فليست المدة هي التي تضمن بنظرهم الشرعية، كما أنهم لا يرفضون التجديد بحد ذاته. ففي ما يتعلق بالشيخ، كان يخالجهم الشعور بأنه ملك لهم، وأنه يتصرف حسب رغباتهم، ومخاوفهم، وسورات غضبهم، وإن أخضعهم لرغباته ومخاوفه وسورات غضبه. أما خصمه فكان يطيع

الباشوات والضباط والأمير... ولو وزع عليهم روكز ثروته بحالها، لكانوا أخذوها بأطراف أصابعهم، ثم وجهوا له بهذه الأصابع نفسها حركة مبتذلة.

وسوف يؤكد الوكيل السابق من جهة أخرى أسوأ شكوكهم. أفلم ينصبه أسياده ليمتثل لمشيئتهم أكثر من الشيخ؟ وبعد ثلاثة أسابيع فقط من الاستكانة، جاء موكلوه لمقابلته، وهم يحملون، إذا جاز التعبير، الكمبيالات التي يجب تسديدها.

لم يشأ الشيخ الإغارة على السهلين، ولكن روكز وعد القيام بذلك؛ وقد جاء عادل أفندي يطلب منه الوفاء بوعده. لم يكن سيد كفريبدا الجديد قد فقد الأمل بإغراء رعيته، وكان يدرك أنه سيفقد مصداقيته كلياً لو طلب منهم القتال ضد القرية المجاورة. ولهذا السبب، دار بينه وبين الضابط الحوار التالي بدون فظاظة:

توسل روكز: "لقد تسلمت زمام الحكم في هذه المقاطعة لتوي، فانتظر ريثما تترسخ سلطتي".

- نحن سلطتك!

- في قرى الجبل، متى بدأت تصفية الحسابات، تواصلت من جيل إلى جيل، ولا شيء يستطيع أن يضع لها حداً...

فقاطعه الضابط بهذه الكلمات كما قام بتدوينها اليراع الورع للراهب الياس:

- عندما أقصد صاحب ماخور، لا أتوقع أن أسمعه يحاضر في العفة!

ثم أضاف:

- غداً، عند الفجر، سوف أحضر مع رجالي. لن نتناول القهوة عندك. فستكون بانتظارنا في الخارج مع الفلاحين الذين قمت بتجنيدهم. سوف نحصي عددهم، ثم نقرر مصيرك.

وتفيدنا أخبار الجبل بما يلي:

"في فجر ذلك اليوم المشؤوم، وصل عادل أفندي إلى الضيعة مع أربعين جندياً من الخيالة، وثلاثة أضعافهم من المشاة. صعدوا إلى القصر الذي كان روكز ينتظرهم في باحته. كان يحيط به حراسه، وعددهم ثلاثون خيالاً مسلحون ببنادق جديدة.

"سأله الضابط: "هؤلاء أعرفهم، ولكن أين الآخرون؟".

"فأشار روكز إلى عشرة رجال (ويلي ذلك ذكر أسماء ستة منهم. . .) نجح في تجنيدهم لقاء مبلغ من المال.

"أعرب الضابط عن دهشته: "أهذا كل العديد الذي تستطيع أن تجنده هذة الضيعة المشهورة ببسالة رجالها؟"

"وأقسم أن يتخذ التدابير فور إجهازه على أهالي السهلين. ثم أمر جنوده بالتوغل عبر غابة الصنوبر، يتبعهم رجال روكز.

"ولدى وصولهم إلى تلك الضيعة، جردوا بسهولة حراس سعيد بك من سلاحهم، وقتلوا منهم ثمانية، ثم اقتحموا قصره، وأعملوا فيه نصالهم. تلقى سيد السهلين ضربة قاضية على رأسه، وقضى نحبه بعد ثلاثة أيام. وضرب ابنه البكر، قحطان، واعتبر ميتاً، ثم تعافى كما سنرى لاحقاً. وقد نهبت الضيعة، وقتل رجالها الذين صادفهم الجنود، وأهينت نساؤها. وأحصي ستة وعشرون قتيلاً، من بينهم البك، وكان رجلاً صالحاً، محبوباً من المسيحيين والدروز على حد سواء. فليتغمده الرب برحمته، ولتحل لعنته إلى الأبد على زارعي الفتنة".

وقيل إن روكز أسرَّ، في طريق العودة، إلى الضابط بمخاوفه مجدداً:

- ما أقدمنا عليه لتونا سوف يشعل الفتنة في الجبل لمائة عام.

وأن الضابط أجاب:

- إنكم نوعان من العقارب، ولو لدغتم بعضكم بعضاً حتى يفنى آخركم، فسيكون العالم على خير ما يرام.

ثم أضاف:

- لو لم يكن هذا الجبل اللعين يعترض سبيلنا، لكان الباشا اليوم سلطان اسطمبول.

- إن غداً لناظره قريب، إن شاء الله.

ولكن الله لم يشأ ذلك، أو لم تعد تلك مشيئته. كان الضابط يدرك ذلك، وقد أثارت مرارة لهجته مخاوف روكز إلى أقصى حد. كان والد أسما مستعداً لخدمة جيش الاحتلال، شريطة أن يكون ظافراً، ولو انسحب المصريون غداً من الجبل، فسوف يصبح عادل أفندي حاكماً على غزة، أو أسوان، أما هو روكز، فماذا سيكون مصيره؟ كان يدرك في ذلك اليوم أنه قد تمادى كثيراً، لا سيما بسبب هذه الغارة على السهلين، ولن تغفر له فعلته قط.

إلا أن الحرص كان يحتم عليه المحافظة على علاقات جيدة مع حماته.

- سوف أقيم حفلاً في القصر هذا المساء، يا عادل أفندي، للاحتفال بالنصر، ومكافأة كل رجالك الذين قاتلوا ببسالة وشجاعة. . .

- لكي يثمل رجالي ويذبحون!

- معاذ الله! ومن ذا الذي يجرؤ على التعرض لهم؟

- لو سكبت لرجالي قطرة عرق واحدة، سوف آمر بإعدامك شنقاً بتهمة الخيانة!

- كنت أظن أننا صديقان يا عادل أفندي!

- لم أعد أملك الوقت للأصدقاء. وأصلاً، ليس لدينا أصدقاء في هذا الجبل. لا البشر، ولا الدواب، ولا الشجر، ولا الصخور. كل ما فيه يضمر لنا العداء، ويتربص بنا. والآن، أصغ إلي جيداً، يا روكز! أنا ضابط، ولا أعرف سوى كلمتين: الطاعة أو الموت. فأياً منهما تختار؟

- أنا رهن إشارتك.

- هذا المساء، سيرتاح الرجال. تحت خيامهم، في خراج الضيعة. وغداً، سوف تجرد كل الأهالي من سلاحهم، البيت تلو الآخر.

- ولكن هؤلاء الناس لا يضمرون لكم شراً.

- إنهم عقارب، أقول لك، ولن يهنأ لي بال طالما لم أقتلع شوكتهم وأنزع سمَّهم. وسوف تصادر في كل بيت قطعة سلاح.

- وماذا عن البيوت التي لا سلاح فيها؟

- لقد قال الباشا إن كل بيت يضم سلاحاً نارياً في هذا الجبل، هل تعتقد أنه يكذب؟

- لا، بل صدق بالتأكيد.

في اليوم التالي، مع بزوغ الفجر، راح رجال روكز، يراقبهم عن كثب جنود عادل أفندي، يداهمون بيوت الضيعة. كان البيت الأول لروفايل، المزين، قرب البلاطة.

عندما قرع بابه، وطلب منه تسليم أسلحته، أعرب عن دهشة مشوبة بالمرح.

- لا أملك سلاحاً سوى شفراتي، وسوف أحضر لكم واحدة.

كان رجال روكز يريدون دخول البيت للتفتيش، ولكن سيدهم الذي كان واقفاً في الجوار مع الضابط المصري، نادى روفايل. وكان الأهالي يطلون من نوافذ بيوتهم، أو يقفون على السطوح، وكلهم آذان صاغية. قال روكز جهاراً:

- روفايل، أعلم أنك تملك بندقية، إذهب واحضرها، وإلا فسوف تندم.

أجاب المزين:

- أقسم لك بالتراب على تابوت أمي أنه لا يوجد سلاح في هذا البيت، ويمكن لرجالك أن يفتشوا.

- لو بدأوا بالتفتيش، لن يتركوا حجراً على حجر، لا في بيتك، ولا في دكانك، بل سينقبون تحت نبات حديقتك، وريش ديكك، وكذلك تحت ثوب زوجتك. هل فهمت أم تفضل أن تشاهد ذلك بأم العين؟

اعترى المزين الخوف:

- وهل تظن أنني أناور من أجل الاحتفاظ ببندقية؟ لا أعرف حتى كيف أستعملها! لا أملك سلاحاً، ولقد أقسمت بقبر أمي، فبماذا يجب أن أقسم لتصدقوني؟

- لقد قال سيدنا، والي مصر، أن في كل بيت من بيوت الجبل، قطعة سلاح. فهل تعتقد أنه يكذب؟

- معاذ الله! لو قال ذلك، فلقد صدق بالتأكيد.

- إصغ إلي إذن. سوف نواصل جولتنا، ونرجع إليك بعد ربع ساعة، الوقت الكافي لتعاود التفكير.

لم يكن الرجل يفهم ما يجري. فرفع روكز عقيرته بالكلام ليستفيد كل الجيران من النصيحة:

- إذا كنت لا تملك سلاحاً، فاشتر سلاحاً وسلمه لنا، وسوف ندعك وشأنك.

كان الناس يسخرون من حولهم، الرجال همساً، والنساء بصوت أكثر جرأة، ولكن روكز اكتفى بالابتسام، فقد " طق شلش حيائه" كما يقال في الضيعة.

اقترب أحد أعوانه من المزين، واقترح عليه أن يبيعه سلاحه بمائتي غرش.

فقال روفايل: "أعطني إياه بدون ذخيرة، فسوف تجنبني الرغبة بإطلاق النار على أحدهم!".

ودخل المزين إلى بيته، ثم رجع مع المبلغ المطلوب، ونقده دفعة واحدة. فسلمه البائع البندقية، ليتسنى له عد النقود، ثم هز رأسه، واسترد منه السلاح، معلناً:

- حسناً، لقد صادرنا سلاحاً من هذا البيت.

كان نزع السلاح من الضيعة مربحاً للغاية بحيث بادر الجنود إلى تكرار العملية في القرى المجاورة، خلال الأيام اللاحقة، وكذلك في ديرون، لدى التجار الأثرياء.

غير أن بعض الرجال رفض تسليم سلاحه وماله. ولقب هؤلاء " الفرارية "، أي " العصاة"، ويوم علموا أن المداهمات قد بدأت بجوار البلاطة، اختفوا مع بنادقهم وسيوفهم وزادهم في أعماق التلال والأحراج، ولم يخلفوا في البيوت سوى النساء والأطفال الذكور دون التاسعة والمعاقين، وأصبح هذا اليوم يعرف بيوم الفرارية.

كم كان عددهم؟ كانوا حوالي الستين من كفريبدا نفسها، والعدد نفسه من المزارع المجاورة. وسرعان ما التقوا بأولئك الذين فروا من ضيعة السهلين، وكان بعضهم قد لاذ بالفرار منذ وقت طويل، وفي الأيام التالية، توافد غيرهم من ديرون وتوابعها. واتفقوا على التعاون على أن يمتثل كل منهم لقادته.

وخلال تلك الفترة، حصلت ظاهرة شبيهة بما يحدث في معظم أنحاء الجبل. لم يرحل كل المتمردين في الظروف عينها، إنما لأسباب مشابهة: فقد كان وجود الجيوش المصرية يرهق كواهلهم، بسبب الضرائب، والتجنيد القسري، وتجريد الأهالي من السلاح.

وسرعان ما اتصل عملاء إنكليز وعثمانيون - وهذا أمر محقَّق - بالمتمردين، وأمدوهم بالسلاح والذخيرة والمال، وكذلك التشجيع على تنغيص عيش جيوش الباشا وحليفه الأمير. وقد

أكدوا لهم أن الدول العظمى لن تتركهم وحدهم طويلاً في مواجهة المصريين.

وبين الحين والآخر، كانت تسري الشائعات حول الوصول الوشيك لأسطول إنكليزي. فيصع فرارية الجبل، يحدوهم الأمل، أيديهم على جباههم متفرسين في البحر.

III

لم يتلق طانيوس، منذ أشهر عديدة، أي نبأ عن الضيعة، وسجانيها، وعصاتها. غير أن الاضطرابات في المشرق لن تلبث أن تصبح على كل شفة ولسان في لندن، وباريس، وفيينا، كما في القاهرة أو اسطمبول. وكذلك الأمر، بالطبع، في فاماغوستا، والخان، والأسواق، ومقهى اليوناني. كانت المعركة الحاسمة تبدو قد وقعت؛ وكما توقع اللورد بونسونبي، كانت رحاها تدور في الجبل، وكذلك في الساحل الذي يشرف عليه، بين جبيل وصور.

ولقد قررت الدول العظمى أخيراً إرسال سفنها الحربية وجيوشها لوضع حد لأطماع والي مصر الذي كان جنوده يتعرضون باستمرار لغارات تشنها عليهم المئات من عصابات الفرارية.

كان الشاب يعلم لأية جهة يميل قلبه. ففي بعض الأيام، كانت تساوره الرغبة بعبور ذلك الذراع البحري، والحصول عل سلاح للانضمام إلى صفوف العصاة. ضد المصريين؟ كان يريد أن يقاتل الأمير، ذلك الذي خدع عملاؤه جريس وساقوه إلى الإعدام. كان يتمنى أن يواجه ببندقيته فهيم وسلوم. أجل، كان يحلم بذلك، ويشد قبضتيه، وترتسم في ذهنه صورة جريس

مشنوقاً. فيتحول الحلم إلى كابوس حي، والغضب إلى غثيان. وبين الحين والآخر، كان يفقد الرغبة بالنضال، ويتوق للرحيل. إلى الجهة الأخرى، نحو الغرب. إلى جنوى، مرسيليا أو بريستول. ومنها إلى أميركا، ما وراء البحار.

هل كان طانيوس ممزقاً بين عالمين؟ بل بين انتقامين. الأول بدافع الدم، والثاني بدافع الإزدراء. وبسبب هذا التمزق، كان لا يبارح مكانه في فاماغوستا، بجوار ثمر، تمتزج أحلامهما ويتحد جسداهما، ثمر، رفيقته في التيه، أخته الغريبة.

وكان يترقب، في الوقت نفسه، عودة القس ستولتون. ولكنه لم يتلق منه رسالة قبل أوائل الصيف، بواسطة السيد هوفزيبيان، يؤكد له فيها أنه سوف يعرِّج بالتأكيد على قبرص لرؤيته. وقد وصل القس بعد ثلاثة أشهر إلى ليماسول، فسافر إليها طانيوس الذي أخطره الترجمان للقائه. وكان ذلك بتاريخ 15 تشرين الأول 1840؛ وبعد ثلاثة أسابيع، أصبح طانيوس الكشك أسطورة، وبطل ملحمة قصيرة، ولغزاً محيراً.

جرى اللقاء أولاً في ليماسول، في دار فسيحة على شاطىء البحر، يملكها تاجر بريطاني. كانت هذه الدار تبدو من الخارج واحة ساكنة. ولكنها كانت تعج في الداخل أكثر من خان، بالبحارة، والضباط المعتمرين قبعات مقرَّنة، والأسلحة، والجزم، والشراب. فخال طانيوس، إذ تذكر بعض المسرحيات الإنكليزية التي قرأها، أنه قد ضل السبيل في كواليس أحد المسارح، وسط التمارين.

اقتيد إلى مكتب، عابق بالدخان، إنما يلفه الهدوء. كان القس يجلس فيه برفقة ستة رجال حول مائدة بيضاوية الشكل. كانوا يرتدون جميعاً الزي الأوروبي، بالرغم من أن أحدهم كان شخصية عثمانية رفيعة المستوى. ولم يلبث طانيوس أن أدرك بأنهم سفراء منتدبون من الدول العظمى.

نهض ستولتون، وهرع نحوه، وعانقه عناقاً أبوياً. واكتفى السفراء بإيماءة من رؤوسهم إلى الوافد الجديد قبل استئناف أحاديثهم، بصوت أكثر انخفاضاً، وهم يسحبون بمزيد من العزم الدخان من غليونهم، باستثناء شخص واحد نهض، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ومدَّ يده.

انقضت دقائق معدودة قبل أن يتعرف إليه طانيوس. كان الرجل قد أرسل لحية سمراء كثة و مشعثة قليلاً، تتنافر مع مظهره الأنيق. ريتشارد وود. ذلك الذي أطلق عليه أهالي الضيعة لقب " قنصل" إنكلترة، ولم يكن قد شغل بعد هذا المنصب، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أكثر من قنصل بل صانع السياسةالإنكليزية، وعميلها المحنك،" بايرون " الجبل، والزعيم السري للعصاة، وممونهم بالذهب والسلاح والوعود.

لم يكن طانيوس قد التقى به منذ ذلك اليوم الذي زار فيه قصر كفريبدا محملاً بالهدايا، وأهداه دواة فضية، وقدم لرعد بندقية.

- لقد تقابلنا منذ أربعة أو خمسة أعوام...

أجاب طانيوس بكياسة: "بالتأكيد".

ولكن صوراً أليمة غشت نظرته.

-سوف تبقى زيارتي لضيعة صديقنا الشاب أعجب ذكرياتي عن إقامتي الأولى في الجبل.

توجه وود بهذا الكلام إلى زملائه، وباللغة الفرنسية، وكان أمراً اعتيادياً بدون شك بين سفراء، إنما لا يخلو من المفارقة لأن فرنسا وحدها كانت غير ممثلة بين الدول العظمى الأوروبية الأخرى.

تساءل طانيوس: ماذا يفعل القس ستولتون وسط هؤلاء القوم؟ ولماذا حرص على لقائه في حضورهم؟ توقع ربيب القس

أن ينتحي به رجل الدين جانباً، ويوضح له الأمر. ولكن وود كان الذي دعاه للتنزه برفقته في ممرات الحديقة.

كان المشهد ملائماً لحديثهما. فأشجار النخيل تمتد في صفين عسكريين حتى البحر؛ وبين خضرة العشب وزرقة البحر، لا توجد أية حدود ترابية.

- لا يخفى عليك أن سفناً بريطانية راسية أمام بيروت، وتحمل أمراً بقصف حصون المدينة كلما دعت الحاجة. وقد وصلت سفن أخرى إلى الساحل، قرب نهر الكلب، وعلى متنها وحدات بريطانية، ونمساوية، وعثمانية. كنا نتمنى أن يفهم والي مصر، محمد علي باشا، تحذيراتنا، ولكنه لم يأخذها على محمل الجد، أو لعله يظن بأنه قادر على مواجهتنا. وهو يخطىء في تقديراته لأن الفرنسيين لن يهبوا لنجدته.

كان وود يتكلم بالانكليزية، إنما يلفظ الأسماء المحلية بلهجة أهالي الجبل.

- لقد حرصت في البداية على الإشارة إلى العمليات العسكرية التي تجري حالياً. ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك. فالتحرك الذي تقوم به الدول العظمى يشمل جوانب كثيرة أخرى، قانونية ودبلوماسية، كان يجب التفاوض عليها بالتفصيل منذ أشهر عديدة. وأحدها يتعلق بك يا طانيوس.

لم يجرؤ الشاب على إصدار صوت يدلُّ على الموافقة، خوفاً من أن يكون كل ما يسمعه مجرد حلم سوف يصحو منه قبل أن يشهد نهايته.

- في مرحلة من المراحل، ولتنفيذ إحدى المهام التي خططنا لها، ويجدر بي القول إنها ليست أيسرها، اتفقنا على ضرورة انضمام أحد أبناء الجبل إلينا، للاضطلاع بدور محدد في مكان معين. أعذرني إن كنت مضطراً للكلام بهذا الأسلوب

الغامض، وأعدك بالإفصاح بعد إبحارنا. وما أود قوله تحديداً أن الخيار وقع عليك. فلقد صدف أنك تعلمت لغتنا، وصدف كذلك أننا نعرفك، أنا والقس، ونقدرك؛ وأخيراً شاءت الصدفة أن تكون موجوداً في قبرص،على الطريق الذي قررنا سلوكه. . .

" لن أخفي عليك أنني ترددت. ليس بسبب اغتيال البطريرك الذي يعلم الجميع أنك براء منه، بل بسبب المصير الذي تعرض له والدك. فمهمتك تتماشى مع رغبتك المشروعة في. . . لنقل في التعويض. إلا أنك يجب أن تتناسى نقمتك الشخصية لحين إنجاز هذه المهمة. هل تستطيع أن تقطع لي وعداً؟ وفي هذه الحالة، هل أنت مستعد لمرافقتنا؟

وافق طانيوس برأسه وعينيه. فأخذ محاوره هذه الموافقة في الحسبان، ومدَّ له يده مصافحاً، وباركا اتفاقهما بمصافحة رجولية.

- يجدر بي إطلاعك على التحفظات التي تساور القس. وعندما نعود إلى المكتب، سيريد أن يكلمك على انفراد، ويطلب منك أن تفكر ملياً قبل انخراطك. هل تعتقد أنه بوسعك التأكيد لي بعدم عدولك عن قرارك بعد أن تمعن التفكير بالأمر؟

وجد طانيوس هذه الصياغة مضحكة، فانفجر ضاحكاً، وحذا حذوه الشيطان الإيرلندي.

وأعلن الشاب أخيراً، محجماً عن الضحك والابتسام لإضفاء المهابة على قراره: "سوف أرحل معك".

- هذا من دواعي سروري. ولا أخفي عليك أنني لم أفاجأ على الإطلاق. فلقد خبرت الجبل وأبناءه.

" سوف تبحر السفينة الملكية كوريجيوس بعد ساعتين. قل لي إذا تركت أمتعة في فاماغوستا، أو فاتورة لم تسددها، وسوف يبعث صديقنا هوفزبيان أحدهم للاهتمام بها".

لم يكن لطانيوس أمتعة يستردها، أو مالاً يسدده. كان يضع

كل نقوده في حزامه على الدوام، وقد دفع إيجار غرفته لأسبوع سلفاً، ولم يكن لديه سوى ثمر. فقد وعد أن يرحل معها، وها هو يرحل فجأة، بدون وداعها. ولكن الترجمان كان لا يستطيع الاهتمام بهذه المسألة.

أقسم الشاب أن يعرج يوماً على خان فاماغوستا، ويصعد إلى الطابق الأخير، ويقرع الباب مرتين بقوة، ثم يعيد الكرة... فهل تكون موجودة وقتذاك وتفتح له الباب؟

في تلك الفترة، وربما في اليوم الذي انعقد فيه ذلك الاجتماع في ليماسول، أو عشيته، أتى الحريق على غابة الصنوبر الكبيرة، بالإضافة إلى ثلاثين بيتاً على تخوم ضيعتي وفي البلدات المجاورة. وقد ساد الاعتقاد للحظة أن القصر مهدد، وكان روكز يستعد لإخلائه حين هبت الريح الجنوبية - الشرقية على حين غرة، وحولت النار إلى الأراضي المحروقة أصلاً.

بقي شاهد على تلك الكارثة حتى اليوم، سفح جبل لم تنبت فيه خضرة ثانية، كما ظلت، في الكتب والذاكرة، أصداء جدل.

منذ القدم، يروى لي في الضيعة عن حريق كبير قد شب " في الماضي"، " منذ عهد سحيق " - وقد علمت بتأريخه وظروفه خلال محاولتي لإعادة تسلسل قصة طانيوس.

طوال شهر أيلول، كان بعض شبان كفريبدا الذين انخرطوا في المقاومة إبان حملة نزع السلاح يتسللون بجرأة إلى الضيعة. كان بعضهم يأتي لإحضار المؤن من الأقارب، بل تجاسر اثنان أو ثلاثة منهم على التبختر على البلاطة، وأمام الكنيسة.

كانت الجيوش المصرية في كل أنحاء الجبل تتوخى الحيطة بل تعاني أحياناً من التشتت؛ ولكن قائدها عادل أفندي نجح في إمساك زمام الأمور في كفريبدا وجوارها. ولذلك، قرر أن يصفي الحساب مع العصاة. فتوغل جنوده في الغابة. وأطلق عليهم

المقاومون بعض العيارات النارية، في أكثر المواقع كثافة، فهرعت الكتيبة في هذا الاتجاه.

كان العصاة عبارة عن حفنة تتألف من حوالي خمسة عشر رجلاً، ولكنهم كانوا يربضون في مواقع مختلفة، لكي يضرموا، بناء على إشارة اتفقوا عليها، عدداً من الحرائق ويسدوا كل المنافذ. وانتشر الحريق بلمح البصر في الأجمات الجافة، والتهم الأشجار. وبما أن حملة التفتيش كانت تجري في وضح النهار، استغرق الجنود بعض الوقت لاكتشاف ألسنة النار. ولما أدركوا أنهم استدرجوا إلى كمين، كان جدار من النار يحاصرهم.

كان الحريق يتوغل في أعماق الغابة، مضيقاً الخناق على الكتيبة، وكذلك خارجها، باتجاه الضيعة. وفي كفريبدا نفسها، تسنى للأهالي الوقت للفرار، ولكن ألسنة اللهب انقضت من كل حدب وصوب في بعض البلدات المجاورة والمزارع المعزولة. وأفادت أخبار الجبل للراهب إلياس عن وقوع خمسين ضحية بين الأهالي، وثلاثين في صفوف الجنود.

واستتبع ذلك لغط عظيم. فهل كان الإيقاع بجيش الاحتلال في الفخ يسوغ الاستهتار على هذا النحو بحياة الأهالي، وبيوتهم، بل وغابتهم الثمينة؟ هل كان الفرارية الشبان الخمسة عشر أبطالاً؟ أم مقاومين جريئين؟ أم مقاتلين متهورين؟ لا ريب أنهم كانوا يتحلون بكل هذه الصفات، مقاومين مجرمين، وأبطالاً غير مسؤولين عن أفعالهم...

وقيل إن الحريق ظل يزأر طوال أربعة أيام، وأن سحابة سوداء بقيت تشير إلى موقع المأساة بعد أسبوعين.

كان يتسنى رؤية الحريق من بعيد، ولا شك أن السفن الإنكليزية التي كانت تجوب البحر قرب الساحل قد لمحته، بل هذا أكثر من مرجح، لأن سفن جلالة الملك كانت تلمح بغاية

الوضوح من الضيعة، وقد سمع قصفها قبل بضعة أيام لحصون بيروت التي كان يدافع عنها باسم والي مصر، سليمان باشا الفرنسي، الملقب بدو سيف.

هل أمكن لطانيوس رؤية ذلك الحريق؟ لا أظن، فلا بد أن سفينة كوريجيوس اتجهت مباشرة إلى جنوب كفريبدا.

كان لا يوجد على متنها، بين الأشخاص الذين حضروا الاجتماع في ليماسول، سوى الموفدين الانكليزي - وود - والعثماني، مع حاشيتهما؛ فقد رحل السفراء الآخرون إلى وجهات أخرى. أما القس ستولتون، وبعد أن كان له حديث مطول مع ربيبه، فقد آثر الإبحار على متن سفينة بريطانية أخرى متجهة إلى بيروت، ليعود إلى السهلين مباشرة، فقد كان على عجلة من أمره للرجوع إلى مدرسته واستئناف الدروس بعد انقطاع عام كامل.

انتظر وود حتى أصبحوا في عرض البحر لإطلاع طانيوس على المهمة الموكلة إليه.

- يجب أن نذهب إلى قصر بيت الدين للقاء الأمير.

لم يستطع الشاب أن يمنع ساقيه من التداعي. ولكنه حافظ على رباطة جأشه، وظل صامتاً ومتيقظاً.

- لقد قررت الدول العظمى أن الأمير يجب أن يتنحى عن السلطة، إلا إذا قبل الانفصال عن المصريين والانضمام إلى الائتلاف. ولكن هذا الأمر غير مرجح، فلقد سبرناه سراً. وبالتالي، يجب أن نبلغه القرار بخلعه، وقرارنا بإرساله إلى المنفى.

- إلى أين؟

- ستكون له الكلمة بهذا الشأن. وسوف تترك له أنت الخيار. في بعض الحدود، طبعاً...

لم يكن طانيوس متأكداً من استيعابه لهذا الكلام. هل قال وود حقاً " أنت"؟

- لقد اتفق ممثلو الدول العظمى على أن هذا القرار يجب أن يبلغ إلى الأمير على لسان أحد رعاياه، والأفضل أن يكون مسيحياً مثله، لتجنب الحساسيات. وبقي اختيار هذا الشخص. . .

"هذا هو النص الذي يجب أن تترجمه، ثم تتلوه في حضرته".

سار طانيوس وحيداً على الجسر، بمواجهة الريح. ما هذه الحيلة الغريبة التي يرتبها له القدر؟ فهو الذي فر من بلده للإفلات من براثن الأمير المرهوب الجانب، هو الذي أعدم والده بأمر من الطاغية، ها هو في طريقه إلى بيت الدين لمقابلته، وإبلاغه برحيله إلى المنفى! هو، طانيوس، بسنواته التسع عشرة، يتحتم عليه أن يقف في حضرة الأمير، الأمير ذي اللحية البيضاء الطويلة والحاجبين الكثين، الأمير الذي ترتعد أمامه فرائص كل أهالي الجبل، فلاحين ومشايخ، منذ نصف قرن، وسوف يقول له:

"أنا مكلف بطردك من هذا القصر!".

"ترتعد فرائصي على متن هذه السفينة الانكليزية، فماذا أفعل في حضرته؟".

عندما رست السفينة في صيدا، كانت المدينة تشهد حالة من الضياع. فقد انسحب منها المصريون، ولم يدخلها بعد خصومهم. كانت أسواقها مغلقة، خوفاً من النهب، وسكانها قابعين في بيوتهم قلما يخرجون. وقد اعتبر وصول سفينة كوريجيوس حدثاً بارزاً. فخرج لاستقبال الوفد الرعايا الأجانب مع قناصلهم، والأعيان بعمائمهم، ومن تبقى من ممثلي السلطة وقسم لا بأس به من الأهالي. ولما شرح لهم الموفد العثماني أنه لم يأت لاحتلال المدينة، بل يكتفي بعبورها قبل مواصلة طريقه إلى بيت الدين، ظهرت الخيبة على وجوه محاوريه.

لاحظ الجميع حضور شاب أبيض الشعر، كان من الواضح أنه من أبناء البلد، لا سيما أنه كان يمشي وسط ممثلي الدول العظمى، مشرئب العنق، نداً لهم. فافترض الناس أنه زعيم العصاة، وتعزز الإعجاب به بسبب صغر سنه.

رست السفينة في صيدا بعد الظهر، وأمضى ركابها الليلة في مقر القنصل الإنكليزي الذي يقع على تلة مشرفة على المدينة وقلعتها البحرية. وبناء على طلب وود، أحضرت لطانيوس ثياب قشيبة، من تلك التي يرتديها عادة أعيان البلاد، وكانت تتألف من سروال، وقميص من الحرير الأخضر، وسترة حمراء مطرزة، ولبادة بلون التراب، مزينة بمنديل أسود يلتف حولها.

وفي اليوم التالي، انطلق الموكب عبر الطريق الساحلي حتى نهر الدامور، حيث استراح الركاب وغيروا المطايا، قبل سلوك دروب الجبل باتجاه بيت الدين.

IV

كان قصر الأمير يعكس التشتت - فقناطره أضحت مجرد عظام باردة، والبغال ترعى في أعلى أشجار حديقته. كان زواره قلائل، وأروقته صامتة. استقبل أعيان الديوان الأميري الوفد، بلهفة، كما يتقنون ذلك مع ممثلي الدول العظمى، إنما بمهابة وحزن.

شعر طانيوس أن لا أحد اكترث لحضوره. فلم يبادره أحدهم بالكلام، ولا رجاه ليتبعه. ولكن لا أحد كذلك، حين مضى برفقة ريتشارد وود، حاول أن يستوقفه. كان رفيقاه يتبادلان أحياناً نظرة وبعض الكلمات؛ ولكنهما لا يوجهان له الكلام أو يرمقانه بنظرة. كانا بدورهما يتجاهلان حضوره. لعله كان يجب أن يلبس زياً مختلفاً، زياً أوروبياً. فقد بات يشعر أنه متنكر في هذه الثياب الجبلية التي لطالما لبسها، وكان الكثيرون يلبسونها على الطريق. ألا يقتضي دوره بالضبط، في وفد الدول العظمى، التنكر بزي البلد، والتحدث بلهجته؟

كان الموفد العثماني يسير في المقدمة، ويحظى بإجلال لا يخلو من الرهبة؛ فقد أصبح السلاطين أسياد الجبل منذ أكثر من ثلاثة قرون، ولئن أبعدهم والي مصر ردحاً من الزمن، فقد كانوا

على وشك استعادة سلطتهم. ولا يمكن التشكيك بهذا الأمر لدى رؤية التبجيل الذي كان يقابل به ذلك الرجل.

غير أن الموفد الآخر كان لا يحظى بعناية أقل. فانكلترة كانت تحتل موقع الصدارة، بنظر الجميع، بين الدول العظمى، كما أن وود، علاوة على ذلك، يتمتع بشهرته الخاصة.

دعا أحد كبار أعيان القصر الذي كان يرافق، منذ وصول الوفد، الموفد العثماني هذا الأخير إلى مكتبه لاحتساء القهوة، ريثما يستعد الأمير لاستقبالهم. ودعا آخرٌ السيد وود كذلك إلى مكتبه. فتوارى الرجلان في اللحظة عينها تقريباً. توقف طانيوس، قلقاً، ومتجهماً، وحائراً، وإذ بموظف ثالث، أقل رتبة، ولكن الأمر سيان، يرجوه أن يتفضل بمرافقته. فسارع، مزهواً لأنه حظي بالاهتمام للمرة الأولى، للحاق بالرجل عبر أحد الأروقة، وألفى نفسه جالساً في مكتب ضيق، بمفرده، يحمل في يده فنجان قهوة ساخن.

راح يحتسي القهوة، مفترضاً أنها الإجراءات المعهودة في الزيارات الرسمية، مرتشفاً إياها بصخب على الطريقة الجبلية، حين فتح الباب، ودخل الشخص الذي كان يخشى أن يقابله أكثر من أي مخلوق آخر: سلوم.

انتصب طانيوس، وقد سفح نصف محتوى الفنجان الذي كان يحمله. كان يود الجري عبر الأروقة صارخاً: "يا سيد وود، يا سيد وود!"، كما لو كان يصحو من كابوس. ولكنه لم يحرك ساكناً، بدافع الهلع أو الكبرياء.

كانت ترتسم على وجه الآخر ابتسامة ماكرة.

- وأخيراً، قررت أن تفارق جزيرتك وتعود إلى بلدنا الحبيب.

اتكأ طانيوس على قدم، ثم على القدم الأخرى. هل يعقل أن يكون قد وقع بدوره في كمين؟

- والدك المسكين! كان يقف هنا بالضبط، في مكانك. وقد أمرت له بالقهوة كتلك التي تشربها.

تهالكت ساقا طانيوس. لا يعقل أن يكون في علم، وأن تكون هذه المسرحية - موفدو الدول العظمى، والسفينة الإنكليزية، ولجنة الاستقبال في صيدا - قد حيكت لمجرد الإيقاع به! كان يدرك سخافة الموقف، ولا ينفك يردد ذلك في سرِّه. ولكنه كان مذعوراً، وأسنانه تصطك، وبصيرته تتداعى.

قال له سلوم: "إجلس".

فجلس. بتثاقل. ونظر إلى الباب بعد جلوسه، فلمح جندياً يتولى الحراسة، ولا يعتزم أن يدعه يغيب عن ناظريه.

ما كاد طانيوس يجلس حتى خرج سلوم، بدون تبرير، من الباب الوحيد، ودخل جندي ثان، كان يلوح كتوأم زميله الواقف في الباب، بشاربيه وجسامته والخنجر الذي يضعه في حزامه، وقد أخرج نصله من غمده.

استقرت نظرة طانيوس عليه لبرهة وجيزة، ثم مرَّر الشاب يده داخل سترته لتناول النص الذي اجتهد في ترجمته على متن السفينة، وكان يتوجب عليه أن " يتلوه " بعد قليل. فتش في ثيابه، وتابع التفتيش، ثم نهض، وتلمس صدره وضلوعه، وظهره، وساقيه، حتى الكاحلين، ولكنه لم يعثر على الفرمان.

فانتابه الهلع. كأنما هذه الوثيقة تجعل مهمته حقيقية، وكأن اختفاءها يجعلها وهمية. فراح يشتم، ويدور حول نفسه، ويفك أزراره. كان الجنديان يرمقانه، وقد وضع كل منهما يده على حزامه العريض.

ثم فتح الباب، ورجع سلوم، حاملاً في يده ورقة صفراء ملفوفة ومعقودة.

- لقد عثرت عليها أرضاً في الرواق، وقعت منك سهواً.

مد طانيوس يده بحركة مباغتة. كانت حركة طفولية قوبلت بلفحة هواء، ونظرة مزدرية. كيف أوقع هذه الورقة؟! أو لعل بعض النشالين الماهرين يعملون لحساب سلوم؟

- كنت عند أميرنا، وأبلغته من تكون، وظروف تعارفنا. فأجاب: لقد عوقب اغتيال البطريرك كما كان يجب أن يعاقب، ونحن لا نضمر عداوة لأسرة القاتل. قل لهذا الشاب أنه يستطيع مغادرة القصر، حراً طليقاً كما دخله.

خال طانيوس، عن خطأ أو صواب، أن سلوم يعتزم اعتقاله، ولكن سيده ثناه عن عزمه.

- لقد لمح أميرنا هذا النص في يدي. وأفترض أنك توليت ترجمته، وأنك ستتلوه في حضرته.

أومأ طانيوس بالإيجاب. وقد سرَّ لأنه اعتبر ثانية عضواً في وفد، لا ابن قاتل.

ثم أعلن، معدلاً لبادته على رأسه، ومتجهاً نحو الباب: "ربما يجدر بنا الانضمام إلى هذا الاجتماع".

وقف له الجنديان بالمرصاد، وظل سلوم محتفظاً بالورقة.

- ثمة جملة أزعجت أميرنا، وقد وعدته بتعديلها.

- يجب التباحث مع السيد وود بهذا الشأن.

لم يصغ الآخر إلى هذا الاعتراض وتوجه إلى المكتب، وجلس على وسادة، وبسط الوثيقة.

- ألا ترى أن عبارة " يجب أن يرحل إلى المنفى " صيغة جافة؟

أصر الشاب: "لم أكتب هذا النص، بل ترجمته".

- لن يأخذ أميرنا في الحسبان سوى الكلمات التي سوف يسمعها من فمك. ولو عدلت نصك قليلاً، سيكون لك ممتناً، وإلا فلن أضمن لك العواقب.

تنحنح الجنديان معاً في هذه اللحظة بالذات.

- تعال واجلس إلى جانبي يا طانيوس، لتتمكن من الكتابة على راحتك.

استجاب الشاب، بل ترك الآخر يضع في يده ريشة.

- بعد عبارة " سوف يرحل إلى المنفى"، سوف تضيف " إلى البلد الذي يختار".

فاضطر طانيوس للإذعان.

وفيما كان يخط الكلمة الأخيرة، ربت سلوم على كتفه قائلاً:

- سوف ترى أن الإنكليزي لن يلاحظ ذلك على الإطلاق.

ثم أمر الجنديين باصطحابه إلى بهو انتظار الأمير حيث أعرب له وود عن تذمره:

- أين اختفيت يا طانيوس، لقد انتظرناك.

وأضاف بصوت خفيض:

- لقد خشيت أن يكونوا قد ألقوا بك في زنزانة!

- التقيت بأحد المعارف.

- تبدو لي مضطرباً. هل تسنى لك الوقت الكافي لمراجعة نصك؟

أخفى طانيوس الورقة تحت حزامه كخنجر الجنديين. كان أعلاها مستديراً كالمقبض، وقد طوقه بيده اليسرى، وأسفلها منسحقاً.

- سوف تحتاج إلى الشجاعة لتلاوتها في حضرة هذا العجوز الخبيث. لا تنس أبداً أنه مهزوم، وأنك تخاطبه باسم المنتصرين. ولو شعرت نحوه بإحساس ما، فليكن الإحساس بالشفقة، لا الحقد ولا الخشية. الشفقة فقط.

دخل طانيوس، وقد استعاد رباطة جأشه بفضل هذه الكلمات، بخطوة أكثر ثقة، إلى المجلس الذي كان عبارة عن

قاعة فسيحة كثيرة القناطر، جدرانها ملونة بألوان فاقعة، مزينة بشرائط عريضة أفقية زرقاء، وبيضاء، وترابية. كان الأمير متربعاً على منصة صغيرة، يدخن نارجيلة طويلة يرقد أتونها في طبق فضي. ألقى عليه وود التحية من بعيد، ثم طانيوس، فالموفد العثماني، ملامسين جباههم بيدهم قبل وضعها على صدرهم لجهة القلب، مع انحناءة خفيفة.

رد سيد الجبل التحية بمثلها. كان في الرابعة والسبعين من العمر، وفي السنة الحادية والخمسين من حكمه. ولكن لا شيء في ملامحه أو في كلامه ينم عن السأم. أشار إلى السفراء بالجلوس على مقعدين وطيئين وضعا أمامه لهذا الغرض. ثم، وبحركة غير عابئة، أومأ لطانيوس أن يجلس على البساط، عند قدميه، بينه وبين البريطاني. ولم يجد الشاب أمامه خياراً آخر سوى أن يركع؛ وأحس في نظرة الطاغية التي لم تزل حادة تحت الحاجبين الكثين، بعداء بارد نحوه؛ ولعله قد استاء منه لأنه ألقى عليه التحية من بعيد، وقوفاً، على غرار القناصل الأجانب، بدلاً من تقبيل يده كما يفعل أهل البلد.

التفت طانيوس نحو وود، قلقاً، ولكن هذا الأخير أومأ له بذقنه مطمئناً.

بعد سبحة من عبارات المجاملة، دخل البريطاني في صلب الموضوع، بالعربية أولاً، وباللهجة المحلية، ولكن الأمير أحنى رأسه، وأصاخ السمع، وزمَّ عينيه. فأدرك وود أن كلامه لم يكن واضحاً؛ وانتقل إلى الإنكليزية على الفور، بدون تمهيد غير نحنحة خفيفة. ففهم طانيوس أنه يتوجب عليه الترجمة.

- لقد تشاور ممثلو الدول العظمى مطولاً بشأن الجبل ومصيره. وهم يقدرون جميعاً النظام والرخاء اللذين أرساهما الحكم الرشيد لسموِّكم في هذه البلاد لسنوات عديدة. إلا أنهم

لم يخفوا خيبتهم من الدعم الذي قدمه السراي لحملة والي مصر. ولو اتخذتم موقفاً واضحاً لصالح الباب العالي، وإن فات الأوان، وبادرتم إلى تأييد قرارات الدول العظمى، فنحن على استعداد لتجديد ثقتنا بكم وترسيخ دعائم سلطتكم.

كان طانيوس يتوقع أن يرضى الأمير عن ذلك المخرج المشرع أمامه. إلا أنه لمح نظرته، بعد أن ترجم له الجملة الأخيرة، تطفح بيأس أعمق من ذلك الذي كان يلوح فيها في مستهل اللقاء، حين كان سيد الجبل يظن أنه قد سبق السيف العذل، ولم يعد أمامه خيار سوى تحديد منفاه.

فحدق بإلحاح إلى طانيوس الذي اضطر لغض الطرف.

- كم تبلغ من العمر يا بني؟

- تسعة عشر عاماً.

- إن ثلاثة من أحفادي في سنك تقريباً، وثلاثتهم محتجزون في معسكر الباشا، على غرار العديد من أهلي.

تكلم بصوت خفيض، كأنه يبوح له بسر. ولكنه أومأ إليه أن يترجم ما قال، فامتثل الشاب. أصغى وود وهو يومىء برأسه مراراً، فيما ظل الموفد العثماني لا يحرك ساكناً.

تابع الأمير، وقد رفع عقيرته بالكلام:

- لقد نعم الجبل بالأمن والازدهار حين كان السلام مستتباً حوله. ولكننا لا نملك القرار متى تناحر الكبار. فنسعى للتخفيف من أطماع هذا، و تجنب أذية ذاك. ومنذ نحو سبعة أعوام، تنتشر قوات الباشا في كل أنحاء البلاد، حول هذا السراي، بل وأحياناً داخل أسواره. وفي بعض الأوقات، كانت سلطتي لا تتجاوز هذا البساط الذي أضع عليه قدماي.

" لقد سعيت جاهداً طوال ذلك الوقت لصون داري، لكي

يتسنى لأشخاص أجلاء مثلكم، يوم تضع حرب الكبار أوزارها، إيجاد محاور لها في هذا الجبل... ولا يبدو أن هذا يكفيكم.

واغرورقت دمعة في العينين المرعبتين، لمحها طانيوس، فغشيت الدموع نظرته. ألم يسمح له وود أن يشعر بالشفقة؟ ولكنه ما تخيل قط أنه سوف يضطر للجوء إليها...

سحب الأمير للمرة الأولى نفساً من نارجيلته الطويلة، ثم نفث الدخان نحو السقف النائي.

- بوسعي الاعلان عن حيادي في هذا الصراع الذي يشارف على نهايته، ودعوة رعاياي لإطلاق يد الدول العظمى، والدعاء للعلي القدير من أجل منح سيدنا السلطان طول العمر.

أظهر وود اهتماماً بالتسوية التي صيغت على هذا النحو. فتشاور مع العثماني الذي أومأ رأسه رافضاً بجلاء، وأعلن بالعربية بنبرة قاسية:

- إن باشا مصر نفسه على استعداد للدعاء بطول العمر لسيدنا! لقد ولَّت ساعة المماطلة! وقد خاصمنا الأمير سبعة أعوام، وأبسط الإيمان أن يتخذ موقفاً واضحاً لصالحنا خلال سبعة أيام. أنطالبه بما يفوق طاقته لو استدعى رجاله من المعسكر المصري وأمرهم بالانضواء تحت رايتنا؟

- لو كان أحفادي يتمتعون بحرية الحركة، لكانوا اليوم هنا، معنا.

قام الأمير بحركة تنم عن العجز، فاعتبر وود أن البت بهذه المسألة قد انتهى.

- بما أن سموه لا يستطيع إرضاءنا بهذا الشأن، أخشى أن نكون مرغمين على إبلاغه قرار الدول العظمى. وقد قام صديقنا الشاب بترجمته، وهو مكلف بتلاوته.

رأى طانيوس أن الموقف يحتم عليه الوقوف، واتخاذ هيئة الخطيب ونبرته:

- " ممثلو الدول العظمى... المجتمعون في لندن ثم في اسطمبول... بعد دراسة... يجب أن يرحل إلى المنفى... ".

تردد طانيوس حين بلغ الصيغة المتنازع عليها، لبرهة وجيزة للغاية، ثم ذكر أخيراً التعديل الذي فرضه سلوم.

انتفض الموفد العثماني، لدى سماع عبارة " إلى البلد الذي يختار"، ورمق طانيوس، ثم وود، وكأنه يحتج على هذه الخدعة. ثم سأل، لدى انتهاء التلاوة، بنبرة آمرة:

- وإلى أية وجهة سوف يرحل الأمير؟

- أحتاج للتفكير واستشارة أقاربي.

- تطالب حكومتي أن يتحدد الأمر في الحال، بدون تأجيل.

سارع الأمير، إذ أحس باحتدام الوضع، إلى القول:

- أختار باريس.

- باريس، هذا محال! ولا ريب أن السيد وود لن يعارضني.

- لا بالفعل، فقد كان الإتفاق ألا يكون المنفى لا فرنسا ولا مصر.

فأعلن الأمير بنبرة أرادها حاسمة: "فلتكن روما إذن".

اعتذر وود: "أخشى أن يكون الأمر مستحيلاً. فالمنفى، كما تدركون، يجب أن يكون على أراضي الدول العظمى التي نمثلها".

- إذا كانت هذه هي مشيئتها، فسوف أوافق.

ثم فكر لبضع لحظات:

- سوف أرحل إذن إلى فيينا!

قال العثماني، وهو ينهض كأنه يهم بالانصراف:

- ولا فيينا كذلك. نحن المنتصرون، والقرار لنا. سوف تأتي إلى اسطمبول، وتعامل كما يليق بمقامك.

ثم خطا خطوتين نحو الباب.

كان الأمير يسعى التهرب من منفى اسطمبول بأي ثمن، ومناورة سلوم تهدف أساساً للحؤول دون وقوعه في براثن ألدِّ أعدائه. وفي فترة لاحقة، متى هدأت الأوضاع، سوف يذهب لتقبيل ثوب السلطان ويطلب العفو والمغفرة. أما لو رحل الآن، فسوف تصادر كل أملاكه، ثم يقتل خنقاً.

لمح طانيوس في نظرته الرهبة من الموت، فاختلطت الأمور في ذهن الشاب، أو لعلها اتخذت منحى غريباً.

كان يرى أمامه ذلك الشيخ الذي تملأ لحيته الطويلة البيضاء، وحاجباه وشفتاه، وبخاصة عيناه مجال بصره، ذلك الشيخ المرهوب الجانب، إنما المذعور في هذه اللحظة، والأعزل. وفي الوقت عينه، كان الشاب يفكر بجريس، وبتعبير وجهه أمام موته المحتوم. وفجأة، لم يعد طانيوس يعرف إن كان هذا الشيخ هو الرجل الذي أعطى الأمر بإعدام أبيه، أم إنه رفيق ذلك الأب في المحنة؛ الرجل الذي وضع الحبل في يد الجلاد، أم عنق آخر يمتد نحو حبل المشنقة.

في هذه اللحظة المشحونة بالحيرة، انحنى الأمير صوبه، وتمتم بصوت مخنوق:

- أنطق يا بني!

وتفيد أخبار الجبل أن " إبن كفريبدا نطق، لدى سماعه الشيخ الذليل، وتناسى رغبته بالإنتقام كأنه قد أشبعها ألف مرة، وأعلن جهاراً: "بوسع سموّه أن يرحل إلى مالطة!".

لماذا خطرت بباله مالطة؟ لا ريب لأن القس ستولتون الذي أقام في تلك الجزيرة ردحاً من الزمن، غالباً ما حدثه عنها.

فوافق وود في الحال على هذا الإقتراح، لاسيما أن مالطة كانت منذ مطلع القرن مستعمرة بريطانية، وكذلك فعل العثماني

الذي بوغت بحركة نزقة، فهذا الإقتراح لم يرق له إطلاقاً، ولكن إنكلترة كانت عماد ائتلاف الدول العظمى، ولم يجرؤ الرجل على المجازفة بنشوب خلاف قد يجر عليه لوم رؤسائه.

" ولم يعرب الأمير قط عن ارتياحه خوفاً من عدول مبعوث السلطان عن رأيه؛ ولكن النظرة التي رمق بها إبن كفريبدا كانت تطفح بالدهشة والامتنان".

العبور الأخير

مذنب بسبب الشفقة

أنت، طانيوس، بوجهك البريء، ورأسك الذي يعود لستة آلاف عام،
عبرت أنهراً من الدماء والوحول، وخرجت منها طاهراً.
غمست جسدك في جسد امرأة، وتفارقتما بتولين.
اليوم، اختتم مصيرك، وصار بوسع حياتك أن تبدأ.
فانزل من صخرتك، وغص في البحر، لتحمل بشرتك على الأقل مذاق الملح!

نادر
حكمة البغّال

I

" فضَّل الأمير المنفى على خيانة حاميه المصري في اللحظة الأخيرة. فأبحر هذا الأسبوع إلى مالطة، برفقة زوجته، حسن جهان، وهي سبية شركسية اشتراها، كما قيل لي، في القسطنطينية، ولكنها تحولت إلى سيدة جليلة القدر؛ وكانت حاشية الطاغية المخلوع تضم كذلك زهاء مائة فرد من أفراد أسرته، أبنائه، وأحفاده، ومستشاريه، وحرسه، وخدمه...

بفضل التباس غريب، أو لنقل بفضل غلو متبجح لا يأنف منه المشرقيون، نسب إلى طانيوس أنبل دور على الإطلاق، ألا وهو طرد الأمير من البلاد مع الحفاظ على حياته ببادرة كريمة، كما لو أن الدول الأوروبية العظمى، والامبراطورية العثمانية، مع كل جيوشها، وأساطيلها، وقناصلها، وجواسيسها، كانت مجرد مجموعة من الممثلين الثانويين المتواضعين في مبارزة مسرحية بين ابن كفريبدا الضال والطاغية الذي أعدم أباه.

ولكثرة ما سرت هذه الرواية الأسطورية في كل الأوساط، مسيحية كانت أم درزية، ارتدت شهرة تلميذي عليَّ، أنا مرشده. وراح الأهالي يتوافدون يومياً لتهنئتي على هذه الزهرة النادرة التي جعلتها تتفتح في حديقتي. وكنت أتلقى هذه التهاني بدون السعي

لتكذيب هذا التأويل للأحداث، ولا أخفي أن السيدة ستولتون وأنا كنا نشعر بالزهو بفضلها. . . ".

هذا ما ورد في يوميات القس بتاريخ 2 تشرين الأول 1840:

" (. . .) وفيما كان الأمير يبحر من صيدا على متن السفينة نفسها التي أقلت السيد وود وطانيوس، رجع هذا الأخير براً إلى كفريبدا، وفي كل ضيعة كان يعبرها، استقبل بهتاف الجموع المتحمسة التي احتشدت لرؤية البطل، ورش ماء الورد والرز عليه كعريس شاب، وتلمَّس يديه وكذلك، متى تسنى للناس الاقتراب منه، شعره الأبيض، كما لو أن هذا الشعر أكثر العلامات جلاءً على الأعجوبة التي تحققت بفضله.

كان الشاب مستسلماً لهذه الحفاوة، صامتاً حائراً، ينوء بوضوح تحت وطأة هذه النعم الكثيرة التي تغدقها عليه العناية الإلهية، مبتسماً بغبطة النائم الذي لا يعلم اللحظة التي سيأتي فيها من يجعله يصحو على حقيقة العالم. . .

بعد كل هذا المجد المباغت، هل ثمة مكان لدى هذا الكائن الهش لحياة عادية كان يبدو مقدراً لها بحكم ولادته؟ ".

ولما وصل إلى ساحة ضيعته، ودائماً وسط الهتافات، كالبطل، حمل على الأكتاف حتى القصر، وأجلس في المكان الذي كان يجلس فيه الشيخ في السابق، وكان قد احتله مغتصب السلطة في الآونة الأخيرة. كان طانيوس يرغب بالبقاء على انفراد مع أمه، والإطلاع من فمها على المعاناة التي عاشتها. وعوضاً عن ذلك، فرض عليه أن يستمع إلى آلاف الشكاوى والعرائض. ثم ألفى نفسه في منصب القاضي الأعظم لتقرير مصير الخونة. لم يكن الأهالي على علم بمكان الشيخ. وقد نقل عن بعضهم أنه سجين في قلعة بوادي التيم، على سفح جبل حرمون، فيما أفاد

بعضهم الآخر عن وفاته في الأسر. ومن أجدر في غيابه أن يشغل مكانه غير البطل الحالي؟

تأثر ابن لميا لهذا التكريم بالرغم من حالته التي كانت تشارف على الإعياء. فإذا كانت العناية الإلهية تثأر له من ماضيه، لماذا يرفض؟ وألفى نفسه، في مكان الشيخ، يحاكيه، ويحاكي حركاته الموزونة والمتسلطة، وكلامه القاطع، ونظراته الثاقبة. كان قد راح يقول في سرِّه إنه لم يولد في قصر بمحض الصدفة، ويتساءل إن كان يستطيع يوماً مبارحة هذا الكرسي للإنضمام إلى الجموع.... وإذ بهذه الجموع تنشق فجأة، ويرمى عند قدمي البطل، رجل مقيد بالسلاسل، وجهه متورم ومثلوم، وقد عصبت عيناه. كان روكز. فقد حاول الفرار بعد رحيل المصريين، ولكن الفرارية قبضوا عليه. كان يجب أن يدفع ثمن كل المحن التي عانت منها الضيعة، وكل القتلى، بمن فيهم ضحايا الحريق، والنهب الذي تعرضت له أثناء حملة نزع السلاح، والإهانات التي لحقت بالشيخ، وآلاف الإنتهاكات السافرة الأخرى التي لا تحتاج إلى محاكمة على الإطلاق. وما على طانيوس سوى أن ينطق الحكم الذي سوف ينفذ في الحال.

راح روكز يئن بصخب، فصرخ البطل متذمراً:

- إلزم الهدوء، وإلا قتلتك بيدي الإثنتين!

فصمت الآخر في الحال. وقوبل طانيوس بالهتاف. إلا أنه كان يشعر بألم، كأنه خارج من أسفل الصدر، بدلاً من الشعور بالرضا. ولئن كان حانقاً للغاية، فلأنه كان لا يشعر بنفسه قادراً على التلفظ بالحكم، ولأن روكز، بأنينه، كان يضعه بمواجهة التحدي.

كان الأهالي ينتظرون، ويتهامسون: "أصمتوا! سوف يتكلم طانيوس! فلنستمع إليه!".

كان يتساءل في سره عما سيقول حين عكَّرت صفو الجموع موجة جديدة من الضوضاء واللغط. فقد دخلت أسما، وهرعت تجثو عند قدمي المنتصر، وأمسكت يده وراحت تقبلها، متوسلة:

- إرحمنا يا طانيوس!

كان الشاب يتعذب لكل كلمة، وكل نظرة، وكل نفس يسمعها ويراها.

تمتم بونا بطرس الذي كان يجلس قربه، كأنه يكلم نفسه:

- يا رب، أبعد عني هذه الكأس!

التفت طانيوس صوبه قائلاً:

- كانت معاناتي أقل حين كنت أصوم بهدف الإنتحار!

- الرب ليس بعيداً يا ولدي. لا تدع هؤلاء القوم يسيرونك وراء أحقادهم، لا تفعل إلا ما لن تحمر له خجلاً أمام نفسك وأمام ربك!

فتنحنح طانيوس وأعلن:

- لقد رجعت من وراء البحار لأطلب من الأمير الرحيل عن هذا الجبل الذي لم يعرف أن يحميه من النوائب. ولن أعاقب التابع أقسى من السيد.

خال لبضع لحظات أن كلامه قد أحدث وقعاً على الحاضرين. كان المجلس صامتاً، وابنة روكز تقبل بحرارة يده التي سحبها بنزق. لقد تكلم كالملك - أو خال أنه قد فعل على الأقل. انقضت لحظة وجيزة، قبل أن يتصاعد الاحتجاج، وقد جاء أولاً من الفرارية الشبان الذين عادوا من معاقلهم، مسلحين، وكانوا لا يعتزمون الاستسلام للشفقة.

- لو سمحنا لروكز بالرحيل مع ذهبه، والاغتناء في مصر، ثم العودة بعد عشر سنوات للانتقام، نكون جبناء ومعتوهين. لقد مات أصلاً عدد من رجاله، فلماذا نصفح عن أشرهم؟ لقد قتل،

ويجب أن يكفر عن ذنبه. وليكن بعلم الجميع أن كل الذين يسيئون لهذه الضيعة سوف يدفعون الثمن.

صرخ مؤاكر عجوز:

- أنتم، أيها الفرارية، لقد أسأتم إلى كفريبدا أكثر من هذا الرجل. أحرقتم ثلث بيوتها، وأوقعتم عشرات الضحايا، وقمتم بتدمير غابة الصنوبر. لماذا لا تخضعون بدوركم للمحاكمة؟

تعاظم الهرج والمرج. وبدأ طانيوس يهلع، ولكنه أدرك على الفور الفائدة التي قد يجنيها.

- أصغوا إلي! لقد اقترفت في الآونة الأخيرة جرائم، وارتكبت أخطاء فادحة، ووقع ضحايا أبرياء. ولو راح كل امرء يعاقب الذين أساؤوا إليه، وتسببوا بمقتل قريب، فلن تلتئم جراح الضيعة. ولو ترك لي القرار، فأنا آمر بما يلي: تصادر كل أملاك روكز ويعوض بها للذين عانوا من انتهاكاته، ثم ينفى عن هذه البلاد.

أما الحين، فأنا أشعر بالإعياء، وسوف أخلد للراحة. ولو شاء أحدكم أن يشغل مكان الشيخ، فلن أقف له بالمرصاد.

في هذه اللحظة، علا صوت رجل لم يلمحه أي من الحضور. كان قد غطى رأسه بكوفية، ولكنه أماط لثامه:

- أنا قحطان، إبن سعيد بك. انتظرت ريثما تنتهي من التداول للتدخل. لقد قررت أن تنفي روكز عقاباً له على الجرائم التي ارتكبها بحقكم. وهذا حقكم. وقد أتى دوري لأحاكمه. لقد قتل والدي الذي كان رجلاً صالحاً، وأطالب بتسليمه لي ليكفر عن جريمته.

لم يشأ طانيوس أن يتزعزع:

- لقد عوقب هذا المجرم، وحسمت المسألة.

- لا يمكنك أن تتصرف بضحايانا كما تتصرف بضحاياكم.

لقد قتل هذا الرجل والدي، وأنا الذي يقرر إن كنت أريد منحه الرأفة أو العقاب.

التفت " القاضي " إلى الخوري الذي كان يشعر مثله بالإحراج.

- ليس بوسعك أن ترفض طلبه، كما لا يمكنك أن تسلمه هذا الرجل. حاول أن تكسب بعض الوقت.

وفيما كانا يتداولان، شق ابن سعيد بك طريقه للانضمام إلى خلوتهما.

- لو ترافقني إلى السهلين، تتفهم السبب الذي دعاني للكلام كما فعلت. إنه لمن المحال أن يبقى قاتل أبي بدون عقاب. فلو غفرت له شخصياً، لن يغفر له إخوتي وأولاد عمومتي، وسوف يحقدون علي لتسامحي. يا بونا بطرس، لقد عرفت والدي جيداً، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، كنت أعرفه وأجله. كان أكثر الناس حكمة وعدلاً!

- أحاول أن أسير على خطاه، ولا أضمر في قلبي الحقد والفتنة. وفي هذا الشأن، عندي لكم نصيحة واحدة. يفترض بي أن أطلب منك تسليمي هذا الرجل، إنما لو قتل هذا المسيحي على يد الدروز، فسوف يخلف ذلك عواقب لا أرغب بها. إنس ما أعلنته جهاراً، وأصغ إلى كلام العقل: أحكموا عليه بأنفسكم، ولتعاقب كل طائفة قتلتها، فليصفي الدروز حسابهم مع المجرمين الدروز، والمسيحيون مع المجرمين المسيحيين. أعدموا هذا الرجل، وسوف أمضي، وأبلغ أهلي أن سيف عدالتكم قد سبق سيف عدالتنا. أقتلوه اليوم لأني لن أتمكن من السيطرة على رجالي حتى نهار الغد.

فقال الخوري:

- قحطان بك على حق. إنني أتحفظ عن إسداء هذه النصيحة، ولكن أكثر الحكام ورعاً يصدرون أحياناً أحكاماً بالإعدام. ففي عالمنا غير المثالي، يكون هذا العقاب المكروه أحياناً العقاب العادل والحكيم الوحيد.

رمق بونا بطرس أسما التي ظلت راكعة، زائغة، ومحبطة؛ فأومأ إلى الخورية التي جذبتها بحزم من ذراعها لإبعادها لعل النطق بالحكم المحتوم يهون.

II

كانت محاكمة روكز تجري في القصر بهذا الأسلوب الغريب، والقاعة تغص بالقضاة والجلادين، وفي مكان القاضي الوحيد، يجلس شاهد محبط لا يعرف أن يكون عديم الشفقة إلا مع نفسه. كان يجلد نفسه، في ذهنه، أثناء ذلك: "لماذا رجعت إلى هذا البلد إن كنت عاجزاً عن معاقبة الأمير الذي أمر بإعدام والدك شنقاً، عاجزاً عن الاقتصاص من الخسيس الذي خانك وخان الضيعة؟ لماذا قبلت الجلوس في هذا المكان إن كنت لا تقدر أن تهوي بسيفك على عنق مجرم؟".

وترك الندم يجتاحه، وما عاد يقوى على التنفس، وسط هذه الجموع الغفيرة، والهمسات، والنظرات، وخطر له أن يلوذ بالفرار فحسب. يا إلهي، كم كانت فاماغوستا ساكنة، في ذاكرته! وما أحلى ارتقاء سلم الخان!

- أنطق يا طانيوس، الناس يتململون، وقحطان بك عيل صبره.

وفجأة، غرق همس بونا بطرس وسط صراخ رجل قدم مهرولاً:

- الشيخ حي يرزق! وهو في طريقه إلى هنا! وسوف يمضي الليلة في ترشيش ويصل غداً!

هتفت الجموع إعراباً عن فرحتها، واستعاد طانيوس ابتسامته. كان سعيداً، في الظاهر، بعودة السيد؛ وسعيداً، في قرارة نفسه، لأن السماء قد أنقذته من هذا المأزق بهذه السرعة. فترك بعض لحظات الابتهاج تنقضي، ثم طلب من الأهالي الصمت، فمنحوه إياه كما لو أنه مشيئته الأخيرة.

- إنها لفرحة لنا جميعاً أن يعود سيد هذا القصر إلينا، بعد أن ذاق الأمرين. وعندما يستعيد هذا المكان الذي يعود له، سوف أعلمه بالحكم الذي نطقت به في غيابه. ولو وافق عليه، فسوف يجرد روكز من أملاكه، ويرحل عن هذه البلاد إلى غير رجعة. ولو رأى خلاف ذلك، فله الكلمة الأخيرة.

وأشار طانيوس بالبنان إلى أربعة شبان كانوا جالسين في الصف الأول، من رفاقه في مدرسة الرعية.

- أنتم مكلفون بحراسة روكز حتى نهار الغد. اصطحبوه إلى الاسطبلات القديمة!

ثم لاذ بالفرار بعد أن أعلن بمهابة مشيئته الأخيرة. وعبثاً حاول الخوري وقحطان بك استبقاءه، فقد أفلت منهما وكاد ينصرف جرياً.

في الخارج، كانت ساعة المغرب قد أقبلت، وطانيوس يرغب بالخروج، والمضي عبر الدروب كما في الماضي، بعيداً عن البيوت، وعن اللغط، وحيداً. غير أن الأهالي كانوا حاضرين أينما ذهب، في ذلك المساء، على مشارف القصر، وفي الساحات، والأزقة، والكل يود أن يتحدث إليه، ويلمسه، ويعانقه. فقد كان بطل الاحتفال، ولكنه لم يكن في قرارة نفسه سوى الخروف المسمّن.

تسلل عبر الأروقة المظلمة إلى الجناح الذي كان يقطن فيه في الماضي مع ذويه. كانت كل الأبواب مشرعة، ومن خلال

النافذة المطلة على الوادي، ينسل بصيص ضوء متوهج الحمرة. كانت الحجرة الكبيرة شبه مقفرة؛ وعلى الأرض، بعض الوسائد المغبرة، وصندوق لصر الثياب، ومنقل تآكله الصدأ. لم يلمس شيئاً، بل انحنى فوق المنقل. فمن كل الذكريات التي كانت تتدافع بين هذه الجدران، أليمة كانت أم مفرحة، كان يستحضر أسخفها وأقدمها: ففي أحد الأيام التي كان فيها وحيداً، خلال فصل الشتاء، انتزع من لحاف خيطاً صوفياً سميكاً، وغمسه في كوب من الحليب، ثم أمسك به فوق الجمر، قبل أن يرميه عليه، ثم يراقبه ينكمش، ويسود، ويتوهج، ويسمعه يحترق، ويشتم رائحة الحليب والصوف المحروقين، ممزوجة برائحة الجمر. كان يتنشق تلك الرائحة دون غيرها منذ عودته.

ظل بعض الوقت في هذه الوضعية، وكأنه معلق فوق المنقل، قبل النهوض والانتقال، بعينيه شبه المغلقتين، إلى الحجرة الأخرى، تلك التي كان جريس ولميا يفترشان فيها الأرض، في حين يرقد هو أعلى منهما بقليل، في عليته. كانت هذه العلية مجرد كوة مقنطرة، ولكنها تختزن في الشتاء كل دفء البيت، وفي الصيف كل طراوته. وفيها أمضى ليالي الطفولة، وأضرب عن الطعام، وفيها أيضاً ترقب نتيجة وساطة البطريرك...

ومنذ ذلك الحين، غالباً ما عاود التفكير بهذا السلم، وبالدرجات الخمس التي تولى جريس مهمة نجارتها، وكانت لم تزل منتصبة على الجدار. فوطئها بقدمه، بحذر، للتأكد من أنها تحمل وزنه فلم تتحطم.

عثر في الأعلى على فراشه الرقيق، ملفوفاً في لحاف قديم ممزق. بسطه، وتلمس ببطء سطحه، ثم تمدد فوقه متثائباً، ومتصالحاً مع طفولته، ومصلياً أن تنساه الدنيا.

انقضت ساعة في صمت دامس. ثم فتح باب، وأغلق. وفتح

باب آخر. أصاخ طانيوس السمع مطمئناً. فقد كان شخص واحد على علم بمخبئه، ويستطيع أن يوافيه هكذا في العتمة. لميا. وكانت كذلك الشخص الوحيد الذي يرغب بالتحدث إليه.

اقتربت على رؤوس أصابعها، وارتقت نصف السلم، وداعبت جبينه. ثم نزلت، وبحثت في الصندوق القديم عن لحاف، وعادت به لتغطي بطنه وساقيه كما في طفولته. ثم افترشت الأرض، على مقعد وطيء، وقد استندت إلى الحائط. كان أحدهما لا يرى الآخر، ولكنهما يتبادلان الكلام دونما حاجة لرفع صوتهما. كما في الماضي.

كان يهم بطرح جملة من الأسئلة عليها، عن معاناتها، والطريقة التي تبلغت بها الأنباء السارة والمحزنة...

ولكنها كانت تريد أولاً أن تنقل له شائعات الضيعة:

- الناس لا يكفون عن الكلام يا طانيوس، وفي أذني، يطن مائة "زيز".

لئن لجأ الشاب إلى هذا الملاذ، فلأنه بالضبط لا يرغب بسماعها، إنما لم يكن بوسعه ألا يعير أذناً صاغية لمخاوف أمه.

- وماذا تقول هذه الزيزان؟

- يقول الناس إنك لما تسامحت مع روكز لو قاسيت انتهاكاته مثلهم.

- قولي لهؤلاء الناس إنهم لا يعرفون معنى المعاناة. كما لو أنني أنا طانيوس، لم أتعذب بسبب خيانة روكز، وخساسته، ووعوده الكاذبة، وطموحه الجامح. أم لعل روكز ليس السبب في تحول والدي إلى قاتل، ووالدتي إلى أرملة...

- إنتظر، إهدأ، لقد أسأت نقل كلامهم. فكل ما يقصدون أنك لو كنت في الضيعة حين كان روكز وعصابته يعيثون فساداً، لما شعرت نحو هذا الرجل بغير الإزدراء.

- ولو كنت لا أشعر نحوه إلا بالإزدراء، كنت أديت دور القاضي بصورة أفضل، أليس كذلك؟

- ويقولون أيضاً إنك لم تأمر بقتله بسبب ابنته.

- أسما؟ لقد جاءت وركعت عند قدمي، وبالكاد رمقتها بنظرة! صدقيني، يا أمي، لو كنت استحضرت لحظة النطق بالحكم كل الحب الذي كنت أشعر به نحو هذه الفتاة، لقتلت روكز بيدي الإثنتين!

غيرت لميا نبرتها فجأة، كما لو أنها أدت مهمة الرسول، وعاودت الكلام بلسان حالها.

- لقد قلتَ لي ما أردتُ سماعه. لا أريد أن تلطخ يديك بالدماء. فجريمة والدك المسكين تكفينا. وإذا كنت قد عفوت عن روكز لأجل أسما، فلا أحد يستطيع أن يلومك.

نهض طانيوس متكئاً على مرفقيه:

- لم أفعل ذلك لأجلها، قلت لك...

ولكن والدته قاطعته:

- لقد جاءت لزيارتي.

لم يضف شيئاً. وتابعت لميا، بنبرة، كانت تحاول، في كل جملة تقولها، أن تجعلها محايدة:

- لم تخرج من القصر إلا مرتين، لزيارتي. أخبرتني أن والدها سعى ثانية لتدبير زواجها، ولكنها لم ترغب بذلك على الإطلاق... ثم حدثتني عنك وعنها، وبكت. كانت تريد أن أعود للعيش في القصر، كما في السابق، ولكني فضلت البقاء عند شقيقتي.

كانت لميا تتوقع أن يستزيد إبنها منها، ولكن مخدعه لم يحمل لها سوى تنفس طفل محزون. فأردفت خوفاً عليه من الإحراج:

- عندما كنت جالساً في القاعة، مكان الشيخ، كنت أراقبك من بعيد، وأقول في سرِّي: ليته لا ينطق بحكم إعدام؛ فروكز مجرد سافل حديث النعمة، ولكن ابنته روح طاهرة.

صمتت، وانتظرت. لم يكن طانيوس في حالة تسمح له بالكلام. فأضافت، وكأنها تخاطب نفسها:

- ولكن الناس قلقون.

فاستعاد صوته الذي كان لا يزال خشناً:

- وممَّ قلقهم؟

- يتهامسون أن روكز سوف يرشو بالتأكيد الشبان الذين يتولون حراسته، ليسمحوا له بالهروب، فمن يستطيع حينذاك السيطرة على أهالي السهلين؟

- أمي، رأسي ثقيل كرحى المعصرة، دعيني الآن. وسوف نواصل الحديث غداً.

- أرقد، لن أتكلم.

- لا، إذهبي للنوم عند الخورية، فلا بد أنها تنتظر رجوعك. أريد أن أبقى وحدي.

فنهضت، وسمع وسط الصمت كل خطوة من خطواتها، وصرير الباب. كان يرجو أن تحمل له والدته العزاء، ولكنها زادت همه هماً.

أولاً، بشأن أسما. فخلال السنتين اللتين قضاهما في المنفى، لم يفكر بها إلا لينحي عليها باللائمة. وما عاد يرى فيها إلا نسخة نسائية عن أبيها، روحاً دنيئة مثله، تحت قناع ملائكي. لقد صرخت في غرفتها في ذلك اليوم، وانقض أتباع روكز عليه لإشباعه ضرباً وطرده. وبسبب ذلك المشهد المحفور في الذاكرة، لعن أسما، وطردها من أفكاره. ولما ركعت عند قدميه تطلب منه الرأفة بأبيها، تجاهلها، مع العلم أنها جاءت لتعزية لميا أثناء غيابه، وعاودت الحديث عنه...

هل ظلم تلك الفتاة؟ استحضر مشاهد لطالما أهملها في غياهب الذاكرة؛ ذلك اليوم الذي قبلها فيه للمرة الأولى، في المضافة قيد الإنشاء؛ وتلك اللحظات من السعادة العارمة التي كانت أصابعهما الخجولة تتلامس. وما عاد يعرف إن كان قد أخطأ في غرامه أم في حقده.

غفا بسبب اضطراب ذهنه، واستيقظ بسبب هذا الاضطراب. كأنما انقضت بضع ثوان، أو بضع ساعات.

نهض، متكئاً على مرفقيه، ودار حول نفسه، وألفى قدميه معلقتين في الفراغ، وقد تأهب للقفز. ولكنه ظل في هذه الوضعية، مقوساً، متوثباً. لعله سمع أصواتاً. ولعله كان يفكر بمخاوف الأهالي. إلا أنه وثب، بعد لحظات من الحيرة، وهرول خارجاً، ثم اجتاز باحة القصر، وسلك الدرب المؤدي يساراً إلى الإسطبلات القديمة. كانت الساعة الخامسة مساء ربما، والمرء لا يرى على الأرض سوى الحجارة البيضاء والظلال، كما حين يكتمل البدر.

وسط التباس الضياء، بدأ اليوم الأخير في حياة طانيوس الكشك - أو أقله حياته المعروفة. إلا أنني أجد نفسي مضطراً لمقاطعة هرولته واستعادة وقائع ليلته الأخيرة. وقد حاولت إعادة تسلسلها قدر المستطاع. ولكن ثمة رواية أخرى لتلك الليلة، ولا دليل في المصادر المكتوبة يدعمها، كما لو أن هذه الرواية - وهذا أخطر ما في الأمر وفق معاييري - تفتقر إلى الصحة.

ولئن ذكرتها على الرغم من ذلك، فلأن جبرايل العجوز سوف يستاء مني لو أغفلتها؛ وما زلت أذكر مدى انزعاجه بسبب شكوكي. " تقول إنها مجرد أسطورة؟ ولا تريد سوى الوقائع؟ صدقني، الوقائع عرضة للفناء، ووحدها الأسطورة تبقى، كالروح بعد فناء الجسد، أو كالعطر بجوار امرأة". فاضطررت أن أعده بذكر روايته.

ماذا تقول هذه الرواية؟ تقول إن البطل، بعد هروبه من وسط الجموع، وذهابه للاستلقاء على فراش طفولته، غفا ثم استيقظ مرة واحدة بسبب ملاطفة لميا. ودار بينهما الحوار الذي ذكرت، ثم رجاها أن تنصرف لينعم بقسط من الراحة.

ثم استيقظ ثانية بسبب ملاطفات أخرى.

فقال: " أمي، خلت أنك انصرفت".

ولكن لميا لم تكن تداعبه هذه المرة. فقد اعتادت أن تضع راحتها على جبينه، ثم تخللها في شعره، كما لو أنها تسرحه. كانت الحركة نفسها، لم تتغير لا في عامه الثاني ولا في عامه العشرين. أما المداعبة الجديدة فكانت مختلفة. كانت تنساب من الجبين إلى أطراف العينين، واستدارة الوجه، والذقن.

وعندما لفظ الشاب: "أسما"، ضغط إصبعان على شفتيه، وقالت له الفتاة:

- لا تتكلم، وأغلق عينيك.

ثم استلقت بجانبه، ووضعت رأسها على كتفه.

طوقها بذراعيه. كانت عارية الكتفين. والتصق أحدهما بالآخر بعنف، بصمت، وراحا يذرفان دموع شقائهما، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

ثم نهضت، ولم يحاول استبقاءها. واكتفت بالقول، وهي تنزل السلم:

- لا تدع أبي يموت.

كاد أن يجيب، ولكن أصابع أسما أغلقت مرة أخرى شفتيه، بحركة واثقة. أصغى في العتمة إلى حفيف ثوبها، وتنشق للمرة الأخيرة عطر الزنبق البري الذي يتضوع منها.

جفف عينيه بكمِّه، ثم نهض. وثب،و مضى يجري باتجاه الاسطبلات القديمة.

هل كان يريد التحقق من عدم هروب روكز بعد رشوة حراسه؟ أم كان يريد، على العكس، إطلاق سراحه قبل وصول الشيخ؟ لن تكتسب المسألة أهمية بعد لحظات.

كانت الاسطبلات القديمة بعيدة عن القصر. ولذلك، أصبحت مهجورة بلا شك حتى قبل عهد الشيخ، وشيدت اسطبلات أخرى، أقرب منها. ومنذ ذلك الحين، تحولت في أغلب الأحيان إلى زريبة، وكذلك إلى حبس مؤقت للمجانين، والمعتوهين أثناء نوباتهم، أو المجرمين المشهورين بخطورتهم.

كانت معدات الحبس بسيطة ومتينة: سلاسل ضخمة مثبتة على جدار سميك، وباب ثقيل نصف دائري، وشبكتان حديديتان محفورتان في الحجر.

خال طانيوس، لدى اقترابه، أنه لمح أحد الحراس جالساً، متكئاً على الجدار، وقد تدلى رأسه على كتفه، وحارساً آخر ممدداً أرضاً. تباطأت خطاه، وقال في سره إنه سيباغتهما في نومهما. ولكنه عدل عن ذلك، وراح يخبط على الأرض، ويتنحنح، لئلا يضطر لتقريعهما. فلم يحركا ساكناً، فلمح حينذاك الباب مفتوحاً على مصراعيه.

كان الحارسان جثتين هامدتين، وكذلك الحارسين الآخرين على مسافة أبعد. تلمس بيديه، لدى انحنائه على كل منهم، جراحهم، وأعناقهم المنحورة.

فزأر: "عليك اللعنة يا روكز!"، مقتنعاً أن أعوانه قدموا لإطلاق سراحه. غير أنه رأى، لدى دخوله إلى الاسطبلات، جثة ممدة تحت القنطرة، ومغلولة القدمين. تعرف طانيوس إلى والد أسما من ثيابه وجسامته. فقد حمل الغزاة رأسه بمثابة غنيمة حرب.

ويفيد القس ستولتون أن الرأس استعرض في ذلك اليوم عبر شوارع السهلين، على حربة. وكان وصفه شديد اللهجة:

" للحصول على رأس مجرم، قتل أربعة أبرياء. قال لي قحطان بك إنه لم يشأ حدوث ذلك، ولكنه لم يسع للحؤول دون حدوثه. وغداً، سوف يأتي أهالي كفريبدا، بدافع الثأر، لذبح أبرياء آخرين. ثم يتذرع هؤلاء وأولئك، في السنوات اللاحقة، بحجج مفحمة لتبرير انتقاماتهم المتتالية.

" لم يقل الرب للإنسان: "لن تقتل بدون مبرر بل قال فقط: لن تقتل".

ويضيف القس، بعد فقرتين:

" لقد جاءت طوائف مضطهدة، منذ قرون، والتصقت بسفح جبل واحد. وإذا ما راحت تتناحر في هذا الملاذ، فالخنوع السائد حولها سوف يصعد إليها ويغمرها، كما يغمر البحر الصخور.

من يتحمل وزر ما حدث؟ إنه بكل تأكيد باشا مصر الذي قلب أهل الجبل ضد بعضهم البعض، ونحن كذلك، بريطانيين وفرنسيين، لأننا أتينا لمواصلة حروب نابوليون، وكذلك العثمانيين بسبب تهاونهم وتقلب أهوائهم. ولأنني أحببت هذا الجبل كما لو كان مسقط رأسي، فإني أرى أن ذنب أبناء هذا البلد، مسيحيين أو دروزاً، لا يغتفر... "

كان طانيوس " إبن هذا البلد " يحمل نفسه وزر ما حصل، كأنه قد اطلع على ما كتبه أستاذه السابق. ألم يُحذِّر من المأساة التي ستقع لا محالة لو رفض إعدام روكز؟ لقد حذره الجميع بمن فيهم الخوري، ولكنه أبى الإصغاء. كان هو الذي حكم بالموت على هؤلاء الشبان الأربعة، بحركة أراد أن تكون حركة سلطة. والمذابح القادمة، سيكون هو الذي تسبب بها، بسبب عجزه عن إنزال العقاب. كان مذنب الحيرة، ومذنب التعاطف بسبب بقية عاطفة، ورواسب عشق. مذنب الشفقة.

ولشدة اقتناعه بذنبه، لم يجرؤ على العودة إلى الضيعة فوراً للإفادة عما حصل. ومضى يسير في غابة الصنوبر المحروقة حديثاً. كان بعض الأشجار قد تفحم في مكانه، فتفاجأ بنفسه يداعبها، وكأنها وحدها تستطيع أن تتفهم حالته النفسية. كان يبحث عبثاً، وقدماه في العشب الأسود، عن الدرب الذي كان يسلكه للذهاب إلى مدرسة السهلين، وعيناه تحترقان بسبب الأبخرة الخانقة.

وشيئاً فشيئاً، انقشعت السماء. كانت الشمس في كفريبدا تطل قبل شروقها، لأن إحدى قمم الجبل تنتصب على مقربة، لجهة الشرق، فيستغرق الكوكب وقتاً طويلاً لتسلقها. أما ساعة المغيب، فكان العكس يحصل، تظلم الدنيا، وتشعل القناديل في البيوت، فيما يلمح المرء، من النوافذ، عند خط الأفق، قرصاً يتوهج ثم يزرق إلى أن يضيء فقط جوف البحر الذي يغوص في قراره.

في ذلك الصباح، جرت أمور كثيرة قبل شروق الشمس. كان طانيوس ما زال يحوم في الغابة المحروقة حين قرع جرس الكنيسة. مرة أولى أعقبتها لحظة صمت. ثم مرة ثانية، فصمتٌ. اضطرب طانيوس، " لقد اكتشفوا الجثث".

إلا أن الجرس استرسل، وما ظنه ناقوس حداد إنما كان النغمات الأولى لجرس فرح. فقد وصل الشيخ. كان يسير على البلاطة، والناس يهرعون، ويهتفون، ويحيطون به، بل كان بوسع طانيوس من الموقع الذي يقف فيه أن يتعرف إليه وسط الجموع.

غير أنه لم يسمع الهمس الذي كان يسري:

- إنه لا يبصر! لقد أطفأوا له عينيه!

III

لاحظ الشيخ دهشة الأهالي، وعجب لها. كان يظن أن الأمر قد ذاع؛ فقد كويت عيناه بالحديد المحمى منذ أسبوعه الأول في الأسر.

راح الناس يجهدون كي لا يكبحوا بهجتهم، ولكنهم، لم يتمكنوا، وهم يتدافعون حول السيد " لرؤية يده"، من الاحجام عن التفرس في ملامحه كما لم يتجاسروا قط حين كان مبصراً.

تبدلت ملامحه. فشاربه الأبيض تجعد، وتشعث شعره، وتغيرت مشيته بالطبع، وكذلك حركات يديه، ووقفته التي غدت أكثر تصلباً، بل ونبرة صوته، المترددة بعض الشيء، كما لو كانت تحتاج بدورها لتلمس الطريق. كانت سترته الخضراء وحدها في مكانها المعهود، فسجانوه لم ينزعوها.

اقتربت منه امرأة متشحة بالسواد، وأمسكت يده، كما كان يفعل كل الآخرين.

- أنت لميا.

طوق رأسها بيديه، وطبع قبلة على جبينها.

- لا تبتعدي، تعالي وسيري إلى يساري، سوف تكونين عيني. لم يسبق أن كانت لدي عينان بهذا الجمال.

وضحك. كان الجميع من حوله يمسحون دموعهم، ولميا أكثر منهم جميعاً.

- أين طانيوس؟ أتلهف للتحدث إليه!

- حين يسمع أن شيخنا قد عاد، سوف يأتي مهرولاً.

- هذا الصبي مدعاة فخر لنا جميعاً، وزينة الضيعة.

بدأت لميا تدعو له بطول العمر والصحة، وإذ بعويل يتصاعد، متبوعاً بأزيز البنادق التي كانت ينطلق منها الرصاص في الهواء. ثم حدث هرج ومرج، وراح الناس يركضون في كل الاتجاهات.

سأل الشيخ: "ما الخطب؟"

أجاب عدد من الأصوات اللاهثة في آن.

- لا أفهم شيئاً، فليتكلم أحدكم فقط، وليصمت الآخرون.

قال أحدهم: "سأتكلم".

- من تكون؟

- أنا طوبيا، يا شيخنا!

- حسناً. تكلم يا طوبيا، ماذا يجري؟

- لقد أغار علينا أهالي السهلين الليلة الماضية، وقتلوا روكز والشبان الأربعة الذين كانوا مكلفين بحراسته، ويجب أن يتسلح كل الأهالي ويجعلوهم يدفعون ثمن فعلتهم!

- طوبيا، لم أطلب منك أن تعلمني ما يجب أن أفعل، بل أن تقول لي ما جرى فحسب! ولكن، كيف تعرف أنهم أهالي السهلين؟

أشار الخوري إلى طوبيا أن يدع له الكلام، ثم انحنى على أذن الشيخ، وأخبره باختصار ما قيل البارحة في القصر، والقرار الذي اتخذه طانيوس، وتدخل قحطان بك... وتحاشى بونا بطرس انتقاد إبن لميا، ولكن الناس من حوله كانوا يحتدمون:

- ما كاد طانيوس يشغل مكان شيخنا سوى يوماً واحداً، حتى اشتعلت الضيعة وأهرقت الدماء.

تجهمت سحنة الشيخ:

- فليصمت الجميع، لقد سمعتكم بما فيه الكفاية. فلنصعد جميعاً إلى القصر، لأنني بحاجة للجلوس. وسوف نواصل الحديث هناك.

صمت جرس الكنيسة في اللحظة التي كان الشيخ يطأ عتبة قصره مجدداً؛ فقد جاء من يعلم قارعه أن زمن الأفراح قد ولى إلى غير رجعة.

ومع ذلك، فقد التفت سيد القصر، لدى جلوسه في مكانه المعهود في قاعة الأعمدة، نحو الجدار قائلاً:

- هل ما زال رسمُ اللص خلفي؟

رد عليه الحاضرون: لا، لقد أنزلناه وأحرقناه!

- هذا مؤسف، لكان ساعدنا على ملء خزينتنا.

ظل وجهه متجهماً، ولكن الابتسامات عمَّت المجلس، بل وسمعت بعض الضحكات المقتضبة. لقد كان الشيخ على علم بالنوادر التي اختلقها الأهالي ضد مغتصب السلطة. وألفى السيد ورعاياه أنفسهم متواطئين من خلال الذكرى، وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة المحنة.

- إن ما جرى بين كفريبدا والسهلين يحزنني أكثر من فقدان بصري. فلم أنتهك قط في حياتي حسن الجوار والأخوة! ويجب أن نتفادى الحرب بالرغم من الدماء البريئة التي سفكت.

فسمع بعض الهمس:

- من لا يروق له كلامي، فليخرج من داري في الحال لئلا أضطر لطرده!

لم يحرك أحدهم ساكناً.

- أو فليصمت! ولو شاء أحدكم المضي إلى القتال رغماً عن إرادتي، فليعلم أنني سآمر بشنقه قبل أن يتسنى للدروز ذبحه.

فخيم صمت مطبق على الحضور.

- هل طانيوس هنا؟

كان الشاب قد وصل بعد الشيخ، ورفض دعوة الحاضرين للجلوس، مكتفياً بالاستناد إلى أحد أعمدة القاعة. ولدى سماع إسمه يلفظ، انتفض، واقترب، وانحنى على اليد التي مدَّها السيد.

نهضت لميا لتتنازل عن مكانها لابنها، ولكن الشيخ استبقاها:

- أحتاج إليك، لا تبتعدي. وطانيوس مرتاح حيث هو.

فعاودت لميا الجلوس، وقد شعرت ببعض الإحراج؛ ولكن الشاب استند ثانية إلى عموده بدون أن يبدو عليه الامتعاض.

وتابع السيد قائلاً: "البارحة، وبينما كنتم لا تعلمون باحتمال رجوعي إليكم، اجتمعتم في هذا المكان، برئاسة هذا الشاب لمحاكمة روكز. ولقد نطق طانيوس بحكم تبين للأسف أنه مشؤوم، لا بل مأساوي. لقد قال بعضكم أنه افتقر إلى الحكمة والحزم، وأنا أوافقهم الرأي. وهمس لي بعضكم الآخر أن طانيوس قد افتقر إلى الشجاعة. ولهؤلاء، أقول: إعلموا أن الوقوف في حضرة الأمير وإبلاغه قرار خلعه ونفيه يتطلبان شجاعة تفوق بأضعاف تلك التي يتطلبها ذبح رجل مقيد بالسلاسل.

لفظ هذه الكلمات الأخيرة بنبرة جهورية ومستهجنة. فانتصبت لميا على كرسيها، وغض طانيوس الطرف.

- مع الحنكة والتقدم في السن، سوف ترتقي حكمة هذا الشاب إلى مصاف بسالته ونباهته، فيكون بوسعه الجلوس في هذا المكان بجدارة، فنيتي ومشيئتي أن يكون خلفاً لي يوم أفارق الحياة. لقد تضرعت إلى السماء ألا تدعني أموت قبل أن أشهد

سقوط الطاغية الذي قتل ابني ظلماً. ولقد استجاب العلي القدير لدعائي، واختار طانيوس أداةً لغضبه وعدله. لقد أصبح هذا الشاب إبني ووحيدي، وأعلنه وريثاً لي. ولقد حرصت على إعلان الأمر على رؤوس الأشهاد لئلا يجرؤ أحدهم على الاعتراض".

التفتت الأنظار نحو صاحب الحظوة الذي ظل ساهماً. هل كان ذلك أسلوبه في تلقي التكريم، علامة على الحياء، باختصار، والكياسة المفرطة؟ تجمع كل المصادر أن سلوك طانيوس، في ذلك الصباح، قد أثار حيرة الحضور. كان لا يبالي باللوم، ولا بالثناء، ويلتزم الصمت على نحو يبعث اليأس. ويبدو لي التبرير بسيطاً. فمن بين كل الحاضرين، لم يكن أحد، وحتى لميا، على علم ببيت القصيد: أن طانيوس قد اكتشف جثث الشبان الأربعة، وأن مشهد أجسادهم المضرَّجة كان لا يفارق ناظريه، وأن الإحساس بالذنب يضنيه، وأنه بات عاجزاً عن التفكير بأمر آخر، ولاسيما بوصية الشيخ ومستقبله الشخصي الواعد.

وعندما أعلن سيد القصر، بعد برهة وجيزة: "أما الآن، فدعوني أرتاح قليلاً، وعودوا عصراً لمواصلة حديثنا حول موقفنا من جيراننا في السهلين".

راح الناس ينصرفون، وظل طانيوس مستنداً إلى عموده، مطرقاً، فيما كان الناس يمرون أمامه، شاخصين إليه كالتمثال.

وأخيراً، اختفت جلبة الخطى. فسأل الشيخ لميا التي كانت تتأبط ذراعه:

- هل انصرف الجميع؟

ردت بالإيجاب، بالرغم من بقاء ابنها في مكانه، إبنها الذي كانت ترمقه بقلق متعاظم.

ثم تقدم الإثنان، بخطى المعاق الوئيدة، باتجاه جناح الشيخ. فرفع طانيوس رأسه، ولمحهما يبتعدان، وقد تأبط الواحد ذراع الآخر، كأنهما متعانقان، فأيقن فجأة أنه يتأمل أبويه.

انتفض لهذه الخاطرة، وخرج من ذهوله. فاحتدت نظرته. ماذا كانت تحتوي تلك النظرة؟ الحنان؟ العتاب؟ الإحساس بالعثور أخيراً على مفتاح السر الذي أرخى بظلاله القاتمة على حياته؟

في هذه اللحظة بالذات، التفتت لميا. وتلاقت عيونهما. فأفلتت ذراع الشيخ، كما بدافع الخجل، وعادت أعقابها إلى طانيوس، ووضعت يدها على كتفه:

- كنت أفكر بابنة روكز. فلا أحد بالتأكيد في الضيعة سوف يذهب لتعزيتها، لا يجدر بك أن تدعها وحيدة في مثل هذا اليوم.

أومأ الشاب برأسه موافقاً، ولكنه لم يتحرك على الفور. فمضت أمه لموافاة الشيخ الذي كان ينتظرها في المكان نفسه، وأمسكت ذراعه ثانية، إنما مع الاحتفاظ ببعض المسافة. ثم توارى الإثنان في آخر الرواق.

أعود إلى يوميات القس ستولتون:

" قيل لي إن طانيوس لمح، في طريقه لزيارة ابنة روكز من أجل تعزيتها، تجمهراً على مقربة من البلاطة. كان بعض شبان الضيعة ينكلون بنادر، البائع الجوال، ويتهمونه بالتهجم على الشيخ والتحالف مع روكز والمصريين. كان الرجل يتخبط بين أيديهم مقسماً أنه رجع لتهنئة الشيخ بعودته. كانت الدماء تسيل من وجهه، وبضاعته مبعثرة على الأرض. فتدخل طانيوس، مستغلاً الهيبة التي كان ما زال يحتفظ بها، ورافق الرجل ودابته إلى خراج الضيعة. كانت مسيرة لا تتجاوز ثلاثة أميال ذهاباً وإياباً، ولكن تلميذي رجع بعد أربع ساعات. لم يتحدث إلى أحد، وصعد للجلوس على صخرة. ثم اختفى، بأعجوبة (He vanished، كما يذكر النص الإنكليزي).

وفي الليل، جاءت والدته وزوجة الخوري لسؤالي إن كنت قد

التقيت بطانيوس أو أعلم أخباره. لم تأتيا برفقة رجل، بسبب التوتر الشديد الذي كان سائداً بين كفريبدا والسهلين".

أما أخبار الجبل فتفيدنا بما يلي:

" رافق طانيوس نادر إلى خراج الضيعة، وتأكد من وصوله بسلامة، ثم رجع وتسلق على الفور الصخرة التي تحمل إسمه اليوم ثم جلس عليها. ظل مستنداً إليها طويلاً بدون حراك. وكان الأهالي يقتربون أحياناً لتأمله، ثم يمضون في حال سبيلهم.

وعندما أفاق الشيخ من قيلولته، طلب استدعاءه. فجاء بعض الأهالي إلى أسفل الصخرة حيث أبلغهم طانيوس أنه سيوافيهم بعد قليل. ومضت ساعة ولم يرجع إلى القصر. فأبدى الشيخ امتعاضه، وأرسل غيرهم لإحضاره. ولكنه كان قد فارق صخرته، ولم يلمحه كائن كان ينزل وينصرف.

فراح الأهالي يبحثون عنه، وينادونه، وانهمكت الضيعة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، بل خطر للجميع أسوأ الاحتمالات، وذهبوا لتفحص أسفل التلة، في حال كان قد هوى بسبب إصابته بالدوار، ولكنهم لم يجدوا له أثراً".

لم يرجع نادر إلى الضيعة بعد ذلك اليوم. وسوف يعدل عن التجوال في الجبل مع بضاعته، مفضلاً إنشاء تجارة أكثر استقراراً في بيروت. وقد عاش فيها عشرين عاماً من البحبوحة والثرثرة. وكلما قصده أهالي كفريبدا بين الحين والآخر، وسألوه عن ابن لميا، كان يكتفي بتكرار ما يعرفه الجميع أصلاً - أنهما افترقا عند مخرج الضيعة، وأنه مضى في حال سبيله، فيما عاد طانيوس أدراجه.

أما سرُّه فقد أودعه في كراس سوف يعثر عليه ذات يوم، في عشرينيات هذا القرن، أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت، بمحض الصدفة، في فوضى إحدى العليات. ولم يتداول هذا

الكراس، بعد شرحه ونشره، في ترجمة إنكليزية تحمل عنوان (Wisdom on muleback) أي "الحكمة على ظهر بغل"، وقد نقلته بتصرف إلى الفرنسية، فأصبح " حكمة البغال ")، إلا في دائرة ضيقة كان لا أحد فيها قادراً على التكهن بصلته باختفاء طانيوس.

ولو شئنا الاطلاع عن كثب على الأقوال ذات النفحة الشاعرية، لوجدنا فيها، بدهياً، أصداء الحديث المطوَّل الذي دار في ذلك اليوم بين نادر وطانيوس في خراج الضيعة، وكذلك بعض المفاتيح لفهم ما قد جرى لاحقاً.

ثمة أقوال كذلك القول: "اليوم اختتم مصيرك، وبدأت حياتك أخيراً!"، التي ذكرتها في بداية الفصل؛ أو كذلك: "لقد تعبت صخرتك من حملك يا طانيوس، وسئم البحر نظراتك العقيمة "؛ وبخاصة تلك الفقرة التي أطلعني عليها في إحدى الأمسيات جبرايل العجوز - أمده الله بطول العمر وصفاء الذهن حتى بعد عامه المائة -، مشيراً إلى كل كلمة بسبابته المتجعدة:

أمام الآخرين، أنت الغائب، ولكني الصديق الذي يعلم.

غافلتهم ومضيت تعدو على درب الأب القاتل، نحو الشاطىء.

إنها بانتظارك، فتاة الكنز، في جزيرتك؛ وشعرها ما زال بلون شمس الغرب.

لدى قراءة هذا الكلام الواضح الجلي للمرة الأولى، خلت أنني رأيت أمام ناظري خاتمة القصة. ولعلها الخاتمة بالفعل، أو ليست كذلك. ولعل هذه السطور تعكس ما كان البغال " يعرفه"، وبالعودة إليها، لعلها لا تتضمن سوى ما كان يرجو أن يعرفه يوماً حول مصير صديقه الذي اختفى.

في مطلق الأحوال، تبقى جوانب مظلمة قام الزمن بتكثيف

ظلمتها. وأولها الجانب الآتي: لماذا عاد طانيوس للجلوس على تلك الصخرة، بعد خروجه من الضيعة برفقة البغال؟

قد يخال للمرء أن الشاب كان متردداً، إثر حديثه مع نادر الذي ربما شجعه مرة أخرى على الرحيل عن الجبل، بل بوسع المرء أن يستعرض دوافعه للرحيل، وتلك التي كان يفترض بها على العكس أن تستبقيه.... إنما ما الجدوى من كل ذلك؟ فقرار الرحيل لا يتخذ على هذا النحو. والمرء لا يزن الأمور بالميزان، ولا يستعرض المساوىء والفوائد، بل تنقلب حياته بين عشية وضحاها، نحو حياة أخرى، ونحو موت آخر. المجد أو النسيان. فمن ذا الذي يستطيع تحديد النظرة، أو الكلمة، أو السخرية، التي يكتشف المرء على إثرها أنه غريب وسط أهله؟ فتتولد في أعماقه تلك الرغبة الملحة بالرحيل، أو التلاشي.

على خطى طانيوس الخفية، كم من رجل رحل عن الضيعة منذ ذلك الحين، لتلك الأسباب؟ بل للدافع نفسه، والحافز عينه. فجبلي على هذا النحو. التصاق بالأرض وتوق إلى الرحيل. ملاذ ومعبر. أرض اللبن والعسل والدم. لا جنة ولا جحيم بل مطهر.

عند هذا الحد من تلمساتي، تناسيت قليلاً اضطراب طانيوس، أمام اضطرابي. ألم أسع وراء الحقيقة أبعد من الأسطورة؟ ولما ظننت أنني بلغت لبها، ألفيته من نسج أسطورة.

ولقد بلغ بي المطاف أن تساءلت عن احتمال وجود نوع من السحر المرتبط بصخرة طانيوس. فحين عاد للجلوس عليها، لم يشأ التفكير، أو استعراض الوضع بمساوئه ومنافعه. فقد كان يشعر بالحاجة لأمر مغاير تماماً. التأمل؟ التملي؟ بل أكثر من ذلك، كان بحاجة إلى انعتاق الروح، ويعلم غريزياً أن مصيره سوف يتقرر بجلوسه على ذلك العرش الحجري، مستسلماً لسحر ذلك الموقع.

أدرك اليوم السبب الذي منعت لأجله من تسلق تلك الصخرة. ولأنني أدركت، واقتنعت، رغماً عن عقلي - بأن التطيرات والمخاوف لم تكن مجرد خزعبلات، تعاظمت رغبتي باقتراف المحظور.

هل ما زلت مرتبطاً بالعهد الذي قطعت؟ لقد وقعت أحداث كثيرة، وشهدت الضيعة، منذ عصر جدِّي، فتناً ودماراً وجراحاً، فاستسلمت للإغراء في أحد الأيام. وتمتمت اعتذاراً لكل أجدادي، وصعدت بدوري للجلوس على تلك الصخرة.

كيف أصف شعوري وحالتي؟ لقد تخففت من الزمن، والقلب، والعقل.

كان الجبل القريب خلفي، وعند قدمي، الوادي الذي يتصاعد منه، عند هبوط الليل، العويل المألوف لبنات آوى. وهناك، عند خط الأفق، ألمح البحر، قطعتي الضيقة من البحر، الضيقة والممتدة نحو الأفق كالدرب.

ملاحظة

تستوحي هذه الرواية بتصرف شديد قصة حقيقية: اغتيال البطريرك، في القرن التاسع عشر، على يد رجل يدعى أبو الكشك معلوف. وقد أعيد القاتل الذي لجأ إلى قبرص مع ابنه إلى البلاد بحيلة من جواسيس الأمير، لينفذ به حكم الإعدام.

أما سائر الأحداث - الراوي، وضيعته، ومصادره، وشخصياته، فمحض خيال فاسد.

المحتويات

صدر للمؤلف

الحروب الصليبية كما رآها العرب

ـ دار الفارابي 1989

ـ ANEP 2001

ليون الإفريقي

ـ دار الفارابي 1989

ـ ANEP 2001

سمرقند

ـ دار الفارابي 1989

ـ ANEP 2001

حدائق النور

ـ دار الفارابي 1989

ـ ANEP 2001

القرن الأول بعد بياتريس، دار الفارابي ـ ANEP 2001

موانئ المشرق، دار الفارابي ـ ANEP 2001

رحلة بالداسار، دار الفارابي ـ ANEP 2001



«إن القـدر يمـرُ، ويعـاود المرور، عـبـر ذواتنا، مثل مسلة الإسكافي في الجلد الذي يصنّعـه». والقدر بالنسـبة لطانيـوس، ابن الجبال اللبنانية، يرتسم اولاً، في اللغز الذي يحيـط بمولده، فهو ابـن لميا، المرأة الفـائقة الجمال، ولكن الإشاعات تجوب البلاد حول هوية والده الحقيـقي. والقدر يمّر ثانية، في تلـك السنـوات ١٨٤٠، حـيث كـانت الامبراطورية العـثمانية، ومـصر وانكلترا، تتـصارع لـلسيطرة عـلى ذلك البلد المنذور للتمزق، وفي الفترة التي أكرَهَ فـيها اغتيالُ مسـؤول ديني كبيـر، طانيوس على سلوك طريق المنفى...

مـازجـاً التـاريخ بالاسطورة، والحكمـة بجنون البـشـر، يأخـذنا الروائي صـاحب «ليـون الافـريقـي» و«القـرن الأول بعـد بيـاتريس» في رحلة روائيـة مدهشـة ونال بفضلها جائزة «غونكور» لعام ١٩٩٣.

إنه روائي رائع،

ألان جاكوب – جريدة «لوموند»

إن لبنـان، الارض التي باركـهـا الله، ولكنها العـدوانية تجاه الـناس الطيبين، هو مزيج من ماء زهر الليمون ورائحة البارود.

بقـراءتنا لـ «صـخـرة طانيـوس»، ثمـة شرق يقترب.

كريستيان ماكاريان
مجلة «لوبوان»

ISBN 9961-803-37-4
Dépôt-Légal:750-2001